كتاب

اشهر مشاهير الاسلام

حامد

في

الحروب والسياسة

(تأليف)

رفيق بك العظم

الجزء الثالث من المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة رجال عمر بن الخطاب)

«رضي الله عنه»

(طبع بمطبعة «المنار» بشارع درب الجماميز بمصر)

(سنة ١٣٢١ هـ)

أبو عبيدة بن الجراح

(باب)

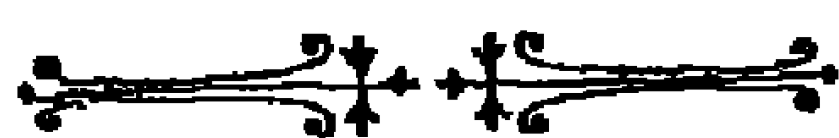
حاله فى الجاهلية

(نسبه وأصله)

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن أُهيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمَة اشتهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الامة وأحد العشرة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض : وروى ابن عساكر ان أمه أُميمة بنت غُنم بن جابر بن عبد العزّى بن عامرة بن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر وأدركت أمه الاسلام وأسلمت : وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن سعد : قال فى الطبقة الاولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ـ وهم آخر بطون قريش ـ أبو عبيدة بن الجراح

(سيرته فى قومه ومكانته عندهم)

كان أبو عبيدة محترما فى قومه مستشارا فيهم معروفا بالرأي والدهاء وكان يقال كما روى ابن عساكر فى تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح» ولم نقف على زيادة تفصيل من سيرته فى الجاهلية فنحن نكتفي عن ذلك بسيرته فى الاسلام فان فيها مايغني وهي المطلوب فى كتابنا هذا



﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

أبو عبيدة قديم الاسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانتزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية مذدعاهم داعي الحق الى التوحيد. واستبان لهم طريق الخلاص من ربقة التقليد. فقد أخرج الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن يزيد بن رومان قال: انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سليمة بن عبد الاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فاسلموا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم وقبل ان يدعو فيها. وكان اسلامهم كما في بعض الروايات بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين

﴿ صحبته ﴾

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله في اسلامه فكان قوياً في دينه صادقاً في صحبته متفانياً في حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الامة

أخرج الحافظ الجزري في أسد الغابة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل أمة أمين وانّ امينا ايتها الامة أبو عبيدة بن الجراح»: وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول (ص) الا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص لله في سره وعلانيته ولقد كان يغبطه على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضي الله عنه وعنهم أجمعين

أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال: جاء أهل نجران الى النبي صلى

الله عليه وسلم فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينا: فقال: «لابعثن اليكم أمينا حق أمين»: فاستشرف لها الناس (أي تطلعوا) فبعث أبا عبيدة بن الجراح

وفى رواية جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله ابعث معنا أمينا حق أمين فقال رسول الله «نبعث معكما رجلا أمينا حق أمين فاستشرف لها أصحاب محمد قال «قم يا أبا عبيدة»

وانما نال أبو عبيدة هذه الحظوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وعظيم حبه وطاعته له ومن أعظم مايؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزري فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه ان أبا عبيدة لما كان ببدر يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة فانزل الله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية

هذا غاية ما يؤثر من صدق ايمان أصحاب نبي بنبيهم واشراب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم ان الاسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو عن صفحات القلوب حتى صورة الآباء اذا لم تشاكل بطهارة الايمان الابناء

لا جرم ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الامة الا لعلمه بصدق ايمانه وكمال يقينه لهذا روي انه صلى الله عليه وسلم انه طعن فى خاصرة أبي عبيدة وقال: ان ههنا خويصرة مؤمنة: رواه ابن عساكر عن جابر. وروي عن موسى بن عقبة قال: قال أبو بكر الصديق: سمعت رسول (ص) قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالهن لي

أحبّ اليّ من حمر النعم : قالوا وماهن ياخليفة رسول الله (١) قال كنا جلوسا عند رسول الله فقام أبوعبيدة فأتبعه رسول الله بصره ثم أقبل علينا فقال: «انّ ههنالكتفين مؤمنتين» (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن اننا كنا فى شئ كرهنا ان يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال: «مامن أصحابي الاّ وقد كنت قائلا فيه لا بد الاّ أبا عبيدة»(٣)وقدم علينا وفد نجران فقالوا: يامحمد ابعث لنامن يأخذلك الحق ويعطيناه: فقال «والذي بعثني بالحق لارسلن معكم القوىّ الامين» قال أبو بكر: فما تعرضت للامارة غيرها فرفعت رأسي لأريه نفسي «فقال قم يا أبا عبيدة» فبعثه معهم: وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن ثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله من المغفر يومئذ فانتزعت ثنيتاه فحسنتافاه وصار أهتماً فما رؤي قط أحسن منه هتما

وبالجملة قد صحب أبو عبيدة (رض) النبي خير صحبة وكان كما روى المحدثون من علية أصحابه وأعاظم المقربين منه ولاقى من قريش فى صحبته مالاقاه أهل الهجرة وهاجر الى الحبشة الهجرة الثانية ثم هاجر الى المدينة وكان ملازما لرسول الله شديد التمسك باوامره حريصا على رضاه فتخلق باخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالاسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ولو بقي حيًّا لولي الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الاخلاق والتقوى والعدل فقد أخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب انه قال : لوأدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت أمين الله

وأمين رسوله

ثم كان له بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الاثر فى فتوح الشام مابسطناه للقارئ فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وماسنتلوه عليه مجملا فيما يلي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

﴿ حروبه وفتوحاته ﴾

(بالشام)

علمنا مماتقدم فى الجزء الاول والثاني ان أبا بكر رضي الله عنه سلم أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التي وجهها الى الشام وأمره بقصد حمص وانه ولي قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضي الله عنه وعزل عن امارة الجيش خالد بن الوليد وقد اختلف المؤرخون فى هل ولي الامارة وهو فى اليرموك أو على دمشق وذكرنا في الجزء الثاني رأينا فى هذا الخلاف فلا حاجة هنا للمزيد وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه فى الشام وفتوحه فيه وانما أحببنا ان نوردهنا مجمل فتوحه لعلاقة ذلك بترجمة هذا الصحابي الجليل والبطل الكبير فنقول

أول فتح عظيم كان لأبي عبيدة فتح دمشق التي فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحاً ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان وهو على دمشق يسرح الجنود وعليها الامراء لكي يشغلوا جيوش الروم عن امداد دمشق كما ذكر فى محله من الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق وبعد فتح دمشق استخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان ثم سار الى

فحل من أرض الاردن وفل هناك جيوش الروم وأتى بيسان وطبرية وحاصرهما فصالحا على صلح دمشق ثم بعد ان وجه يزيد بن أبي سفيان الى سواحل دمشق سار الى حمص عن طريق بعلبك وقدّم اليها السمط ابن الاسود الكندي وقدّم خالدا الى البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ثم ذهب الي حمص فافتتحها أيضا ثم رجع من هناك الى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص كما مر الخبر عن هذا وعن خلاف المؤرخين فيه في الجزء الثاني ثم سار الى حماه فصالحه أهلها ثم سار الى حلب وقدم خالدا الى قنسرين وعبادة بن الصامت الى اللاذقية ثم ترك حصار حلب وسار الى حاضرها فافتتحه ثم صار الى انطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب اليه عمر بالرجوع الى حلب واتمام الفتح فعاد وفتحها ثم رجع الى انطاكية فحاصرها وفتحها صلحا ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية وبلغت الفرات شرقا واسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ورتب فيها المرابطة والجيوش ونظم شؤون البلاد وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والاناة والرفق حتى بات سلطان المسلمين أحب اليهم من سلطان الروم فكانوا عونا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك في أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب وانما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للامارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الامراء والعمال الذين كان يوليهم أمور البلاد ويوسد اليهم قيادة الجيوش ومن لنا بمثلهم ومثله فى هذا العصر بل وفى كل عصر



كلمة في العمال

اعلم ان عمران الممالك وترقي الدول يتوقف على أمرين عظيمين هما صبغة الحكومة وأمانة الرجال فالحكومة اذا كانت ذات صبغة دستورية أي حكومة مقيدة برأي الامة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الامانة فى رجالها على الخيانة والعدل على الظلم. وانما تغلب الامانة الخيانة فى رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم اذ الظلم كمين فى النفس القوة تظهره والعجز يخفيه وانما يمنع النفوس ان تنزع منازع الظلم مانع القوة وهو هيمنة الشعب القانونية هذا فى الحكومات الشورية واما فى الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم أحد أمرين : اما الزاجر النفسي وهو الشعور الديني الناشئ عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من باريء النفوس : وامّا سيطرة السلطان وهذه لاتكون فى الحكومات المطلقة الاّ من أمير مستبد عادل اذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير

ومما لامشاحة فيه ان الحكومة الاسلامية فى مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مرّ من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما انها لم تخلو من صبغة استبدادية وكيف ما كان حالها فقد علمنا ان العمّال احوج ما يكونون الى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنتظم شؤون المملكة وسواء قدّرنا انّ هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة أو من قوة السلطة القانونية أو مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة أي قوة الهيمنة الشرعيـة ومانع الدين على ان

ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويبسط بواسطتهم للرعية بساط الطمأنينة والعدل لتتمهد للمسلمين سبل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الاسلام ويتفيئوا ظلال السكون ويتبسطوا فى مناحي العمران فما كان يختار للحكم والامارة الا أحد رجلين رجل له دين يردعه، أو رجل عنده خوف يمنعه، وكلا الرجلين بالاضافة الى غرض الرعية والامام واحد.

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ومع ما عرف عن هذا الصحابي الجليل والعامل الامين والقائد العظيم من الاناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر في سيرته كما لم يتساهل مع غيره أيضا ممن هو في طبقته فى الورع أو من دونه فيه وذلك قياماً على أوامر الشريعة واداء لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضى الله والرعية .

روى ابن عساكر ان عمر بن الخطاب أرسل الى أبي عبيدة باربعة آلاف درهم أو أربعمائة دينار وقال للرسول انظر ما يصنع فقسمها أبو عبيدة ثم أرسل بمثلها الى معاذ فقسمها معاذ الا شيئا قالت له امرأته : نحتاج اليه فلما أخبر الرسول عمر قال الحمد لله الذي جعل فى الاسلام من يصنع هذا .

هكذا كان عمر يمتحن حتى أتقى عماله وأرفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس واحكام الشرع لهذا بلغ العدل في عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الارض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل في عمله وظلم فى حكمه بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الاسلام متمتعة بالراحة آخذة فى طريق الصعود

الى قمم السعادة الاجتماعية، والحياة المدنية، آمنة من شرور والفتن التي يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ومن تصفح تاريخ الاسلام ووقف على أخبار دوله لايرى سببا لاختلال أمر دولة قط الا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك فى الاخذ على أيديهم امّا بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة شأن كل الدول أيضا لا دول الاسلام وحدها. وانّا لنعجب من غلو بعض المؤرخين في ذم الحجاج بن يوسف الثقفي عامل دولة بني مروان على العراق وانما يحوج الى الحجاج من هو مثل الحجاج اذ العامل الخائن اذا أفسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته يثير فى نفوسها ثائرة البغضاء على الدولة ويحفظ عليها قلوب الامة فتستعصي على الحاكم ويخرج امتلاك ازمتها عن طوق الدولة الا باستعمال مثل الحجاج قوي الشكيمة قليل الرأفة هذا فى الدول المطلقة كدولة الامويين وأما فى الدول المقيدة فقلّ ان يكون شيء من هذا وذاك وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يغني عن استعمال القوة والانسان اسير الاحسان وغاية مايرمي اليه الطمأنية والامان وحسبك شاهدا على هذا ان الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي لمّا نحا فى الحكم والامارة منحى عمر بن الخطاب من حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتقاء أخيار الناس للولايات تألف قلوب الامة واستلس قياد الرعية بعد أن انفضوا من حول بني مروان ثم لم يلبث ان عاد المروانيون بعده الى سيرتهم الاولى حتى ضعف أمرهم وغلبوا على ملكهم لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك الا من نتائج اطلاق يد العمال وامعان هؤلاء فى الجور. هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الامويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل

بحيث لايخرج عليهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً منهم وانما ذكرنا بني مروان مثالاً فى الدول التي أصابها الضعف وقضى عليها سوء الادارة وجور العمال بالانحلال كما انا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد معنا من أخبار الدول في الغابر ، وعظة يتعظ بها الحاضر ، وانا والله أصبحنا فى عصر أحوج مانحتاج اليه فيه معرفة العلل التي تمكنت من جسم الدول الاسلامية فأودت بحياتها الاستقلالية الى مايعلم ويشاهد ورحم الله امرأً اتعظ واعتبر ، وقوماً أثر في نفوسهم توالى العبر ،

﴿ باب ﴾

﴿ اخلاقه وسيرته ﴾

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة وممن لازم النبي صلى الله عليه وسلم وتخلق باخلاقه فكان متواضعا زاهدا تقيًّا عاقلا رزينا لين الجانب مخفوض الجناح عالما بالشرع ذا دربة فى أمور الحرب نصوحا فى خدمة المسلمين وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انه أمين هذه الامة : ومثله مارواه ابن عساكر فى تاريخه عن عمر ابن الخطاب انه قال يوما لجلسائه: تمنّوا فتمنّوا: فقال عمر بن الخطاب: لكني أتمنى بيتا ممتلئاً رجالا مثل أبي عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت(١) الاسلام : فقال ذاك الذي أردت: وأخرج عن عبد الله بن عمر انه قال: ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها احلاما (٢) وأثبتها جنانا (٣) ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذّبوك. أبو بكر الصديق وعثمان ابن عفان. وأبو عبيدة بن الجراح

(١) أي ما نقصته حقه (٢) عقولا (٣) قلبا

وها نحن اولاء ننقل اليك شيئاً من سيرته واخلاقه ليكون فيها موعظة وذكرى لقوم يتفكرون فيها (فى الزهد والتواضع) ما أخرجه الجزري فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه امراء الاجناد وعظماء أهل الارض فقال عمر: أين أخي ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يأتيك الآن : قال فجاء على ناقة مخطومة (١) بحبل فسلم عليه وسأله ثم قال للناس انصرفوا عنا فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه فلم ير فى بيته الا سيفه وترسه فقال عمر: لو اتخذت متاعاً أو قال شيئا : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين ان هذا سيبلغنا المقيل

وفي رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر انّ عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة اذهب بنا الى منزلك : قال : وما تصنع عندي ما تريد الاّ ان تعصر عينيك عليّ : قال فدخل منزله فلم ير شيئا : قال أين متاعك لا أرى الاّ لبدا وصحفة وشنا (٢) وأنت أمير أعندك طعام: فقام أبو عبيدة الى جونه (٣) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة قد قلت لك انك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل: قال عمر : غيّرتنا الدنيا كلّنا غيرك يا أبا عبيدة

(ومن كريم اخلاقه وجميل تواضعه) مارواه ابن عساكر عن قتادة قال : قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يا أيها الناس اني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى الاّ وددت اني فى مسلاخه (٤)

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القربة (٣) جونه أى سلته (٤) أى فى جلده

هكذا كان امراء الامة وأئمتها لا يرون لانفسهم فضلا على فرد من أفراد المسلمين الا بالتقوى كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الاسلام وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس تهذيبا لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة فلا يزيدهم هذا التواضع الا شرفاً وعلواً وامتلاكاً لافئدة الناس وأخذاً على شكائم أرباب العتو والجبروت حتى دانت لهم الأمم واعتلوا بدولتهم على كل الدول ومذ أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الامراء واستعمال القوة والعنف ديدن أولي السلطة انقلب بدولهم الحال الى شر مآل مما سيأتي بيانه مجملا أو مفصلاً فى هذا الكتاب ان شاء الله

اذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السلطة فيها ولي الولاية لا لدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الامة ورجاء رضى الله كابي عبيدة بن الجراح الذي مات في ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سيفه وترسه ولم يك فى بيته ما يأكل الا كسيرات من الخبز فالى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك اخلاق عمالها ؛ انها ولا مراء في الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها، ونشرت على الارض اعلام نصرتها، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط لغير خالق العباد، وناطقا فى ارجاء الارض ينطق بغير الضاد، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز فى الارض مقامها (وتلك الايام نداولها بين الناس)

(ومن اخلاقه فى الادب ولين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن

موسى بن عقبة انّ عمرو بن العاص لما كان فى غزوة ذات السلاسل فى مشارف الشام وخاف من جانبه الذي هو به بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده فندب رسول الله المهاجرين والانصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب فى سراة من المهاجرين وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وأمدّ بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : انا أميركم وأنا أرسلت الى رسول الله استمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين : فقال عمرو انما أنتم مدد أُمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلا حسن الخلق لين الشيمة متبعا لامر رسول الله (ص) وعهده : قال : تعلم يا عمرو انّ آخر ماعهد اليّ رسول الله أن قال اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وانك ان عصيتني لاطيعنك : فسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو بن العاص

لا جرم ان أبا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهدا بالدنيا لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب فى الامارة لذاتها بل لما فيها من الثواب في خدمة الاسلام والمسلمين . واما عمرو بن العاص فقد كان حريصا على الامارة راغبا بالدنيا والآخرة يحب الظهور ويميل الى اتيان الاعمال الكبار ليكون كبيرا عند الناس جامعا بين الاجرين أجر الاولى وأجر الآخرة كما سترى ذلك مبسوطا في سيرته ان شاء الله

ومن أدبه أيضا ما أخرجه ابن عساكر عن أبي البختري قال : قال عمر لأبي عبيده (أي يوم السقيفه) هلم أبايعك فاني سمعت رسول الله يقول انك أمين هذه الامة : فقال أبو عبيدة كيف أصلي بين يدي رجل أمرهُ رسول الله ان يؤمنا حين قبض : يعني أبا بكر الصديق :

وأخرج أيضا عن جابر قال : كنت فى الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق: قال أبو عبيدة صلى بالناس فانت أحق اتيتني تمدني:قال ما كنت لاصلي قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة بن الجراح

(ومن أخباره في الوعظ وحسن التأديب) ما رواه بن عساكر عن أبي الحسن عمران انّ أبا عبيدة بن الجراح كان يسير فى العسكر فيقول: ألا ربّ مبيض لثيابه ، مدنس لدينه ، ألا رب مكرام لنفسه ، وهو لها عدوّ مهين، ادرأوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات فلو انّ أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن:

ربما تبادر الى ذهن القاري انّ أبا عبيدة يتغالى في الترغيب بقوله للمسلمين فلو انّ أحدكم الخ الحديث وليس الامر كذلك اذ هو يريد بتلك السيئات سيئات الجاهلية لانه انما يخاطب قوما حديثي عهد بالاسلام فكأنما هو يريد ان يعظّم لهم شأن الاسلام وانه يمحو ما قبله من سيئات الجاهلية اذا عمل أحدهم بما أمر به من اتيان الحسنات والا فلو أراد غير ذلك لكان ترغيبه الى هذا الحد غلوّا واغراقاً يتبرأ عن مثله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأيت فى فصل (لا وثنية في الاسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً في الترغيب. وكم أودى سوء الفهم لمثل هذه الاحاديث والاخبار الى تشويش عظيم في أفكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمغالاة فى الترغيب الى مدارج الاباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين انما كان منشأوه سوء الفهم

تنبيه

قد أغفلنا باب الكتب هنا لانا لم نعثر لأبي عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لاهل الذمة قد مرّ مثلها في هذا الكتاب للفاتحين اللهم الاّ كتاباً كتبه الى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل وقد مرت صورته في سيرة عمر وكتاباً آخر أورده ابن عساكر في حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله اليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخوص الى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسلمين بالشام وهذا نص الكتاب

اني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم واني قد علمت حاجة أمير المؤمنين التي عرضت لك وانك تستبقي من ليس بباق فاذا أتاك كتابي هذا فحللني من عزمتك وأذن لي في الجلوس

وقد أورد ابن عساكر هذا الكتاب في حديث طويل عن أبي موسى الاشعري كان بودنا ايراده في سيرة أبي عبيدة لما فيه من وجوب التوقي من الطاعون لو لم نر ان ابن الاثير وهّن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة

باب

(وفاته)

قلنا في باب الاحداث على عهد عمر انّ من أهمها طاعون عمواس وعمواس بين الرملة وبيت المقدس وهي على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة وانتشر في البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما في رواية ابن عساكر في ستة وثلاثين ألفا من المسلمين فلم يبق منهم الا ستة آلاف رجل ومات به كثير من الاعلام منهم أبو

عبيـدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان وقد اختلف فى مكان وفاة أبي عبيدة فمن قائل انه في بيسان ومن قائل انه فى عمواس ومن قائل انه فى الاردنّ ففي أسد الغابة عن عروة بن رويم انّ أبا عبيدة انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس فادركه أجله بفحل فتوفى بها: وكذا فى رواية ابن عساكر عن ابن رُويم وزاد عليها انه أوصى قبل وفاته بقوله

اقرأوا أمير المؤمنين السلام واعلموه انه لم يبق من أماناتي شيءٌ الاّ وقد قمت به وأدّيته اليه الاّ ابنة خارجة نكحت فى يوم بقي من عدتها لم أكن قضيت فيها بحكومة. وقد كان بعث اليّ بمائة دينار فردوها اليه: فقالوا ان فى قومك حاجة ومسكنة فقال: ردوها اليه وادفنوني من غربي نهر الأُردنّ الى الارض المقدسة ثم قال ادفنوني حيث قضيت فاني أخوف ان يكون سنة (اى بعده)

وفى رواية له أيضا عن سعيد المقبري قال: لمَّا طعن أبو عبيدة ابن الجرّاح بالاردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال

وصيته

إني موصيكم بوصية ان قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان وتصدقوا وحجوا واعتمروا. وتواصوا وانصحوا لامرائكم ولا تغشوهم ولا تُلهِكُم الدنيا فانّ امرأ لو عمر الف حول ما كان له بدّ من ان يصير الى مصرعي هذا الذي ترون. الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون. وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله، يامعاذ بن جبل صلّ بالناس: ومات فقام معاذ في الناس فقال

﴿ خطبة معاذ ﴾

بعد وفاة أبي عبيدة

يا أيها الناس توبوا الى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فان عبدا لا يلقى الله تائبا من ذنبه الا كان حقا على الله ان يغفر له : من كان عليه دين فليقضه فانّ العبد مرتهن بدينه : ومن أصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) اخاه فليلقه فليصالحه ولا ينبغي لمسلم ان يهجر أخاه أكثر من ثلاث : والدينِ العظيمِ انكم أيها المسلمون فجعتم برجل ماأزعم اني رأيت عبدا أبرّ صدرا ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حبا للعامة ولا أنصح للعامة منه. فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اهـ

ومن تبصر فى وصية أبي عبيدة وخطبة معاذ رضي الله عنهما علم ان المسلمين انما سادوا يومئذ على الامم . بمثل هذه المناصحة وبتلك الاخلاق البارة ولانهم كانوا دائبين على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصي بالحق أميرهم مأمورهم كما أمرهم الله في كتابه العزيز فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصي بالحق والتناصح بالمعروف ان يسوّدهم الله على الامم كما سوّد أولئك القوم البررة النصحاء الذين خلدوا للمسلمين فخرا كاد يمحوه عن صفحات الزمان أقوام عطل من الفضيلة بعيدون عن فهم القرآن مستغرقون فى سبات الوساوس والاوهام سريعة خطاهم الى التدلي بطيئة عن الصعود لا يوافق نداء المنادي منهم قلوبا واعية ولا آذانا مصغية لهذا قد أخنى عليهم الزمان فهم يسبونه ظلما وينسبون تقهقرهم اليه جهلا وما الزمان الا آية العبر ومستودع اسرار الأمم ومظهر سنن الله فى الخلق فهو مرشد

العاقل ومردي الجاهل وان في هذا لبلاغا لقوم يعقلون

روى ابن عساكر ان أبا عبيدة شهد بدرا وهو ابن احدى وأربعين سنة ومات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكتم وفي رواية انه مات ولم يعقب وفي رواية أخرى انه أعقب وانقرض عقبه رحمه الله ورضي عنه وجزاه وسائر الصحابة الكرام عن أمتهم خير الجزاء

ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل فتوفي بعده في الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص. فارتفع بالناس الى الجبال فانكشف عنهم المرض

كلمة في القبور

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كالنواويس والاهرام وما شاكلها من معالم الوثنية الأولى وانما نريد الوقوف بفكرة القارئ عند اختلاف المؤرخين في مكان قبر أبي عبيدة كاختلافهم في تعيين كثير من قبور رجلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم وتحلوا بتلك الشيم الشماء وبلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها أحد من الاولين ولا الآخرين . وقد بسط المؤرخون أخبار أولئك الرجال العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة في فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا في النفوس حاجة للاستزادة ونعم ما خدموا به الامة والدين

انّ القارئ اذا وقف بفكره عند هذا الامر وقفة المتأمل لا يلبث ان يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء أمكنتها عن نظر نقلة الاخبار ومدوني الآثار على جلالة قدر أصحابها وشهرتهم

التي طبقت الآفاق وملأت النفوس اعظاماً لقدرهم واكباراً لجلائل أعمالهم وثناء عليهم وتكريما لذكر أسمائهم وشكراً لآلائهم واعترافا بجميلهم واقرارا بفضيلة سبقهم بالايمان ونشرهم دعوة القرآن

لاجرم ان القارئ أقل ماتحدثه به النفس عند التأمل في هذا الامر ان أولئك الرجال ينبغي ان تعلم قبورهم بالتعيين، وتشاد عليها القباب العاليات ذات الاساطين، اذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الايمان وصحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام فلما أتوه من كبار الاعمال، التي تعجز عنها أعاظم الرجال، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين، ودرست اجداثهم التي تضم أكابر الصحابة والتابعين، حتى اختلف في تعيين أمكنتها أرباب السير، وعفا من أكثرها الاثر، الا ماعلموه بعد بالحدس والتخمين، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين، مع ان المشاهد عند المسلمين صرف العناية الى قبور الاموات بما بلغ الغاية بالتأنق في رفعها وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الامراء الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر فى الاسلام، والمتمشيخة والدجالين الذين كان أكثرهم يجهل أحكام الايمان، ولا نسبة بينهم وبين اولئك الرجال العظام كأبي عبيدة بن الجراح واخوانه من كبار الصحابة الكرام الذين تلقوا الدين غضا طريا، وبلغوا بالتقوى والفضيلة مكانا قصيا،

والجواب عن هذا ان الصحابة والتابعين لم يكونوا في عصرهم بأقل تقديراً لقدر الرجال وتعظيما لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الابطال وأخيار الامة الا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الاموات وتعظيم الرفات لتحققهم النهي الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة

التي جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ومحو آثار التعظيم للرفات، او العكوف على قبور الاموات، ويرون انّ خير القبور الدوارس وانّ أشرف الذكر في أشرف الاعمال. لهذا اختفت عمن أتى بعد جيلهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين الا ماندر ثم اختلف نقلة الاخبار في تعيين امكنتها باختلاف الرواة وتضارب ظنون الناقلين. ولو كان في صدر الاسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الاموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شيء من هذا الاختلاف ولما غابت عنا الى الآن قبور اولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجلة والمتمشيخين التي ابتدعها بعد العصور الاولى مبتدعة المسلمين وخالفوا فعل الصحابة والتابعين. حتى باتت اكثر هذه القباب تمثل هيا كل الاقدمين وتعيد سيرة الوثنية باقبح انواعها وأبعد منازعها عن الحق. وأقربها من الشرك. ولو اعتبر المسلمون بعدُ باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الاسلام لما اجترأوا على اقامة القباب على القبور وتعظيم الاموات تعظيما يأباه العقل والشرع وخالفوا في هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدّوا الينا أمانة نبيهم فاضعناها وأسرار شريعته فعبثنا بها: واليك مارواه في شأن القبور مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الاسدي قال: قال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله (ص) أن لا أدع تمثالا الاّ طمسته ولا قبراً مشرفا الا سويته: وفي صحيحه أيضا عن ثمامة بن شُفَيّ قال: كنا مع فَضالة بن عبيد بارض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي. ثم قال سمعت رسول الله (ص) يأمر بتسويتها (١)

(١) الاحاديث الواردة بالنهي عن تشييد القبور وتعظيمها ولعن من يتخذها

هكذا بلغونا الدين وادّوا الينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم تأكيداً لعهد الامانة بدأوا بكل ماأمرهم به الرسول بأنفسهم لنستنّ بسنتهم ونهتدي بهدي نبيهم ولكن قصرت عقولنا عن ادراك معنى تلك الجزئيات. وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة "التشريع الالهي" و"الامر النبوي" القاضي بعدم تشييد القبور اتقاء التدرج فى مدارج الوثنية. فلم نحفل بتلك الحكمة وتحكّمنا بعقولنا القاصرة بالشرع فحكمنا بجواز تشييد القبور استحبابا لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقا فى الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد اذ مازلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا رفاتها بالنذور والقربات ووقعنا من ثم فيما لاجله أمرنا الشارع بطمس القبور كل هذا ونحن لانزال فى غفلة عن حكمة الشرع نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين

انتهى ماحبينا ايراده من سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه وها نحن أولاء نشرع بسيرة سعد بن أبي وقّاص الذي هو من مشاهير الدولة العمرية فنقول



مساجد ويقصدها بالنذور كثيرة قد استقصى الكلام عليها كثير من الأئمة المصلحين كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وامثالهما فلتراجع في مظانها من كتب القوم كالواسطة واغاثة اللهفان وغيرها

سعد بن أبي وقّاص

﴿ باب ﴾

حاله في الجاهلية

﴿ نسبه وأصله ﴾

سعد بن أبي وقّاص واسم أبي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب (كما في أسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي الزهري يكنى أبا اسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس

مكانته عند قومه

(وصناعته)

كانت صناعة سعد بن أبي وقاص كما تقدم في صدر الجزء الاول بري النبل . وأما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم نقف على شيء منها الاّ ان مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه فانه كان قبل الهجرة غنيا موسرا ويستدل على غناه بالحديث الآتي الذي (روي في الصحاح والسنن) عن سعد انه شكى في مكة مرضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله قد بلغ مني الوجع ماترى وأنا ذو مال ولا يرثني الا ابنة أفأوصي بثلثي مالي : قال لا : قال فبالشطر قال لا : ثم قال «الثلث والثلث كثير انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الا أجرت عليها »



باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

سعد بن أبي وقاص من السابقين الاولين الى الاسلام الذين وافقت دعوة التوحيد منهم قلوبا واعية فبادروا لقبولها مبادرة الظمآن للماء • والعليل للدواء • والنفس الحساسة من طبعها تتململ من الشرك وتتألم من عبادة الاوثان وانما هي تترقب نورا ينقشع عنه ظلام الوثنية ومعينا يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية. وتتوصل لاطرّاح الآصار الجاهلية • وسعد رضي الله عنه لم يلبث ان طرق سمعه داعي السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة في الاسلام

روي ابن عساكر في تاريخه وابن الاثير في أسد الغابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت أبي يقول : رأيت في المنام قبل ان أسلم بثلاث كأني في ظلمة لا ابصر شيئا اذ أضاء لي قمر فاتبعته فكأني انظر الى من سبقني الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى عليّ بن أبي طالب والى أبي بكر وكأني أسألهم متى انتهيتم الى هاهنا قالوا الساعة : وبلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته في شعب إجياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمني أحد الا هم : وروى ابن عساكر ان سعدا أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة

ليس العجب من مبادرة سعد الى الاسلام بعد ان استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه الى التملص من حبائل الوثنية وانما العجب من هذا الدين الذي مادخل قلبا الا تمكن منه تمكن الروح من الجسم •

ورسخ فيه رسوخ الاطواد فاستحال ان تدكه العواصف أو تسطو عليه الاغراض شأنه مع المسلمين الاولين ومن بعدهم الى هذا اليوم. وانّ ما نال الصحابة من الاذى وماعانوا من أنواع الشدائد فى سبيل تمسكهم بعروة الاسلام الوثقى والتفافهم على صاحب الشريعة الغرا لما تنوء به الجبال ومع هـذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع . ولم يمنعهم عن المضي في سبيل الهدى والرشاد مانع . ومن هـذا القبيل ماروى عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هـذه الآية فيّ (وانْ جاهداكَ على أن تُشركَ بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما فى الدنيا معروفاً) قال كنت رجلا براً بأمي فلما أسلمتُ قالت:ياسعدماهذا الدين الذي أحدثت لتدعنّ دينك أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيّر بي : فقال لا تفعلي ياأمت فاني لاأدع ديني : قال فمكثت يوما وليلة لا تأكل فاصبحتْ وقد جهدتْ فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني هذا لشيء : فلما رأت ذلك أكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : أخرجه ابن الاثير فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن أبي عثمان النهدي : وفى أسد الغابة عن ابن اسحاق : قال كان أصحاب رسول الله (ص) اذا صلوا ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم فبينما سعد بن أبي وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله (ص) فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه فكان أول دم أهريق فى الاسلام : وللصحابة الاولين من مثل هـذا اخبار كثيرة تدل على صبرهم على المكاره وتحملهم ضروب الاهانة من المشركين استمساكا

بحبل الاسلام ووفاءً بعهد الايمان وايقانا بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام

(صحبته)

كان سعد بن أبي وقاص من خيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبي صحبة مخاص فى ايمانه وجاهد بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه اذ شهد معه المشاهد كلها وكان معه يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث وكان ممن ثبت معه يوم أحد وقاتل دونه قتال الابطال . وروي عن الزهري انه قال: رمى سعد يوم أحد ألف سهم: وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه اذ قال له « ارم فداك أبي وأمي ارم أيها الغلام الحزوّر » (١) : رواه فى أسد الغابة عن علي بن أبي طالب (رض)

وعابه يوما بنو أسد فى الكوفة فقال راداً عليهم : اني لاول العرب رمي بسهم فى سبيل الله والله ان كنّا لنغزو مع رسول الله (ص) مالنا طعام الا السمر وورق الحبلة حتى ان كان أحدنا ليضع كما تضع العنز (وفى رواية الشاة) مابنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرني (٢) على الدين لقد خسرت اذاً وضلّ عملي : رواه ابن عساكر وابن الاثير عن قيس بن أبي حازم: ومن أجل مايؤثر عنه فى صحبته مارواه ابن عساكر عن عبد الله بن

(١) الغلام الحزوّر أي القويّ (٢) قوله السمر وورق الحبلة كلاهما شجر وقيل ان الاول هو شجر الطلح والثاني نبات يشبه اللوبياء. وقوله كما تضع الشاة أى كما ترعي يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام أن كانوا يرعون ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله مابنا خلط الخلْط والخلِط بسكون اللام وكسرها التماق وقوله تعزرني من العزر وهو اللوم او التوقيف على باب الدين واحكامه كما فى القاموس

عامر بن ربيعة انّ عائشة قالت :سهر رسول الله مَقْدَمَهُ المدينة ليلةً فقال «ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة» فبينما نحن كذلك اذ سمعنا خشخشة سلاح فقال «من هـذا »فقالوا : سـعد بن أبي وقاص فقال له رسول الله (ص) «ماجاء بك»فقال سعد وقع فى نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه : فدعا له رسول الله :قالت فنام رسول الله حتى سمعت غطيطه في نومه

وهذا يدل على منتهى الحرص من سعد رضي الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر في تلك الليلة بخطر على النبي(ص) كما شعر النبي بذلك أيضا فبادر ليحرسه بنفسه ويقيه أذى عدوّه شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون فى خدمته ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته واعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء

وقد كان من حب رسول الله لسعد أن دعا له ان يسدد رميته ويجيب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته وقد روى المحدثون كثيراً من الاخبار فيمن أصابته دعوة سعد رضي الله عنه

باب

حروبه وفتوحاته

قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قريش وكماتهم لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس أن أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه:انه الاسد عاديا: كما رأيت في خبر مسير سعد الى العراق فى الجزء الثاني فانتهى عمر الى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الاسلامية فى حرب

الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى الى شراف وهناك عشّر الناس وأمّر على أجنادهم وعبّاهم وفرق المسالح فى الاطراف وسد الفروج المخيفة ولما أتم لكل شيء عدته ارتحل الى القادسية وهي المكان الذي اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلي أرض العرب وقد مرّ تفصيل الخبر عن مسير سعد الى القادسية فى سيرة عمر ونشير هنا الى ما كان بعد وصوله القادسية من أخباره مع الفرس فنقول

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) الى كسرى يزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا ان أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا

علم يزدجرد من وقائع العرب الاولى مع جيوشه التي دحرت في العراق ايام خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ان العرب بعد الاسلام ليسوا العرب قبله وان القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الابل أصبحوا من رعاة الامم وقادة الفتح فلا ينفع معهم الا الجد ولا يقاومون الا ببذل الجهد في اعداد العديد والعدة فاستدعى اليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب الرأي فيها وقال له اني أريد اني أوجهك في هذا الوجه فانت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله

كان رستم صاحب رأي ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى ان مقامه مع كسرى لتدبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه ضنًّا بها عن مواقف الخطر. فرغب الى يزدجرد استبقاءه فى عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأي وكان مما قاله له يومئذ: ان العرب لا تزال

تهاب العجم مالم تضربهم بي ولعلّ الدولة أن تثبت بي اذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر ، والاناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدوّنا :

فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال : قد اضطرني تضييع الرأي الى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك في نفسك وملكك دعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فان تكن لنا فذلك والاً بعثنا غيره حتى اذا لم نجد بداً صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فإني لاأزال مرجوّاً في أهل فارس مالم أهزم : فأبى الاّ ان يسير نخرج حتى ضرب عسكره بساباط : وجاءت الاخبار الى سعد بذلك فكتب الى عمر فكتب اليه ان يستعين بالله ولا يجزع وان يرسل الى يزدجرد أولاً يدعوه الى الاسلام كما مر الخبر عن هذا في سيرة عمر رضي الله عنه: فارسل سعد نفراً من أهل الرأي منهم النعمان بن مقرّن وبُسر بن أبي رُهْم وحملة بن حويّة وحنظلة بن الربيع وفرات بن حيان وعدي بن سهيل وعطارد بن حاجب والمُغيرَة بن زرارة بن النباش الاسدي والاشعث بن قيس والحرث ابن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمثنى ابن حارثة دعاةً . فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد فحبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع واجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم واحضر الترجمان وقال له سلهم ما جاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل انّا

تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لاصحابه ان شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال:

انّ الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدعُ قبيلة الا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر ان نبتدىء الى من خالفه من العرب . فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ماجاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا ان نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف . فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسّن الحسن . وقبّح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرّ منه . الجزية . فان أبيتم فالمناجزة (الحرب) فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على ان تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وان بذلتم الجزي قبلنا ومنعناكم والاّ قاتلناكم:

ومن نظر في كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لفكر ولا دين يرى انّ أصول الدعوة الى الاسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الامم بلا إجبار ولا اكراه الا مايصاحب الدعوة من القوة التي يراد بها حمايتها وإظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر الا بقوة أهله . والانسان أكثر مايخضع للحس دون الوجدان الاّ من اطرّح رداء التقليد، واطلق عقله من قيود الاوهام، فوضع كل مايرد عليه موضع المحاكمة والنقد، وهؤلاء عددهم قليل، في كل أمة وجيل

لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان فأجابه بجواب فظ يظهر

فيه امتهانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم بعد ان كانوا من أفقر الشعوب وأدناهم وأجهلهم : فأجابه المغيرة بن زرارة بان ماوصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق الا انه قد كان ذلك قبل الاسلام وأما بعده فالحال صار غير الحال . ثم دعاه الى مادعاه اليه النعمان من قبول الاسلام . أو يدفع الجزية عن يد وهو صاغر . أو السيف . فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وقال ارجعوا الى صاحبكم وأعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بانفسكم بأشد مما نالكم من سابور : فتقدم عاصم ابن عمرو وقال أنا سيد هؤلاء وحمل التراب على عاتقه وخرج الى سعد وقال أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم

قال يزدجرد لرستم بعد ان فارقه الوفد ما كنت أرى ان في العرب مثل هؤلاء . ما أنتم باحسن جوابا منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمرا ليدركُنّهُ أو ليموتنّ عليه . على اني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه : فقال رستم أيها الملك انه أعقلهم وتطير من ذلك

والعجيب فى هذا الخبر ان يعتقد يزدجرد ان القوم وعدوا أمرا هم مدركوه ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التي يريد بها تأكيد امتهانه لهم واحتقار أمرهم وهذا بلاريب من الخرق في الرأي والتناهي فى الكبرياء الباطلة وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك ويحدث قومه به : ولاجرم ان أكثر مامهد للمسلمين يومئذ طريق الفتح والغلبة على الامم هو استصغار شأنهم من ملوك الارض

وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الامة البدوية قبل الاسلام من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة على انه كان فى مظاهرهم واخلاقهم بعد الاسلام مايكفي لاعتبار أعدائهم بتغير أحوالهم وينذر بعلو شأنهم على من سواهم ولله فى هذا شأن هو بالغه

أخذ سعد بعد ذلك في بث السرايا للغارات على الاطراف ومناوشة مسالح الفرس وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس فى فى أربعين ألفا وخرج هو فى ستين الفا وجعل على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران وكتب الى أخيه البنذوان فى مرمة الحصون واعداد العدة ثم سار فنزل بكوثي وأتي له هناك برجل من المسلمين فقال له ماجاء بكم وماذا تطلبون : فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم ان أبيتم ان تسلموا : قال رستم فان قتلتم قبل ذلك :قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ماوعده فنحن على يقين : فقال رستم قد وضعنا أذن فى أيديكم : فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس انما تحاول القدر : فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعاث جيشه في النواحي وغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهل برس الى رستم: فقال يامعشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا الا أعمالنا . والله ان العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم . ان الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والاحسان. فاذا تغيرتم فلا أرى الله الا مغيراً مابكم وما أنا بآمن من ان ينزع الله سلطانه منكم : ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه

وأنت ترى من هذه الحكاية الى أية درجة بلغ فساد النظام وفشو مرض الظلم والفوضى فى أمة الفرس يومئذ ولا تثريب على عرب العراق اذا أعطو بأيديهم الى المسلمين الذين رأوا منهم من حسن الاخلاق والمحافظة على الحقوق والقيام على العدل مالم يُرَ من فاتح قبلهم قط

اقام رستم بالعراق دون القادسية نحو أربعة أشهر ولا يكون بينه وبين المسلمين حرب الا بعض المناوشات التي كانت تقع بين بعض جنوده وسرايا المسلمين ثم عزم بعد هذه المطاولة على قصد سعد وهو بالقادسية فسار وقدم امامه الجالينوس وكان يطاول المسلمين رجاء ان يضجروا بمكانهم فينصرفوا الا ان الملك استعجله وانهضه : وكان عمر (رض) كتب الى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضا فأعد للمطاولة عدتها فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى أعتدوا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الابيض

دعوة المسلمين الى الآخاء والمساواة وما نشأ عنها

لما اصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى الى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ولما هاله مارأى من جمعهم مع ماخامر فوآده من قبل من الخوف منهم أرسل الى زهرة ابن الحوية وهو من سادات بني تميم فوافقه فأراده على ان يصالحه ويجعل له جعلا على ان ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك بل يقول له كنتم

جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم: ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة: ليس أمرنا كامر أولئك . انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه: فقال لرسوله اني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه احد الا ذل . ولا يعتصم به أحد الا عز: فقال رستم: ماهو ؟ قال: اما عموده الذي لا يصلح الا به فشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله: قال وأي شيء أيضا قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وام: قال ماأحسن هذا! ثم قال رستم أرأيت ان أجبت الى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال أي والله: قال صدقتني أما ان أهل فارس منذ ولي ازدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم: فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا:

من تأمل في هذه المحاورة علم ان دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الاخاء والمساواة واعتاق الطبقات الدنيا من رق العبودية لاسيما في الامم القديمة التي كانت دولها عريقة في الاستبداد واشراف ممالكها مستعبدين للشعب كان أصعب شيء على الامراء والملوك قبول هذه الدعوة لما يتوقعونه بعدها من وجوب كف يد القهر والقوة التي هم باسطوها على الناس لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الاسلام

ويزجون بالعامة في غمار الحروب لادفعا عن الدولة بل منعا عن الخير واستئثارا بالسلطة وتشبثا باسم السيادة المطلقة على الشعب بدليل ماسمعت من هذه المحاورة وما نتلوه عليك من تتمة ماكان من الخبر عن رستم فانه بعد ان سمع ماسمع من زهرة أحب ان يسمع اشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ماسمع لعلهم ينزعون الى اطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ليكونوا جميعا اخوة فى الدين سواء امام العقل والعدل : فدعا رجال فارس وذاكرهم في هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك لهذا أرسل الى سعد ان ابعث لنا رجلا نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم اليهم فقال له ربعي بن عامر متى نأتهم جميعا يروا انّا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل : فارسله وحده فسار اليهم في أبسط زي من اللباس والعدة واقتحم بفرسه بساط رستم ونمارقه ثم دنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على البسط والنمارق فسئل ماجاء بكم؟ فدعاهم الى الدين أو الجزية أوالحرب وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهله لينظر وقومه فى هذا الامر فامهله ثلاثا فقال له : وهل انت سيد قومك ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم : فخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من كلام هذا الرجل؟ ترغيبا لهم فى اجابة دعوة الاسلام : فقالوا معاذ الله ان نميل الى دين هذا الكلب اما ترى الى ثيابه ؟ فقال ويحكم لاتنظروا الى الثياب ولكن انظروا الى الرأي والكلام والسيرة ان العرب تستخف باللباس وتصون الاحساب ليسوا مثلكم :

ولعل رستم استمال امراءه بعد ذهاب ربعي بن عامر أو أراد تردد

رسل المسلمين عليه رجاء اقتناع قومه منهم فلما كان من الغد ارسل الى سعد بن أبي وقاص ان أبعث الينا ذلك الرجل : فبعث اليهم حُذَيفَةَ بن محصن فاقبل فى نحو زي سابقه ووقف على رستم راكبا قال : انزل : فأبى فقال له ماجاء بك ولماذا لم يجيء الاول ؟ : قال : انّ أميرنا يحب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء : ثم سأله رستم عما جاء بهم فأجابه مثل الاول فصرفه ثم بعث من الغد ان أبعثوا الينا رجلا : فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم في عصره فاقبل اليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (مرمى سهم) لايوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم انّا معشر العرب لانستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم «أي تساونهم بانفسكم والخطاب كما لايخفى للامراء» كما نتواسى فكان أحسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، واني لم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت انكم مغلوبون وان ملكا لايقوم على هذه السيرة ولاعلى هذه العقول :

قال المغيرة ماقال على ملأ الناس بين جنديّ وأمير وهو يسمع بصوته الجهوري كل الناس فسرى كلامه في الرؤس كما تسرى الشرارة الكهربائية فى الاسلاك وانتفض لها القوم كما ينتفض العصفور بلله القطر

ماذا كان بعد هذه الهزة الكهربائية . والدعوة الاسلامية ؟ كان انّ السفلة هبوا هبوب المستيقظين من سبات عميق فنادوا : صدق والله العربي

فيما قال : وامّا لدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اوّلينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة : ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أي أشراف البلاد وسادة الامة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم كما رأيت من قول أولئك الدهاقين الاّ ان أصروا على الحرب ورفض مادعاهم اليه المسلمون فافضى ذلك الى زوال دولتهم وذهاب ملكهم وانما حال بينهم وبين الاسلام واستبقاء ملكهم فى أيدي ملوكهم حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التي أرادهم على تركها المسلمون وعيّرهم بها المغيرة وسابقوه . وكم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمر من الممالك وليس اشأم على البشر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل فى رجالها حب الاستبداد وبسط يد القهر على طبقات المحكومين ، واستفحل فيها شأن الاشراف فكانوا أربابا والرعية مربوبين ، تساق بأيديهم الى حيث تلاقي الحتوف وتعاني أنواع الشقاء

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد في نفوس أشراف الفرس وغيرهم من الامم القديمة فجاء الاسلام يدعو الى الحرية وان البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والام حواء ، وانما أمر الشعوب فى الامم القديمة الى أشرافهم كما رأيت فهم لامرائهم تبع ولذوي السيطرة عليهم مقلدون قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة اولئك الجبارين ، فلن تصل اليهم دعوة الاسلام الى المساواة فى الحقوق والاخاء فى الدين ، وعدم التفاضل الاّ بالعلم ، الاّ بارهاب قادتهم ، وقهر سادتهم ، فهل يؤخذ على الاسلام وهذا شأنه فى اسعاد البشر ان جعل أساس الدعوة الموعظة وحياطتها

القوة ، لا والله ان فى هذا لمنتهى الحكمة بالاضافة الى اخلاق تلك الامم وحياتهم التي هي ذل محض ولّده طول الصبر على الضيم والرضوخ لسيطرة الامراء الجائرة وسلطانهم القاهر حتى أصبح ملكة من ملكات النفوس تظهر حيناو تختفي آخر واليك الدليل

دعا المسلمون رجال الفرس الى مادعوهم اليه فأبوا واستكبروا ومنشأ الاباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية والخوف من محو آية التفاضل أو النهوض بالسفلة الى مقام الحرية الذي يلحقهم بالاشراف ويقضي على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال فزجوا بالعامة فى غمار الحرب والحتوا بدولتهم الهلاك : لهذا اذا نظرنا الى الدعوة الاسلامية يومئذ نجد انه قد نشأ عنها امران عظيمان ـ أمر ظهر أثره فى الحال ، وأمر ظهر أثره في الاستقبال ،

فأما الامر الذي ظهر أثره فى الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للاسلام ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم خوفا من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل أيدي الاشراف حتى كان من ذلك توقف انتشار الاسلام بالدعوة الا بعد حمايتها بالقوّة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحوا آثار الوثنية من البلاد : .

وامّا الامر الذي ظهر أثره فى الاستقبال فهو انّ الرضوخ لسيطرة الاشراف لما صار ملكة فى نفوس الاعاجم كانوا لها أطوع، واليها أميل، ولما بسطت عليهم دولة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الاسلام اغتبطوا حينا بسلطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب فى الشرق والغرب وتفرقت عصبيتهم في انحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهراني الاعاجم وأفضوا

الى هؤلاء بأمور الملك وشاركوهم في شؤون الدولة بحكم الوحدة الاسلامية والجامعة الملية، نزع الاعاجم الى سيرتهم الاولى ونبض فيهم عرق القوة فتحزبوا احزابا تناويء الدولة العربية وتحاول هدم أركان حكومتهم الديموقراطية واستبدالها بحكومة الاشراف الارسطوقراطية ولم يروا اعون لهم على هذه البغية الا الدعوة لآل البيت النبوي الشريف فبثوا منهم الدعاة فى الآفاق الاسلامية يدعون لآل البيت فى السر تارة والعلانية أخرى حتى تمكنوا من كبد الدولة المراونية واوغروا عليها صدور الامة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية فكان ما كان من تتبع هؤلاء لاهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين فتألبوا على قلب دولتهم مرارا عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الامور لانصارها من الاعاجم الذين لم يلبثوا الا جيلا أو بعض جيل حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعماؤهم ملك العباسيين العريض فأعادوا سيرة الاشراف الاولى لافبح ماكانت عليه من قبل فى سوء الاحدوثة والايغال فى الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس وسنلم بشيء من هذا البحث فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

وقائع القادسية

دعا رستم قومه الى مسالمة المسلمين بعد كلام طويل جرى بينه وبين المغيرة فأبوا عليه وأراد سعد ان يباشر الحرب انذاراً للقوم آخر مرة فأرسل ثلاثة من ذوي الرأي الى رستم يدعونه وقومه الى الاسلام فقالوا له ان أميرنا يدعوك الى ماهو خير لنا ولك ، والعافية ان تقبل

مادعاك اليه ونرجع الي ارضنا وترجع الي أرضك ودار كم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عونا لكم على أحد ان أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك وليس بيننا وبين ان تغبط بهذا الامر الا ان تدخل فيه

هذه كانت آخر دعواهم له ان يقبل الاسلام ويحتفظ بدولته وملكه ومُلكه ويبقى فى أرضه ويرجعون الى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعليهم لا يضارون فى ملكهم ولا يمس جانب سلطانهم ولهم مع ذلك الحماية والدفع من المسلمين. ان هذا لغاية الانصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا في حمأة الوثنية واستناموا لزعماء الجور . لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة مجاراةً لزعماء الامة وقادة الجيش ودهاقين البلاد فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وانذر المسلمين بالحرب وهو فى باطن الامر لا يريدها ولم يتقدم لها الا مكرهاً عليها عالماً بمصير قومه بعدها فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعدا : أتعبر الينا أم نعبر اليك ؟ فأجابه ان اعبر وارسل سعد الى المسلمين ان يقفوا مواقفهم ويأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا وعبر اليهم الفرس من العتيق وجعل رستم بينه وبين يزدجرد بريدا ينقل الخبر بالصوت أي وضع رجالا في مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث اذا نادى الواحد يسمعه الآخر فيصل الخبر الي يزدجرد فى أقرب وقت

كان بسعد يومئذ مرض عرق النسا وقروح فى أليتيه لا يستطيع الركوب فبقي على سطح القصر وهو مكب على وجهه فى صدره وسادة يشرف على الناس والصف فى أصل حائطه فعابه بعض الناس بذلك وذكره في شعره وقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره　　وسعدٌ بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة　　ونسوة سعدٍ ليس فيهن أيّم

فبلغت أبياته سعدا فقال اللهم ان كان هذا كاذبا وقال الذي قال رياء وسمعة فاقطع عني لسانه ثم نزل الى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من ذوي الرأي والنجدة منهم المغيرة بن شعبة وطليحة الأسدي وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا وأمر سعد الناس بقراءة سورة الانفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فاذا صليتم فاني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فاذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ثم اذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فاذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم: فلما كبر سعد الثالثة خرج أهل النجدات فانشبوا القتال ودارت رحى الحرب واعتور الطعن والضرب وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها . وأرسل سعد الى بني أسد ورئيسهم طليحة ان دافعوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد في كتائبها فباشروا الفيلة وقام الاشعث ابن قيس في بني كندة فحرضهم على القتال فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف اليهم المسلمون ورحى الحرب

تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها فارسل سعد الى عاصم بن عمرو التميمي ان يكفيه وقومه شر الفيلة فتقدم عاصم بجماعة من شجعان قومه ورماتهم فقطعوا وضن الفيلة فعوت وفرت برجالها ونفس عن أسد فردوا جنود فارس عنهم الى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع الفريقان وقد أبلى بنو أسد في ذلك اليوم ـ وهو يوم أرماث ـ بلاء عظيما

لما أصبح القوم في اليوم الثاني ـ وهو يوم اغواث ـ وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم واما القتلى فدفنوا هنالك وبينما هم يدفنون القتلى طلعت نواصي الخيل من الشام ومعها القعقاع ابن عمرو الذي قال عنه أبو بكر: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا: وقد كان عمر كتب الى أبي عبيدة بارسال أهل العراق الى العراق كما تقدم في سيرته فارسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بن أخي سعد ويعرف بالمرقال وكان القعقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث فعهد الى أصحابه وهم الف ان يتقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة . ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع ثم خرج وهو ينادي يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وطلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القعقاع ثم خرج البنذوان والفيرزان فانضم الى القعقاع الحارث بن ظبيان أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ثم مازال يتبارز الافران حتى انتصف النهار فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم فكان من حسن مكايد القعقاع ان بات تلك الليلة يسرب أصحابه الى المكان الذى فارقهم فيه وقال اذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فان أقبل هاشم (يعني بقية الجيش الآتي من الشام) فذاك والا جددتم للناس رجاء وجداً وأصبحوا على مواقفهم فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبّر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى اليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فأُخبر بما صنع القعقاع فعبّى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم حتى اذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم الى العتيق وكان الفرس باتوا يعملون توابيتهم ويعدون فيلتهم واقبلت الرجالة تحميها ان تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالامس لان الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها وكان يوم عماس شديدا على العرب والفرس وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو واضرابهم من انجاد المسلمين قتالا شديدا وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها وما زل القتال دائرة رحاه حتى أمسوا فلما امسى الناس اشتد القتال وكانت ليلة الهرير وكان الفرس لا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير اذن سعد وكان اول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له ان لم يستأذني. ثم ان سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الاولى تقدمت أسد ولله در أسد على حسن بلائها فى هذه الحرب

فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم: ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وامراء الاعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ولما كبر سعد الثالثة تلاحق الناس بعضهم ببعض وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالا بعد ما صلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم الى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم افراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتمى الناس (اي انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الاعلون وان المسلمين هم الظافرون وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشرا وزائدا اربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الاساودا حتى اذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا

وأصبح الناس من تلك الليلة التي تسمى ليلة الهرير وهم حسرى لم يغمضوا اجفانهم فسار القعقاع فى الناس فقال ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ولا هؤلاء (يعنون الفرس) أجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حيث انتهيا وانفرج القلب وركب عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم فهوت فى العتيق وانتهى القعقاع ومن معه الى السرير وقد قام عنه

رستم وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ونادى اليّ اليّ قتلت رستم فأطاف به الناس وانهزم قلب الفرس فقام الجالينوس على الروم ونادى الفرس الى العبور واما المقترنون بالسلاسل فتهافتوا كلهم في العتيق وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كابيان وهو العلم الاكبر الذي كان للفرس (مر خبره في سيرة أبي بكر) فعوض منه ثلاثين ألفا ونفل سعد سلب رستم لقاتله هلال

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التي دونها التاريخ وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة واما من قتل من الفرس فعدد كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرّة الفرس وفلّ حدهم وتشتت جندهم ودخول الوهن على نفوسهم كما كان ذلك مع الروم في وقعة اليرموك. والغريب في هذا ان عدة المسلمين كانت ضعيفة لانشا كل عدة الفرس العريقين في المدنية الماهرين في الصناعات لاسيما في الادوات الحربية حتى لقد روى المؤرخون ان الفرس كانوا يشبهون سهام العرب بالمغازل فقد روى البلاذري عن أبي رجاء الفارسي عن أبيه عن جده قال: حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) نعني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا:

وقد غنم المسلمون في القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ولما جمعت الاسلاب والاموال جمع شيءٌ لم يجمع قبله مثله وأمر سعد القعقاع وشُرَحبيل بن السمط باتباع الفارين وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وامعنوا فيمن لحقوه قتلا وأسرا وروي

شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسرى من الفرس وهو دليل على ما أصاب القوم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التي رأوا فيها من قتال المسلمين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان

رأي سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحويّة وليس له ان يستكثر عليه مثله في مثل موقفه ذلك فكتب الى عمر في ذلك فأخذ عليه عمر استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب اليه : تعمد الى مثل زهرة وقد صلّى (سبق) بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة : ونعم ما فعل عمر رضى الله عنه فقد انصف الرجل من جهة ونبه سعداً من جهة ثانية الى وجوب تألف كبار الناس في مواقف الحروب امتلاكا لقلوبهم وتقديرا لقدر خدمتهم

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية ما رأوا من ظفر المسلمين وهالهم أمر الاسلام استأمن قسم عظم منهم على ان يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندي يسمون جند شهانشاه (ولعلهم من الحرس الملكي) استأمنوا على ان ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الذي سألوه وحالفوا زهرة بن حوية السعدي التميمي وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف : نقل هذه الرواية البلاذري في فتوح البلدان وهي اذا صحت تدل على جواز استخدام الذمي في الجند الاسلامي اذا طلب ذلك ولا يعترض هنا ان الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين فان عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها فقد روى البلاذري أيضا عن جعفر

ابن محمد عن أبيه قال كان للمهاجرين مجلس فى المسجد «للمشاورة» فكان عمر يجلس معهم ويحدثهم عن ماينتهي اليه من أمر الآفاق « ليستشيرهم فى الامور » : فقال يوماً ماأدري كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله (ص) انه قال «سنوا بهم (أي بالمجوس) سنة أهل الكتاب »

ومن هذا الحديث نعلم ان المجوس فى المعاملة الشرعية كأهل الكتاب لهذا عاملهم عمر رضي الله عنه معاملة أهل الكتاب



« فتح المدائن »

عاصمة الاكاسرة

انّ وقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيدا للوصول الى عاصمة الاكاسرة التي كانت أم البلاد الفارسية ومعقل الاسرة الكسروية لهذا كان ما كان من سعد فى القادسية من طول التأني والتريث فى أمر الحرب وأخذ العدة ومطاولة العدوّ حتى أضجر رستم من طول المكث وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليائس من الظفر بعد ان رأى مارأى من ثبات العرب ورزانتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب: ولما انتهى أمر القادسية الى ما انتهى اليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن وان يخلف النساء والعيال بالعتيق وان يجعل معهم جندا كثيفاً وان يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لايام بقين من شوال سنة خمس عشرة وقدم امامه عبد الله بن المُعْتَم

وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط فلقيهم في برس جمع من الفرس فهزمهم المسلمون ففروا الى بابل وفيها فلة القادسية ولما هزموا اقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فارسل زهرة الى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره في المقدمة واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال بن أخيه واتبعهم هو ببقية الجيش فنزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون وكان فيهم عدة من القواد الكبار منهم النخيرخان والهرمزان ومهران فانطلق هؤلاء القواد كل الى جهة فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من الفرس في كوثي فهزموهم ثم ارتحلوا الى بهرشير وهي المدائن الغربية فلما وصلها المسلمون ورأوا الايوان قال ضرار بن الخطاب: الله أكبر أبيض كسرى . هذا ماوعد الله ورسوله: وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة وكان نزولهم عليها فى ذي الحجة سنة خمس عشرة وانما كانوا يكبرون لتحقق وعد رسول الله لهم بملك كسرى: والذي أخذ بافئدة العرب فاستكانوا للدعوة واخلصوا للاسلام النية وتفانوا فى سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك انما هو تحقق وعد النبي (ص) لهم بمصير ملك فارس والروم اليهم حتى ان هذا الامر كان من أعظم البواعث على اخلاص كثير من المنافقين وحسن اسلامهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من اعوان الاسلام وقادة الفتح بعدُ: ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين

نزل المسلمون على بهرشير وهي على شاطئ دجلة الغربي وحاصروها نحو شهرين وهم يرمون العدو بالمجانيق ويدبون اليهم بالدبابات ويقاتلونهم بكل

عدة ونصبوا على المدينـة عشرين منجنيقا حتى ضيقوا على أهلها الحصار وباتوا فى ضنك شديد فأكلوا الكلاب والسنانير وصبروا من شـدة الحصار على أمر عظيم وبالنهاية غادروا المدينة وقطعوا الى المدينة الثانية فاخذها سعد وأنزل المسلمين منازلها وكان فتحها في صفر سنة ست عشرة

أقام سـعد فى بهرشير اياماً من صفر وهو يفكر في كيفية العبور الى المدينة الثانية التي فيها ايوان كسرى فأتاه علج فدله على مخاضة تخاض الي صلب الفرس فأبى وتردد عن ذلك لان النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد فجاءه آخر وحرضه على العبور وقال ان بقيت ثلاثة أيام فان يزدجرد يذهب بكل شىء فى المدائن فهيجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

. انّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه ويخلصون اليكم اذا شاؤا فى سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شىء تخافون ان تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأي ان تجاهدوا العدو قبل ان تحصدكم الدنيا . ألا اني قد عزمت على قطع هذا النهر اليهم :

فقالوا جميعا عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس الى العبور وقال: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب عاصم بن عمرو ذو البأس فى ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصما فقدمهم عاصم بستين فارسا على الخيل الذكور والاناث ليكون أساس لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة

فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطّعنوا وتوخى المسلمون عيونهم فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالستين غير متعبين ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها. أذن للناس بالاقتحام وتلاحق الناس فى دجلة حتى اذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والالطاف شيئا كثيرا مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم وذكر المؤرخون عما وجد فى بيت المال مقدارا فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف الف الف الف وقد نقل هذا العدد ابن الاثير عن الطبري والطبري أعقل من ان لا يحكّم العقل في ايراد مثل هذا العدد وانما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس اذ وجود ثلاثة آلاف ألف أي ثلاثة آلاف مليون بلا تكرير ثلاثة مرات أمر يستبعده العقل فكيف به لو كرر وقد رأينا كثيرا من أمثال هذه الروايات الكاذبة فى التاريخ وانما يظهر كذبها بقليل من التبصر والامعان ومعظمها ناشئ عن التحريف في النقل والمسخ فى النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً الا حامية القصر الابيض وهؤلاء استأمنوا فى الحال ودخل سعد الايوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ولم يغير مافيه من التماثيل وانه ليصلي بالناس والتماثيل قائمة فيه: وقرأ سعد يوم دخوله الإيوان « كم تركوا من جنات وعيون وزرع » الآية

وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه

وناهيك بذخائر الاكاسرة. وقسم الفيء على الجند فاصاب الفارس اثنى عشر ألفا وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالاخماس الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسري ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال: انّ قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له عليّ رضي الله عنه انك عففت فعفت الرعية

ولا جرم فانه مع اقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ وامتلاء ايديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس اليهم كانوا على جانب من عزة النفس والامانة والتعفف قل ماصدر عن جيش من جيوش الفاتحين وخذ لك مثلا على ذلك ان رجلا من المسلمين أقبل يومئذ بحق (علبه) الى صاحب الاقباض فقال ومن معه: مارأينا مثل هذا مايعدله (عائله) عندنا ولا مايقاربه: فقالوا: هل أخذت منه شيئا ؟ فقال: والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من أنت ؟ فقال والله لاأخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه: فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله ان الجيش لذو امانة ولولا ماسبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر ، لقد تتبعت منهم هناة ماأحسبها من هؤلاء :

وقال جابر بن عبد الله : والذي لااله الاّ هو ماطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة . ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كامانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح

الى هذا الحد بلغت العفة والامانة من المسلمين يومئذ وانما كان الباعث لهم على ذلك أمور منها جدة الدين والاخلاص لله في الجهاد ، ومنها القناعة بكل ماحصل واعتباره انه نعمة عظمى بالنسبة لما كانوا عليه

قبل الاسلام من شظف العيش وضنك الحياة يضاف الى هذا سذاجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية حتى لقد روي ان بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ملحا وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هـذا من الامانة والاخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب حتى اثنى الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب :

لما أستتم لسعد فتح المدائن واستقرّ به المقام أرسل في أثر المنهزمين زهرة بن الحوية الى النهروان وأتاه أهل النواحي واستأمنوه وصالحوه على الجزية ولم يدخل في صلحهم ما كان لآل كسرى اذ هذا صار فيئا للمسلمين

ثم سيّر جيشا عليه عبدالله بن المعتم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك في سيرة عمر و الخلاف بين المؤرخين في فتح الموصل هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ أم كان على يد عبد الله بن المعتم من قبل سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ والارجح ان فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبي وقاص وفتح عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم لان عياضا تولى فتح الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة وكانت وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك في سيرة عمر في اخبار فتح الجزيرة فليراجع

وسيّر سعد جيشا الى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التي تشبه وقعة القادسية ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى وكان كسرى قد فرّ منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء فنزلها القعقاع في جند من

الامناء والحمراء (أي متطوعة الاعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبقي القعقاع فيها الى ان تحول سعد الى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا. ويظهر من هذا ان المسلمين لما توسعوا فى الفتح اضطروا بحكم الضرورة الى مشاركة الاعاجم فى الامور الحربية والادارية بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الاعاجم ثم تسليمه ولايتها الى الي قباذ أيضا. على ان مشاركة الاعاجم فى أمور الفتح وتدبير شؤون البلاد يومئذ من أحسن مارمت اليه سياسة المسلمين لان القوم يتأسون بتثل هذه المعاملة الجميلة فيكونون عونا للمسلمين فى تدويخ البلاد وتدبير أمور السياسة ولعل هذه السياسة الحسنة التي كانت من عمر وقواده في مشاركة الاعاجم كانت من ممهدات الفتح وأسباب سرعة انتشار الاسلام ورفع اعلامه في أقاصي البلاد اذ تسامح الفاتح وملاينته لاهل البلاد وتخصيصهم بشيء من السلطة من أعظم الاسباب الممهدة سبيل الظفر للفاتحين

أتم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ماعهد اليه من فتح المدائن وفل جيش الفرس في القادسية وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم فانحدرت من شاهق مجدها المتأثل فيما بعد الى هاوية الخراب حيث قامت مقامها في تلك الاصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبعث أشعة التمدن الاسلامي العظيم

واذا نظرت الى البلاد رأيتها ... تشقى كما تشقى البلاد وتسعد

على ان ماضمته بغداد تحت جناحي الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم تضمه المدائن فى عهد الدولة الساسانية . والفضل فى هذا لسعد واضرابه من اقيال الصحابة السابقين ورجال خلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين

باب

تخطيط الكوفة

وامارته عليها

اقام سعد بالمدائن بعد الفتح فأضر بالعرب وخامتها وكان أوفد منهم بخبر الفتح وفداً الى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم عن السبب فأخبروه انه وخومة البلاد فكتب الى سعد أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني و بينكم فيه بحر ولا جسر: فارسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الانبار فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة وسار حذيفة فى شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة (و كل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها فصليا ودعوا ان تكون منزل ثبات ورجعا الى سعد بالخبر فكتب سعد الى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم ان يستخلفا على جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة فى المحرم سنة (١٧ هـ) وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر وقيل أكثر فلما نزلها كتب الى عمر ، فكتب اليه بالبناء على الوجه الذي تقدم فى سيرة عمر (رض) وأقام سعد واليا على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف وكان حسن الامارة كثير التتبع لاحوال الرعية منصفا بين المسلمين شديدا على المعتدين : وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال فوفد عليه مرة عمرو بن معد يكرب الزبيدي فسأله عنه فقال : متواضع فى خبائه، عربي في نمرته، أسد فى تاموره، (عرينه) يعدل فى القضية، ويقسم

بالسوية، ويبعد في السرية، ويعطف علينا عطف الام البرة وينقل الينا حقنا نقل الذرة ،

الا أن أهل الكوفة لما أخلدوا الى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد ويظهر التحزب وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لادلالهم بالفتح وطول معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم سعى قوم منهم بسعد بن أبي وقاص وألبوا عليه وكان أكثرهم من بني أسد وكان ممن تحرك في أمره الجراح بن سنان الاسدي . وكان مما عابوه عليه انه لايحسن الصلاة . فبعث عمر محمد ابن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس في نهاوند فسأل عن سيرته في الكوفة فكلهم قال خيرا سوى من مالأ الجراح فانهم سكتوا ولم يقولوا سوأً ولا يسوغ لهم حتى انتهوا الى بني عبس فسألهم فقال أسامة بن قتادة : اللهم انه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية : فقال سعد: اللهم ان كان قالها رياء وكذبا وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فاصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد على أولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح اذ قطع بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضى الله عنه ليغتاله بساباط

وخرج محمد بسعد وبهم معه الى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر : فقال كيف تصلي ياسعد : قال اطيل الاولين وأخفف الاخريين: فقال هكذا الظن بك ياأبا اسحق : ثم ان عمر دفعاً للفتنة في وقت يريد به تجهيز الجيوش لنهاوند حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل سعدا وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأراده عمر على الامارة مرة ثانية فأبى وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون اني لاأحسن أصلي: ولما طعن عمر أوصى الخليفة بعده ان يؤمر

سعدا فأعاده عثمان رضي الله عنـه الى الكوفه ثم عزله لانه اقترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضا وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيرا ولا تلعن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة فاعتزل في منزله في العقيق قرب المدينة : وقدمنا ان عمر رضى الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميرا من قبله على الكوفـة شاطره ماله فقال له سعد لقد هممت قال عمر : بأن تدعو علي ؟ قال : نعم قال : اذاً لاتجدني بدعاء ربي شقيا

باب

نبذ من اخبـاره

واعتزاله الفتنة

(صدقه في الحـديث) كان سعد رضي الله عنـه صادق الحديث صادق الرواية لما فطر عليـه من صـدق اللهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد عن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم انه مسح على الخفين وانّ عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : اذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنـه غيره : وفي رواية : فلا تبتغي وراء حديثه شيئا.

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث ان كان يضن بالرواية خوف التحريف ونقل مالم يقل في رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد: قال خرجت مع سعد الى مكة فما سمعته يحدث حديثا عن رسول الله (ص)

حتى رجعنا الى المدينة : وروى عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شيء فاستعجم فقيل له في ذلك فقال اني أكره ان أحدثكم حديثا فتجعلوه مائة حديث :

ومن البديهي ان سعدا ماقال هذا القول الا لأنه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ووضع الحديث ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما في أيام الفتن العظمى التي ثار ثائرها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والنهي عنه الا ماتعلق منه بالاحكام وحسب الأمة ماأصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الاحاديث التي يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتعزيز جانبه ولو لم يكن من البلاء الا ما دخل في نفوس العامة ووقر في آذانهم من أخبار المهدي المنتظر لكفى ذلك وهنا على الامة وهونا على الامة وهونا لها الترك عامتها التذرع بالاسباب عند حلول كل حادث جلل اعتمادا على ظهور ذلك المنتظر وطالما تظاهر أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة باكاذيبهم المفتراة ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذي يرجوه العامة الازيادة في البلاء وسفكا للدماء وتفريقا بين الامة وتشتيتا للكلمة ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الاخبار المفتراة ويزدجر عن غي النفس واضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعي أمثال تلك الاخبار. وما أصاب الامة من جرائها شاهد عدل يشهد بأنهم لم يريدوا بها للاسلام خيرا . ومن كان هذا شأنه فاحرى به ان لا يحشر مع المؤمنين. ولنا كلام على أحاديث المهدي وما جرت من المصائب على الامة نرجئه لمحل آخر

وكلام أعم منه يجول فى الضمير ويحجم عنه اللسان أدبامع أسلافناالغابرين وتفاديا من تهجم الجاهلين

(ومن محاسن أقواله) مارواه ابن عساكر عن المدائني قال : قال سعد لابنه:اذا طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فانه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال :

(ومن جميل خلق سعد) مارواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد فقال:مه ان مابيننا لم يبلغ ديننا :

وما أخلق باهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين والاخذ على أيدي المغتابين كما صنع سعد رضي الله عنه اذ ليس أفسد للقلوب وأفصم لعرى التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الافراد من الغيبة والنميمة،وشر الناس الذين هم شرّ على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائبون على الوشاية.ومن أراد ان يعلم مصير الاقوام الذين يتفشى بينهم هذا الداء العضال والمرض القتال مرض الوشاية فليطلق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الاسلامية ليري من تباغض الافرادوتناكر القلوب وتداعي أركان العمران وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والاخاء الجنسي والديني مالا دليل على سوء مغبة النميمة أعظم منه

واعلم انه وان كان أكثر مايؤثر على حياة الامم ويبعث على زوال الدول هو فساد الاخلاق عامة الا أن لفعل هذا الخلق « أي خلق النميمة والسعاية » خاصة أثرا قبيحا فى الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد

الاخلاق وفقد التربية لانه اذا فشا في قوم فأكثر ماينزع اليه الامراء توصلا بزعمهم الى اكتناه كنه القلوب ووقوفا على ضمائر الرعية وهيهات ان يجدوا وسيطا لنقل أخبار الناس اليهم الا من انغمس في حمأة الشر واطّرح رداء الحياء وغلب عليه حب الشهرة وفقد المروءة وتجرد عن الفضيلة فيسعى في التفريق بين الامير والمأمور والحاكم والمحكوم لزلفى يريدها ودناءة يتوخاها وفي هذا من المضرة مالا يخفى على أعمى فضلا عن البصير اذ كلمة سوء واحدة تلقى لسلطان جائر مثلا تكفي لهدم ملك كبير، واستشراء شر عظيم، وقيام فتن عمياء، تضطرب لها الدهماء، كما سيمر عليك مفصلا في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

(ومن أخباره في القادسية) ما رواه صاحب الاغاني ان عمر بن الخطاب كتب اليه ان فض ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن فاتاه عمرو بن معد يكرب فقال له : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ فقال اني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن : قال مالك في هذا المال نصيب : وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمي فقال : مامعك من كتاب الله؟ قال بسم الله الرحمن الرحيم. فضحك القوم منه ولم يعطه شيئا فقال عمرو في ذلك :

اذا قُتلنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوية من طعن له نفذٌ ولا سوية اذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسية ناقتي وسعدُ بنُ وقاص عليّ أميرُ
وسعد أمير شرّه دون خيرِه وخير أمير بالعراقِ جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنّى فضة وحريرُ

تذكّر هداك الله وقعَ سيوفِنا ... بباب قُدَيسٍ والمكرّ عسيرُ
عشية ودّ القوم لو أنّ بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير
اذا ما فرغنا من قراع كتيبة ... دلفنا لاخرى كالجبالِ تسيرُ
ترى القومَ فيها أجمعين كأنهم ... جمال بأحمال لهنّ زفيرُ

فكتب سعد الى عمر رضي الله عنه بما قال لهما وما ردّا عليه وبالقصيدتين فكتب اليه ان أعطهما على بلائهما . فاعطى كل واحد منهما الفي درهم

﴿ اعتزاله الفتنة ﴾

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلي وطلحة ومعاوية والزبير التي تحزّب فيها المسلمون احزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهي الفتنة التي يقف دونها عقل الحكيم حائرا بين الاقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها وبين الاحجام عنها والقاء اخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى في ثناياها . لا لانها أول بادرة بدرت في الملك وفتنة ظهرت في الدول كلاّ ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود احزاب ينصرون النازع الى الملك واعوان يتبعون القوّة أو يناضلون عن صاحب الحق في كل قوم وعصر . وانما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذي يجعل الباحث بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية في الدول اذ ماذامت شؤون البشر لاتستقيم الا بالوازع والمجتمعات لاتقوم الا بحاكم يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها فالخلاف على رئاسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه

فى كل أمة وجيل وتنازع البقاء فى الملك أمر طبيعي كما هو فى كل الاشياء كما سنفيض فى هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة وانما اجتزأنا عنه بهذه المقدمة تمهيدا لما سيتلوه من الكلام فى غير هذا المحل ان شاءالله

رأى سعد بن أبي وقاص ان الامة انقسمت فى أمر الخلافة الى احزاب كل حزب يرى ان صاحبه على حق، وانه بالخلافة أحق، وان الامر لا ينقضي الا بالمغالبة بين النفر المتطلعين الى الخلافة وهذا يجر الى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب وان فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوم ملوم فيها وليس فى طوقه رتق فتق فتقه الطموح الى الخلافة وسد ثلمة اندفع منها تيار الامة فلم يسعه الا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى ينجلي الغبار وتنتهي الامور الى حدها، ويعود السيف الى غمده، فاعتزل خارج المدينة وأمر ان لا يخبروه بشيء حتى يجتمع الناس على امام

واعلم ان سعداً من الحقيقين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد اليهم عمر وقد كان له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها لا عن ضعف بل عن حب للسلامة وتجنب للانغماس فى الدماء يدلك عليه ان ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا ان يدعو الى نفسه وقال له ابن أخيه ان مائة الف سيف تريده على الخلافة فأبى .

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم ان هاشما قال له : ان ههنا مائة الف سيف يرونك انك أحق الناس بهذا الامر : فقال أزيد من مائة الف سيف سيفاً واحداً اذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئا واذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده الى علي بن أبي طالب فكان فى أصحابه وقاتل معه

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد انه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال: أي بني أفي الفتنة تأمرني ان أكون رأسا لا والله حتى أعطى سيفاً ان ضربت به مسلما نبا عنه وان ضربت به كافرا قتله

وانما يريد بهذا انه يعلم ان المتقاتلين جميعهم من أهل الاسلام وان له من صدق ايمان الجميع الظاهر وليس له ان يعلم السرائر ليقاتل الباغي بسيفه فاذا قتله فلا يأثم ولا يلام

ولما اشتد الامر على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعانى من شيعته ماعاناه من أعدائه قام على منبر الكوفة فقال: قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتموني: فقام اليه فتى آدم فقال: انك والله ما نهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا فلما كان منها ماتكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقال علي: وما أنت وهذا قبحك الله والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلا فلما ظهرت الفتنة نجمت فيها نجوم قرن الماعز: ثم التفت الى الناس فقال يغبط سعدا وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة: لله منزل نزله سعد وابن عمر لئن كان ذنبا انه لصغير، مغفور وان كان حسنا انه لعظيم مشكور، (أخرجه ابن عساكر)

وأمّا معاوية فقد طمع في اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة وكاتبهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض، وكان كتب الى سعد بن أبي وقاص ماصورته:

سلام عليك اما بعد فانّ أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين اثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الامر ونظيراك في الاسلام وخفّت لذلك أم المؤمنين

فلا تكره ما رضوا ولا ترد ما قبلوا وانما نريد ان نردها شورى بين المسلمين والسلام:

فأجابه سعد بماصورته:

أما بعد فإنّ عمر لم يدخل في الشورى الا من تحل له الخلافة فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه الا باجتماعنا عليه غير انّ عليًا كان فيه مافينا ولم يكن فينا مافيه ولولم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو باقصى اليمن. وهذا الامر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره. وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما. والله يغفر لام المؤمنين ماأتت: وفي هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين ما يعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم وتبرأه بتاتا من أمرهم. وروي انه كتب اليه أبيات شعر ولعلها كانت جوابا لكتاب آخر كتبه اليه وهي

معاوي دواؤك الداء العياء ... وليس لما تجيء به دواء
أيدعوني أبو حسن علي ... فلم أردد عليه مايشاء
وقلت له اعطني سيفاً بصيرا ... تميز به العداوة والولاء
أتطمع في الذي أعيا عليًا ... على ماقد طمعت به العفاء
ليوم منه خيرٌ منك حيًا ... وميتا أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الابيات ان قلب سعد كان مع علي رضي الله عنهما لكنه رأى الحياد أسلم فلزمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه وقد عظم عليه قتل عثمان رضي الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال: ما بكيت من الدهر الا ثلاثة أيام يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويوم قتل عثمان. واليوم ابكي على الحق فعلى الحق السلام: رواها ابن عساكر)

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبي وقاص فدخل على معاوية فقال له أين كنت في هذا الامر ؟ فقال: انما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسيرون فاصابتهم ظلمة فقالوا: أخ أخ: فقال معاوية ما في كتاب الله: أخ أخ: ولكن في كتاب الله «وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله» فبايعه سعد وما سأله شيئاً الاّ أعطاه (أخرجه ابن عساكر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر وربما جاء معنا في غير هذا المحل ان شاء الله

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر له قال له: السلام عليك أيها الملك: فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت: يا أمير المؤمنين ؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكا والله ما أحب اني وليتها بما وليتها به: يريد انه وليها بالسيف لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له «أيها الملك» استخفافا بشأن الملك وتعظيماً للخلافة التي ذهبت مع الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

﴿ باب ﴾

﴿ وفاته وصفته وولده ﴾

اجمع أهل الاخبار على ان سعدا رضى الله عنه اعتزل بعد الفتنة في منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال: كفنوني فيها لاني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي عليّ وانما كنت أخبأها لهذا:

ولما مات حمل من العقيق على اعناق الرجال حتى أتى به المسجد فوضع عند بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان ابن الحكم وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين . وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة وأما على قول من قال انه أسلم وهو ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته ابن ثلاث وثمانين سنة . وهو آخر العشرة الكرام موتا

وترك سعد ثروة حسنة لانه كان غنيا. قيل انه ترك مائتين وخمسين الف درهم : وعن بنته عائشة انه أرسل مرة الى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم

﴿ صفته ﴾

قال الواقدي قالت عائشة بنت سعد كان أبي رجلا قصيرا دحداحا غليظا ذا هامة شثن الاصابع (١)

﴿ ولده ﴾

قال ابن قتيبة. ولد سعد عمر : ومحمد : وعامر : وموسى : ومصعب وعائشة : وغيرهم . فأما عمر فقتله المختار بن عبيد لانه كان أميرا على الجيش الذي حارب الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتله . وأما محمد فخرج مع الاشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً : وأما عامر فكان يروى عنه الحديث ومات سنة أربع ومائة . وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث ومائة وقد روي عنه الحديث : وممن أعقب من أولاده عمر : ومحمد : وموسى

(١) قوله دحداحا أي قصيرا أو قوله شثن الاصابع أي خشنها

انتهى ماأردنا ايراده من سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ويليه عمرو بن العاص وهو آخر من نذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

﴿ عمرو بن العاص ﴾

﴿ باب ﴾

(حاله فى الجاهلية)

— نسبه وأصله —

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي وكنيته أبو عبد الله وقيل: أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بني عترة (وقيل عنزة) وأخوه لامه عمرو بن أثاثة العدوي . وعقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري: وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال: سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكهة بن المغيرة. ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان. ثم صارت الي العاص بن وائل فولدت له فانجبت فان كان جعل لك شيء فخذه (١)

(صناعته ومكانته في قومه)

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا فى صدر الجزء الاول جزاراً ثم كان يختلف بالتجارة الى الشام ومصر ويقال ان سبب توجه فكره لفتح مصر هو ذهابه مرةً الى الاسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها وامامكانته عند

(١) كان عمرو بن العاص يُعيَّر بأمه لانها كانت سبية لهذا قال للسائل ماقال

قومه فقد كانت عالية لشهرته بالدهاء والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب في الجاهلية وقالوا ان دهاتهم في الاسلام عمرو بن العاص. والمغيرة بن شعبة. وقيس بن سعد بن عبادة. وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتي فيما يلي من سيرته ان شاء الله

—о✱✱о—

باب

اسلامه وصحبته

اسلامه

تأخر اسلام عمرو بن العاص الى ماقبل فتح مكة بستة أشهر أي سنة ثمان من الهجرة وأما سبب اسلامه فان قريشا أرسلته الى النجاشي في طلب جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة فلم يجب النجاشي طلبه . وقال له ياعمرو؟ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله انه لرسول الله حقاً ؟ قال: انت تقول ذلك : قال أي والله فأطعني فخرج من عنده مهاجرا الى النبي صلى الله عليه وسلم : رواه في أسد الغابة : وروى ابن عساكر في تاريخه عن محمد بن حفص التيمي : قال لما كانت الهدنة بين النبي « ص » وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو بن العاص الى النجاشي يكيد أصحاب رسول الله عنده وكانت له منه ناحية فقال له : ياعمرو تكلمني في رجل يأتيه الناموس كما يأتي موسى بن عمران قال : وكذلك هو أيها الملك؟ قال نعم : قال فانا أبايعك له . فبايعه له على الاسلام ثم قدم مكة فلقي خالد بن الوليد فقال : مارأيك قد استقام الميسم والرجل نبي : قال خالد: وأنا أريده (وقد كان

خالد على أهبة المهاجرة اليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : فخرجوا فقدموا على النبي « ص » قال محمد بن سلام قال ابان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لاستدبر أمرهما فبايعا على ان لهما ماتقدم من ذنوبهما . فاضمرت على ان أبايعه على ماتقدم وما تأخر فلما أخذت بيده بايعته على ماتقدم ونسيت ماتأخر

وفي رواية له أيضا عن الحافظ أبي نعيم ان أصحاب عمرو لما بلغهم اسلامه أخذوه فغموه فافلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشي اسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه :

وبالجملة فان عمرو بن العاص أسلم بعد طول اناة وبعد ان تحققت لديه نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشي وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع الى الاسلام بعد اذ ظهرت كلمة أصحابه ظهورا لايخفى على من له قلب أو القى السمع وهو شهيد : لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام» رواه ابن عساكر في تاريخه

واعلم انما أبطأ بعمرو واضرابه من قريش عن الاسلام التقليد والاستمساك بالعوائد التي تكاد تكون ملكة في النفوس لاينزعها الا أحد أمرين اما طول المعالجة والصبر، واما القوة والقهر، وهي ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس فلاتصل اليه الا بعد عناء شديد ، واحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم الى التوحيد الذى تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس انه خير من الشرك وعبادة الاصنام وانما أبطأ بهم عن قبول

الاسلام تسلط العوائد واستحكام ملكة التقليد يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت في عقلك : فقال انا كنا في قوم لهم علينا تقدم وبين توازن حلومهم الجبال ماسلكوا فجاً فتبعناهم الا وجدناه سهلا فلما أنكروا على النبي «ص» أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم فلما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا في أمر النبي «ص» وتدبرناه فاذا الامر بين فوقع في قلبي الاسلام فعرفت قريش ذلك في ابطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم فبعثوا الي فتى منهم فقال : أبا عبد الله ان القوم قد ظنوا بك الميل الي محمد: فقلت له: يا ابن اخي ان كنت تحب ان تعلم ماعندي فموعدك الظل من حرا : فالتقينا هناك فقلت اني أنشدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم : قال اللهم بك نحن : فقلت أفنحن أوسع معاشا وأعظم ملكا أم فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع في نفسي ان مايقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن في الآخرة باحسانه والمسيء باسائته . هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل : وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الاولين : فقال له عمرو وما أعجبك ياعمر من رجل قلبه بيد غيره لايستقر التخلص منه الا الي ماأراد الذي هو بيده : فقال عمر صدقت :



ان عمرو بن العاص وان كان ممن تأخر اسلامهم الا انه كان حسن الصحبة محببا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد روي عنه انه قال ماعدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقته باسلامهما وكفاءتهما فى أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم فى مصر والشام بعدُ

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيسا على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك فى غزوة ذات السلاسل التي تقدم الخبر عنها فى سيرة أبي عبيدة لما نازعه ثمة على الامارة . وقد أظهر فى هذه الغزوة من الكفاءة وحسن المكيدة ماحمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

روى ابن عساكر عن اسماعيل بن أبى خالد عن عمرو بن العاص ان رسول الله بعثه الى ذات السلاسل فسأله أصحابه ان يأذن لهم ان يوقدوا النار ليلا ليرد أصابهم فمنعهم . فكلموا أبا بكر ان يكلمه فى ذلك فاتاه . فقال لابي بكر لايوقد أحد منهم نارا الا ألقيته فيها : فلقوا العدوّ فهزموهم فأرادوا ان يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش الى رسول الله شكوه اليه فقال : يارسول الله اني كرهت ان آذن لهم ان يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم : وكرهت ان يتبعوهم فيكون لهم (أي للعدو) مدد فيعطفوا عليهم : قال فاحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان واليا على الصدقة وان يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فآمنوا وكان الذي ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندى وكان الملك منهما جيفر فاسلما وخليا

بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الاغنياء ويردها على الفقراء ولم يزل مقيما هناك حتى أتاه نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبي بكر مختوما وفيه . ان لا يحل عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان لا يعقل عقالا عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلا ثم خرج على القوم فاعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطرمت نار الردة شخص الى المدينه ومرّ منصرفه من عمان بمسلمة فدعاه الى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله انك لتعلم اني أعلم انك كذاب : ثم انصرف فمر بقرة بن هبيرة وقال له قرة : انّ العرب لا تطيب لكم نفسا بالا تاوة : فأجابه جوابا يدل على بعد نظره وقوة جنانه اذ أظهر استهانته بردة العرب وهدد قرة بالحرب احتقارا لشأن العرب واظهاراً للجلد الذي هو أنفع شيء للمسلمين فى مثل موقفهم ذلك وقد مرّ الخبر عن ذلك فى سيرة أبي بكر رضي الله عنه .

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعا فى اسلامه وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وسترى فيما يلي ان شاء الله : الا انه أخذ عليه دخوله فى غمار الفتنة العظمى وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتي فى محله ان شاء الله



﴿ باب ﴾

﴿ حروبه وفتوحاته ﴾

﴿ فتح مصر وبرقة ﴾

قد مضى معنا في سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التي حضرها عمرو بن العاص في سورية والفتح الذي فتحه في فلسطين لما كان أميرا على جيش من جيوش المسلمين ثمة فلم نرَ حاجة لاعادة ذكر ذلك وانما نأتي هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب لانفراده بهذه المأثرة الجليلة التي هي من أعظم مآثر ذلك الرجل الكبير في الاسلام فنقول

كان عمرو بن العاص محباً للامارة طامعاً للعلا ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الاعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب وترتب عليها من التبعات يدلك عليه اقدامه على دخول مصر بجيش قليل وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (ان عمرا لجريء الجنان وفيه اقدام وحب للامارة فاخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء في الفتح والامارة أو في دخوله غمار الفتنة علم انه رجل فذ قل ان تنجب بمثله الامهات لولا طمع فيه ربما أوخذ أحيانا عليه. على انه لم يكن طمعه في دنيات الامور بل في أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأي قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ويرغب في تدويخ ملك الفراعنة بجيش يقل عن الاربعة آلاف مقاتل يريد ان يقهر به أمة كان يربو عددها عن العشرة ملايين وكان في البلاد من حامية الروم وحدها اضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها

ان الذى أطمع عمراً بمصر ذهابه اليها في الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات أرضها ولكن اقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل انه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام ان دولة الروم دالت وقواها خارت وان الله موف وعده للمسلمين قلوا أو كثروا وان جدة الدين والدولة ونزوع العرب الي الفتح وتكاتفهم على اعلاء شأن الاسلام فرصة لا ينبغي للعاقل تركها واستمهال عزيمة النفس في انتهازها فاقتحم البلاد اقتحام الواثق بالنصر العارف بأساليب الحرب المعتمد على كفاءة جند المسلمين الواقف على شؤن البلاد فافتتحها من أدناها الى أقصاها ورفع اعلام الاسلام على ربوعها فكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر

قلنا فيما سبق ان سبب رغبة عمرو فى فتح مصر هو دخوله اليها فى الجاهلية ووقوفه من أحوالها على مايحب . وقد نقل المقريزي عن ابن عبد الحكم في سبب دخول عمرو الى مصر ماخلاصته ان عمراً قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش فاذاهم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح. وكان عمرو يرعى إبله وإبل اصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم، فبينا عمرو يرعى ابله اذ مرّ به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها. فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمرو : ماهذه ؟ فاخبره عمرو

انه رماها فقتلها . فاقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية : وسأله عما أقدمه هذه البلاد فاخبره انه قدم مع أصحابه للتجارة فرغب اليه ان يصحبه الى الاسكندرية ليكافئه على عمله فأبى وما زال به حتى قبل ان يصحبه الى الاسكندرية بعد ان اخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعهده معه وانطلق الى أصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظروني ولكم عليّ ان أشاطركم على النصف مما آخذ : وأخذ منهم معه واحدا يأنس به فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا الى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الاموال والخير ما أعجبه . ومضى الى الاسكندرية فنظر الى كثرة مافيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيداً عظيما يجتمع فيه أشرافهم في ملعب مشهور ولهم كرة من ذهب يترامون بها فمن وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ماوصفها به من مضى منهم وكان الشماس ألبس عمراً ثوب ديباج وأجلسه مع القوم فى ذلك المجلس حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كمّ عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا؟ هذا مالا يكون أبدا : ثم ان الشماس وفى بما وعد به عمراً وجمع له من أهل المدينة الفي دينار وأصحبه برسول ودليل فانطلق عمرو الى أصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو الى مصر فى الجاهلية وسواء صحت هذه الحكاية اولم تصح فانه ليس فيها شيء من الغرابة الا قولهم

عن الكرة ان القوم اختبروا أمرها واعتقدوا ان من وقعت فى كمه هذه الكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل او ان بعض الامارات التي يتناوبها الاشراف كامارة الجيش مثلا كانت لاتعطى الا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخوا العرب فى النقل: وبالجملة فالذى أثار في نفس عمرو الرغبة فى فتح مصر هو ماسبق له من دخولها والوقوف على أحوالها وأحوال اهلها يضاف اليه ماغرز فى نفسه من حب الامارة والاقدام على جلائل الامور كما قال عنه عثمان رضى الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر فى سيرة عمر بن الخطاب (رض) عن كيفية مسير عمرو الى مصر وكان أول موضع قوتل فيه الفرما (١) قاتلته الروم قتالا شديدا نحوا من شهر ثم فتح الله عليه : وقيل انه كان بالاسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو الى مصر كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وانّ ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا فاذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط لان الفرما كانت حصينة جدا . وفى رواية ان فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتنيس ثم تقدم عمرو ولا يدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها

(١) اختلف المؤرخون فى موقع الفرما فنهم من قال انها كانت على البحر الرومي ومنهم من قال انها على بحيرة تنيس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه والمرجح انها لم تكن على البحر الرومي بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقريزي عن يحيى بن عثمان قال كنت ارابط في الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله . ويظهر من رواية ابن خرداذبه في الممالك والمسالك ان بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط اربعة وعشرون ميلا

حصارا شديدا ونقل المقريزي عن الواقدي ان المقوقس زوج ابنته ارمانوسه من قسطنطين ابن هرقل وجهزها بأموالها وحشمها لتسير اليه حتى يبني عليها فى مدينة قيسارية (من سورية) فخرجت الى بلبيس واقامت بها وأرسل أبوها جندا الى حدود الشام كى لا يتركوا أحدا من الروم أوغيرهم يدخل أرض مصر مخافة ان يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب فى قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بلبيس حاصرها حصارا شديدا وقاتل من بها وقتل منهم زهاء الف فارس وانهزم من بقي الى المقوقس وأخذت ارمانوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط فى بلبيس فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير اليه ابنته مكرمة في جميع مالها مع قيس بن أبي العاص السهمي فسر بقدومها . وكان هذا العمل من عمرو عملا جميلا يدل على حسن سياسة وبعد نظر

ثم ان عمرا سار من بلبيس الى بابل اوباب ليون وهو حصن كان بناه الفرس ايام تملكهم لمصر وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان علي الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة أوالفسطاط ويقابله على ضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الاعيرج وكان المقوقس مع الحامية أيضا وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فنهم ماقال الاعيرج ومنهم من قال الارطبون ومنهم من قال المقوقس ومنهم من قال ان المقوقس كان فى الاسكندرية كما اختلفوا فى أصل المقوقس هل هو يوناني أو مصري والذي ظهر لي ان الاعيرج والارطبون قائدان لان احدهما وهو الارطبون كان على جيوش الروم

فى بيت المقدس وفر الى مصر لما أخذها المسلمون

وأما المقوقس فهو أمير مصر بلا ريب من قبل الروم وكان قصدي استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جلية أمره لكن مجلة المقتطف نقلت في الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب انكليزي الفه حديثا أحد علماء الانكليز وهو الدكتور بطلر فى تحقيق من هو المقوقس اغنانا عن معاناة البحث وخلاصة حكم المؤلف فى هذا الكتاب على ماجاء في المقتطف ان المقوقس كان واليا وبطريركا على مصر من قبل الامبراطور هرقل وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذا لا يكون الا لمن بيده قوة السلطة الدينية على ان القرائن التي تحتف اخبار المقوقس مع القبط ومخابراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريركا نافذ الكلمة في القبط . وكلمة صاحب القبط التي جاءت فى تواريخ العرب ومخابرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعوته وقومه الى الاسلام كافية لتأييد ماذهب اليه الدكتور والفصل الذي لخصه عن كتابه المقتطف لايخلو من فائدة فليراجعه من أحب

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقاتلهم قتالا شديدا يصبحهم ويمسيهم ولما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك فأمده بأربعة آلاف رجل على كل الف رجل منهم رجل مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد . وقيل ان الرابع كان خارجة ابن حذافة وكان عمرو يومئذ فى عدة قليلة فكان يفرق أصحابه ليرى العدو انهم أكثر مما هم وقيل ان الزبير جاءه باثني عشر الف مقاتل : ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم

اقبلا يسيرا فلم يلبث الزبير ان ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر أخذه وابطأ الفتح وكان الزبير رضي الله عنه من الشجعان المعروفين فقال : اني أهب نفسي لله أرجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما على جانب الحصن ثم صعد فأمرهم اذا سمعوا تكبيرة ان يجيبوه جميعا فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من ان ينكسر وكبر الزبير فكبرت الناس معه وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم ان العرب اقتحموهم جميعا فهربوا وعمد الزبير وأصحابه الى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط الى الجزيرة (أي جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك

وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه كما رأيت لهذا ينكر بعضهم الفضل لعمرو بن العاص فى فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر لأن فتح البلاد كلها انما كان بحسن قيادة عمرو ودربته ولم يكن عمرو باقل شجاعة من الزبير أيضا رضي الله عنهما وعن كل رجال الفتح فان لكل منهم فضيلة فى عمل وخدمة جليلة للاسلام

رأى المقوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم وعلى انهم لايزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير اليهم البلاد فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث الى عمرو يقول : انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل (وكان

الوقت وقت الفيضان) وانما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر فيما بيننا وبينكم على مانحب وتحبون وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم

ولما أتت الرسل الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين ثم ردهم وارسل معهم للمقوقس يقول :

انه ليس بيننا وبينكم الا احدى خصال ثلاث اما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم فالجزية وأمّا جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين

علمنا ان عمراً حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه لعلمه ان سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم واتعاظهم وتسليمهم بالايدي للمسلمين وقد أصاب عمرو بهذا الامر المرمى ولم يخطئ فى الظن اذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا :

«رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة . والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم . وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم. ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم»:

هذه الاخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التي رفعت من اقدار القوم وملأت منهم قلوب الاعداء وعيونهم في كل مكان حلوه وبلد قصدوه فكانت الشعوب لاتلبث ان ترى سيرتهم وتسمع باخلاقهم فتعطيهم أيدي

الطاعة وتترك اليهم مقاليد الامور توخيا للسلامة ورضى بسيادة قوم ذلك حالهم وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذي لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لوان هؤلاء استقبلوا الجبال لازالوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم اذا أمكنتهم الارض وقووا على الخروج من موضعهم . ثم ارسل الى عمرو ان يبعث اليه من يكلمه بشأن الصلح فبعث عبادة بن الصامت : وقيل بل طلب منه الاجتماع به وكان مما بعث به اليه قوله:

اني لم أزل حريصا على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت الي بها . فأبى ذلك من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي أن أفتات عليهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم ورجعوا الى قولي فاعطني امانا اجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك جميعا وان أبيتم رجعنا الى ما كنا عليه :

فاستشار عمرو أصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بان لا يجيبه الى الصلح وكان عمرو ينزع اليه ويعرف فائدته فاخبرهم بعهد عمر اليه في ان من اجابة الى خصلة من الثلاث يصالحه : ثم اجتمع عمرو بالمقوقس واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بمصر اعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر

من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء منها فشرط ذلك كله على القبط خاصة. وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران: رفع ذلك عرفاؤهم بالايمان المؤكدة فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار « اثنى عشر مليون ».

هكذا نقل المقريزيّ رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية فى سياق خبر الصلح مع المقوقس وفى هذا نظر لا يخفى على بصير اذ أن الذى يظهر من سياق الاخبار ان صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين لان من البلاد ما أخذ عنوة بعد عقد الصلح. وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل ان يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين مع انّ البالغين الحلم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم ان يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليون. وهو بعيد عن الصواب. لاسيما وقد جاء فى بعض الروايات ان جزية مصر وخراجها معاً بلغا على عهد عمرو بن العاص ألفي ألف دينار « مليوني دينار ». ومنها ما رواه البلاذري فى فتوح البلدان عن يزيد بن أبي حبيب قال: جبي عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفي ألف. وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح « فى خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف. فقال عثمان لعمرو: انّ اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها: قال: ذلك لانكم أعجفتموها:

والفرق بين هذه الرواية والرواية الاولى عظيم كما ترى على انه جاء

في بعض الروايات أيضا ان الذى جباه عمرو هو اثنى عشر مليونا والذي جباه ابن أبي سرح أربعة عشر مليونا. وكما يضطرب الفكر فى مقدار تلك الجزية يضطرب أيضا فى قولهم ان الصلح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط فى أسفل مصر وأعلاها وأحصوا بالايمان المؤكدة مع ان هذا منقوض بالبداهة التي تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقريزي فى فتح الاسكندرية . ان عمرو بن العاص انما صالح المقوقس لما فتح الاسكندرية وهكذا قال الطبري وابن خلدون وهو الاقرب للتوفيق بين تلك الروايات اذ لا يخال وقوع هذا الاحصاء سواء صح عدده أو لم يصح الا بعد فتح الاسكندرية وبقية البلاد واجراء الجميع مجرى الصلح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب في انه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم وروى البلاذري ان قرى من مصر قاتلت فوقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة : وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج الى تمحيص وربما نعود اليه فى الكلام على حالة مصر الاجتماعية ان شاء الله (١)

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه شرط المقوقس للروم على ان يُخيّروا بين الرضى بما رضي به القبط. وبين اللحاق ببلاد الروم. وكتب

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذي أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا فى باب أخباره فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس فى كتاب العهد على أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا العهد أي اذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح : وبهذا انحل الاشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الاحصاء

المقوقس الى ملك الروم بما تم عليه الصلح فكتب اليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم في الاسكندرية وغيرها فاعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم الى الاسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس بيده ويد القبط للمسلمين مع انه يوناني الاصل وأكثر الروم وقتئذ أبوا ان يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين فى كل بلد أراد فتحه عمرو وقواده الذين بعثهم لاتمام فتح البلاد

والذى يظهر للمتأمل فى أخبار فتح بابليون ان نظام الدفاع فى البلاد المصرية كان مختلا جدا اذ ان عمرو بن العاص كان قليل الجند ولا يسعه ترك حامية من جنده فى البلاد التى افتتحها في دخوله الى مصر لتحفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام فهو بالضرورة جاء بكل جيشه الى بابليون واصبح في قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك في سورية لانكفأوا عليه من اطراف البلاد وحاصروه في مستقره حصاراً لا مناص له بعده من الموت أو التسليم ولعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس وكان عمال الاطراف كل واحد منهم مستبدا على الآخر يعد أسباب الحيطة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الامر من أهم الاسباب التي دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والامان للقبط كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضا ـ منها نفور القبط من سلطة الكنيسة الشرقية وتأففهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة

التخلص من الرضوخ لسيادتهم بعد ان دوخوا الشام وازعجوا دولة الروم وقهروا الامبراطور هرقل وكسرى يزدجرد يدلك على هذا اجتهاد المقوقس في منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم في سورية خوفاً من ان يفت ذلك في عضدهم ويدخل الوهن والفزع على نفوسهم

ومنها وهو الاهم تواتر الاخبار عن حسن سيرة المسلمين في البلاد التي افتتحوها واطلاقهم لاهلها حرية الفكر والدين وعدم مسهم بشيء من الاذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك في هذا الكتاب

وهذا مادعا البطريرك بنيامين الى ممالأة عمرو وتحريضه القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ومحتمل أيضا ان تكون مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لانه من أصل مصري وكان ميالا للاستقلال منذ دخول الفرس الى مصر كما يقول جبون لولم يوهن هذا الرأي اجماع أكثر المؤرخين على أنه من أصل يوناني وجبون يقول انه كان من أشراف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على ان الدكتور بطلر يرى ان نفوذه على القبط انما كان كبيراً لانه كان والياً وبطريركا معاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم

لما بعث الامبراطور الى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده وأعلمهم انه لم يصالح المسلمين الا صوناً لمصلحة البلاد بسبب ماعرف عنهم من القوة والشجاعة وماسبق لهم من قهر الامبراطور وجيوشه في سورية وما شاهده بنفسه من اخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم أني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه واني لأعلم انكم سترجعون غدا الى قولي

ورأيي وتتمنون لو كنتم أطعتموني وذلك اني رأيت وعاينت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه أما يرضى أحدكم ان يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة : ثم اقبل المقوقس الى عمرو فقال له: ان الملك قد كره مافعلت وعجزني وكتب الي والى جماعة الروم ان لانرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أوتظفر بهم . ولم أكن لاخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن أطاعني وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقدتهم . وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال لاتنقض بالقبط وادخلني معهم وألزمني مالزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ماعاقدتك عليه فهم متمون لك على ماتحب ، وأما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيدا فانهم أهل ذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني، وأما الثالثة فأطلب اليك ان أنا مت ان تأمرهم ان يدفنوني بجسر الاسكندرية:

فأنعم عليه عمرو بذلك وأجابه الى ماطلب على ان يضمنوا له الجسرين ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية فتم له ذلك وصارت القبط له أعوانا كما جاء في الحديث

وانت ترى ان هذا الكلام يوهم ان الصلح تم مع كل القبط في أعلا مصر وأسفلها مع ان عمرا تمم بعد فتح بابليون فتح البلاد التي لم تذعن بالطاعة كما أشرنا اليه قبل فلا ندري هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على امراء الروم بعدم التسليم والطاعة ومحاربة المسلمين أم كان الذين

دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التي في البلاد. واليك بقية أخبار الفتح فمحصها ان شئت

روى البلاذري ان عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله ابن حذافة السهمي الى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط. ووجه خارجة بن حذافة العدوي الى الفيوم والاشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك. ووجه عمير بن وهب الجمحي الى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهلة . وبنا . وبوصير ففعل مثل ذلك. ووجه عقبة بن عامر الجهني ويقال وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر الى سائر قرى أسفل الارض ففعل مثل ذلك. فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج

وذكر المقريزي ان الذي بعثه عمرو الى دمياط هو المقداد بن الاسود وان الذي بعثه الى الفيوم هو ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي فاما أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان على دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاءه المقداد قاتله وقتل ابنه فانهزم وعاد الى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل حكيم عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به أحد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد وما لأحد عليهم قدرة. ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع. وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر. والرأي ان نعقد مع القوم صلحا ننال به الامن. وحقن الدماء. وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس:

هذه النصيحه ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهي نافعة لو وجدت من الهاموك اذنا صاغية ولكنها لم تجد لانه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله وشرّ الاخلاق الحمق والتسرع . وكان للرجل ابن عاقل أيضا اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضا اذا أصرّ على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها ولما علم الهاموك بما وقع سُقط في يده واستأمن للمقداد فتسلم المقداد البلد وجاءه شطا وأسلم ثم لكى يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مدداً للمسلمين وعونا لهم على عدوّهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس (١) وكان عليها رجل من العرب المتنصرة يقال له أبو ثور فبرز اليهم فى نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور فى أيدي المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد

قدمنا ان الامبراطور كتب الى من بالاسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب وبعث بالعدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر انحسار النيل ليتمكن من الخروج ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الاسواق

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة أميال منها وقد اطنب بذكرها المقريزي وذكر انه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة مالا يوجد فى بلد من مصر وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ولم تزل تنيس عامرة حتى خربها الملك الكامل في سنة أربع وعشرين وستمائة (لمهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خرابا ولم يبق منها الا رسومها في وسط البحيرة

وأقاموا له الجسور وفاء بالمعاهدة التي تمت بينهم وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستمدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح فخرج اليهم عمرو متوجها الى الاسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فلقي فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة ايام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوما وكان عبدالله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيره فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد:

أقول لها اذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

ثم رجع الرسول الى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو: هو ابني حقاً: وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن . فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة :

والذى أحسبه ان القبط انما ألجأهم الى الانحياز للمسلمين انهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الامبراطور هرقل خافوا ان ينتقم منهم ومن المقوقس اذا هو ظفر بالمسلمين فكانوا عونا لهؤلاء تخلصا من سيادة الروم وتفاديا من الوقوع ثانية فى شرك الامبراطور وان ينالهم منهم أذى على ممالأتهم للمسلمين

اهتم الامبراطور هرقل لمهاجمة العرب للاسكندرية وحصارهم لها وخاف من تقلص ظل سلطانه عنها كما تقلص عن سورية فعزم على الشخوص

بنفسه الى الاسكندريه وبينا هو يتجهز للسفر فاجأته المنون وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع انه توفي سنة (٦٤١ م) وهي توافق سنة (٢١ هـ) فلعل وفاته كانت فى الحصار الثاني للاسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية واقتحموا الحصن فجاشت عليهم الروم وقاتلوهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً الا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقت عليهم الابواب وهم عمرو بن العاص ومَسْلَمَةُ بن مخلد واثنان آخران فالتجأوا الى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية ان يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومي هل لكم الى خصلة وهي نصف فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وان غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم الى أصحابكم . فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا الى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته فأراد عمرو ان يبارزه فمنعه مسلمة وقال ماهذا؟ تخطئ مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير وانما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك؟ مكانك!! وأنا أكفيك ان شاء الله تعالى: فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك. فبرز مسلمة للرومي فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومي ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدري الروم ان أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا

وكان مسلمة برز لرجل رومي وهم على الحصار فصرعه الرمي فاسمعه

عمرو كلاماً يؤذيه فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم اخلاق مسلمة ما رأى استحي عمرو منه وقال له استغفرلي ماكنت قلت لك فاستغفر له . وقال عمرو ما أفحشت قط الا ثلاث مرات مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ومامنهن مرة الا ندمت وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ووالله اني لارجو ان لاأعود الى الرابعة

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح الا لما أحدثوا وكتب الى عمرو ويلومه على الابطاء ويحذره من ان يحدث المسلمون في اخلاقهم مايبطئ بهم في الفتح وأمره ان يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية ويقدم الاربعة القواد الذين ارسل له معهم المدد وهم الزبير والمقداد ومسلمة وعبادة في صدر الجيش ويصدمهم العدو صدمة واحدة : فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ماأمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك

وتتبع عمرو الفارين في البر من الروم وقيل ترك حامية في المدينة وقفل الى الفسطاط فبلغه نكث الروم في الاسكندرية وقدوم مراكب تحمل العدة والرجال وانهم قتلوا الحامية فعاد الى الاسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصرهم حتى افتتحها وكان فتحها الثاني على يد رجل يدعى ابن بسامة طلب من عمرو ان يؤمنه على ارضه وماله ففعل ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو الى المدينة وفر الروم في البحر حيث أعدت لهم المراكب وارسل عمرو بخبر الفتح الى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ثم كتب اليه يصف له حال المدينة وعمرانها وان المسلمين يطلبون قسمتها

بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بان يجعل الاسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عونا لهم على عدوهم . ففعل وتحول عمرو من الاسكندرية الى الفسطاط وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية وكان لا يغفلها ويكثف مرابطتها خوفا من الروم

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الاسكندرية التي كانت أجمل مدن العالم في وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الاسكندرية وأما ماذكره الافرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ومنهم المؤرخ الانكليزي الشهير جبون فانه نقل أخبار فتحها كما جاء في تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن يوتيخوس المؤرخ القبطي ان العرب حاربوا على اسوار الاسكندرية كالاسود وانهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهر وقتل ٢٣ الفا من المسلمين . على انا لا نسلم له بهذه الرواية لان جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ

تحقيق الكلام في حريق مكتبة (الاسكندرية)

لغط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها واحرقها وهو خبر مختلق لا اصل له من الصحة واغرب ما فيه من الاغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته ان قالوا ان عمرو بن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الاربعة آلاف حمام التي ذكروا انها كانت

موجودة فى الاسكندرية وانها كفتها ستة اشهر . فلو ان ذلك الاخرق الذي كتب هذا الخبر قدر لكل حمام فى كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) لبلغ عدد المجلدات التي أحرقت ٧٢ مليون مجلد فأي مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب وأي عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً على ان المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الاسلامي وان الذي بقي منها نقل بعضه امبراطرة الرومان الى القسطنطينية وما بقي احرقه الامبراطور تيودورس لما امر بحرق الهياكل الوثنية فى الاسكندرية وأيد هذا الرأي سديو فى تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب

والذي يدلك على اختلاق هذا الخبر انه لم يرد فى تواريخ المتقدمين من اهل الاخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري وهذه هي التواريخ التي نقل عنها المتأخرون اخبار الفتح وهي موجودة بين ايدينا الا تاريخ الكندي وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ومع ذلك فقد نقل عنهما المقريزي والسيوطي اخبار الفتح ولم يأت في تلك الاخبار ذكر لمكتبة الاسكندرية البتة . بل اغرب من ذلك ان يوتيخوس الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة . وهذه كتب المحدّثين التي أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة وانما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج الملطي مع انه لم يرد في تاريخ احد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها . على ان الخبر على ما فيه من الغرابة والاغراق فى الباطل الذي يكذب بعضه

بعضها قد صار عند علماء البحث مفروغا منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو بن العاص وانما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ ابي الفرج. وانا زيادة في البيان ودفعا للريبة ننقل هنا كل ماعثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول

افرد جيبون في تاريخه (سقوط الامبراطورية الرومانية) فصلا مخصوصا بحث فيه عن حرق مكتبة الاسكندرية ومما جاء في ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وماذكره أبو الفرج عنها قوله: «بعدما نقل كتاب أبي الفرج الى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة الكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها الضياع كثير من العلم والادب فيها واما انا (يعني نفسه) فاني شديد الميل الى انكار الحقيقة والنتيجة» يعني أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر انه كان فيها شيء من العلم والادب

وجاء في ذلك الفصل ايضا قوله

والغريب ان هذه الرواية يكتبها رجل من اطراف مادي (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر واقدمهما يوتيخوس الذي كتب تاريخ الاسكندرية في القرن السادس

وجاء في ذلك الفصل ايضا : ان تعاليم الاسلام تخالف هذه الرواية لان تعاليمه ان الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة في الحرب لايجوز احرقها واما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فانه يجوز الانتفاع بها

ويقول في خاتمة ذلك الفصل: اذا كان ماأحرق من هذه المكتبة في الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين واصحاب الطبيعة

الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر:

هذه خلاصة ماجاء في تاريخ جبون الا ان في حاشية هذا الفصل الذي كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عربية (يعني في اوربا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ماجاء في تاريخ أبي الفرج وذكر من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادي وغيرهما كما سترى بعد في الفصل الآتي المنقول عن رسالة شبلي افندي النعماني استاذ اللغة العربية في مدرسة على كده بالهند سابقاو ناظم مدرسة لعلوم بحيدرآباد الدكن الآن

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الاوردية ترجمت الى الانكليزية في الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الاسكندرية لا انا لم نظفر بتلك الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال في سنتها الثانية قالت بعد مقدمة حسنة في تقريظ الرسالة

وخلاصة ما أراد اثباته (يعني مؤلف الرسالة) ان اول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج ابن طبيب يهودي اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) في ملاطية وكان والده قد تنصر فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعينوه أسقفا لمدينة جوبا وهو في الحادية والعشرين من عمره ومازال يرتقي حتى لم يبق فوقه من الاكليريكية الا منصب البطريرك ثم ألف تاريخا في اللغة السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتابا في العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق الاسكندرية وتناقلها عنه كتاب الافرنج الى هذه الغاية حتى قام المؤرخ جبون الانكليزي فانتقد هذا الرأي (وهو الانتقاد الذي تقدم)

وأظهر ارتيابه في صحته لعدم وجود الادلة عليه لانه كتب بعد فتح الاسكندرية بستمائة سنة ولم يذكره أحد قبل ذلك فانتبه مؤرخو الافرنج من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول. غير ان المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الافرنج والباسها للعرب عادوا فقالوا ان هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط وانما ذكرها المقريزي وعبد اللطيف البغدادي وحاجي خليفة من مؤرخي الاسلام حتى قال بعضهم ان ابن خلدون أيضا قد ذكرها

قال الهلال ثم أخذ صديقنا (أي مؤلف الرسالة) في تفنيد هذه الاسانيد فقال:

اما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم ان لاذكر لهذه الحادثة فيه على الاطلاق. اما المصادر الثلاثة الباقية فاثبت أولا انها لاتعتبر ثلاثة مصادر مستقلة لان المقريزي ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجي خليفة. اما عبارة حاجي خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الاسكندرية وانما أشار الى ان العرب في صدر الاسلام لتعلقهم في الوحي وخوفهم من تسلط العلوم الاجنبية على عقولهم كانوا (على ماقيل) يحرقون الكتب التي يعثرون عليها في البلاد التي يفتتحونها. فيظهر من ذلك ان عبارة حاجي خليفة لاتفيد ماأرادوه لانه انما يريد الاشارة الى عدم اعتناء العرب بالعلم ولكي يؤيد قوله ألمع الى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة

اما عبد اللطيف البغدادي فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السواري وهذا نص عبارته « وعمود السواري عليه قبة هو حاملها

وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه ارستطاليس وشيعته من بعده وانه دار العلوم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضي الله عنه» فيظهر من نص العبارة انه ذكر مسأله المكتبة بطريق العرض وكانت أشبه بخرافة تتداولها الالسنة فذكرها على علاتها على ان عبارته هذه بجملتها غير صحيحة كما ثبت بالبحث

ثم أعقب هـذا بالادلة على عدم امكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الامراء المسلمين وأثبت أخيرا انها انما احترقت قبل الاسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطاركة الاسكندرية قبل الاسلام :

انتهى مالخصه الهلال عن رساله شبلى أفندي النعماني واليك ما كتبه المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية فى شأن هذه المكتبة نقلا عن مؤرخي الافرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السيرابيوم « بناء قديم بالاسكندرية ومحله يعرف بعامود السواري » انه كان به دار الكتب الكبيرة التي كانت ملحقة بالسرايات . ويؤيد ذلك ماذكره وتروف حيث قال انه كان بمدينة الاسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجوده فى معبد السيرابيوم ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريقة التي احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندرانيين قيصر . وقد قيل ان عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠٠٠٠ مجلد وفي زمن كيلوباتره أضيف اليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فاخذها انتوان معشوقها أهداها اليها وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة

الاسكندرية غيرها وبعد ان كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألحقا بمعبد السيرابيوم ومن ذلك الحين اتسعت شهرته الى القرن الرابع من الميلاد . ونقل أمبير الفرنساوي ان هذا المعبد احترق مرتين مرة فى زمن القيصر ماركوبل ومرة فى زمن القيصر كومول. وفي خطط الفرنساوية ان إحراق السيرابيوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والاهالي ثم بنى محل السيرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاد يوس المتولي تخت القيصرية بعد القيصر تيودوز الاكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية وهي التي ينسب حرقها الى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك اليه فان هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك الا فى القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب الى أبي الفرج بطريق حلب مع انه لم يذكرها فى تاريخه العام (١) وفى النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانبستيتوا) أي

(١) قوله لم يذكرها في تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م فهذا المطبوع حقيقة لم نر فيه ذكراً لمكتبة الاسكندرية مع ان شبلى أفندي النعماني قد ذكر ان الجملة انما جاءت في تاريخ مختصر الدول هذا ا وجبون قال انها جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هي ترجمة تاريخه السرياني أم تاريخه العربي المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الامر إما ان الطابع تبرئة لأبي الفرج وإلصاقا لهذا الخبر بالمسلمين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه وأما أنها جاءت فى تاريخه السرياني وانه هو الذي ترجم الى اللاتينية ونقل عنه الافرنج والذي يظهر هذه الحقيقة اني ظفرت عند صديق لي من المشتغلين بالتاريخ بالنسخة السريانية الا أنها مكتوبة بالخط الكلداني الذي تصعب قراءته

المجلس العلمي من ضمن ما قيل في جلسة أغستوس سنة ١٨٧٤ ميلادية ان بولس أوروز من تلامذة ماري اجستان وماري جيروم لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بالاسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر ان القول بان إحراق كتبخانة اسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى فانه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الاسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الاعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم في حرقها وانحصار تحقيقهم في زمن وقوعه قبل الاسلام لانه كان كذلك ومن المستحيل ان يبقى في هذه المكتبه مع توالي الحرق عليها والنقل منها ما تصل اليه عد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام



﴿ عود الى خبر الفتح ﴾

أتم عمرو رضي الله عنه بفتح الاسكندرية فتح مصر وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لي الفسطاط بعد ان أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعيـة وأشدهم قياما على العدل والنظر في عمران البلاد وراحة أهلها وتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عونا للمسلمين فلم يدرك المصريين في ولايته

على من لا يعرفه جيداً وقد كلفت صديقي بقراءة الخبر على فتح الاسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الاسكندرية فبقي ان الذين طبعوا الكتاب هم الذين حذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التي يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون وينقصون

ما أدركهم فى ولاية غيره من الجهد وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما وامارتها اليه محببة حتى شبه يوما امارتها بالخلافة اذ روي عن ابن لهيعة انه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لاهل الدولة من الروم وبين الفريقين نفور شديد لتباين فى المذهب والاعتقاد أدى الى العداوة وهي العداوة المذهبية التي ابتلي به كل أرباب الاديان فلمافتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذي عانوه على عهد الدولة الرومانية وكان أول مابدأ به بعد ان استقرت له الامور ان كتب امانا الى البطريرك بنيامين بطريرك الاسكندرية ورده الى كرسيه بعد ان تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الامبراطور هرقل اليها فسر ذلك العمل البطريرك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقريزي . وهذا من جملة السياسة النافعة التي اشتهرت عن عمرو

وقد ذكر هذا الخبر أيضا جبون فى تاريخه وقال ان البطريرك بنيامين كان يثني على عمرو بن العاص ويقدر عمله قدره .

ولا جرم ان وجود البطريرك بعيدا عن كرسيه مدة ١٣ سنة ثم عوده اليه على عهد الحكومة الاسلامية يوجد فى نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ونحن لانشك بانه اذا كان هناك يد لاحد بمساعدة عمرو على فتح مصر فانما هي لذلك البطريرك يدلك عليه مانقلناه عن بعض مؤرخي العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم انه كان بالاسكندرية اسقف اسمه أبو ميامين كتب الى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم

ويأمرهم بتلقي عمرو حتى كان قبط الفرما اعوانا لعمرو . وانما اشتبه على العرب الاسم فاخطأوا في نقل الحكاية والذي يظهر ان الذي كتب ما كتب هو البطريرك بنيامين وانه كتب من منفاه في منف لا من الاسكندرية والقرائن كلها تدل على ان له يدا في مساعدة العرب وانهاض القبط لتعضيدهم فان جبون ذكر ان عمراً لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليعاقبة سروراعظيما وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع انه قال ان أهل المذهب الملكي وهو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان فهذا يدل على ان هذا العشر كان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به وان قوما هذا شأنهم مع حكومتهم لجديرون بممالأة المسلمين لاسيما مع علمهم بان الحكم الاسلامي مؤسس على اطلاق حرية الاديان وان المسلمين لايتعرضون لاهل البلاد المفتتحة في عوائدهم ودينهم بشيء البتة

وبالجملة فقد كانت امارة عمرو على مصر من أبرك الامارات وأرغبها للقبط وغيرهم ولم تقف به همته الشماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة بل طمح الى ماهو أبعد غاية وهي بلاد المغرب ليبسط جناح الاسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٢١هـ) يخترق الصحراء حتى بلغ برقة فافتتحها وافتتح فرضتها بنغازي ثم طرابلس الغرب ولما عزم على التوجه منها الى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الاقصى جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رض) ينهاه فيه عن التغرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك في سيرة عمر فعاد مكرهاً بعد ان استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبة

ابن نافع الفهري القرشي الذي صار اليه بعد ذلك فتح المغرب

ولقد والله يحار عقل الحكيم فى اقدام أولئك الفاتحين وجرأتهم على التغلغل والامعان فى أقاصي الممالك بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة حتى افتتحوا فى ثلاثين سنة مالم يفتحه غيرهم فى اجيال ومهما بحث العاقل عن علة هذا التوفيق الغريب لايجده الا حسن السيرة والسير مع الامم المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن في هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين



باب

ولايته على مصر

﴿ آثاره فيها وأخباره مع عمرو وما كان من المكاتبات بينهما ﴾

قلنا ان عمرو بن العاص تحول الى الفسطاط بعد فتح الاسكندرية وسبب تحوله انه لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم ان يسكنها وقال: مساكن قد كفيناها: فكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم ياأمير المؤمنين اذا جرى النيل : فكتب الى عمرو اني لا أحب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم فى شتاء ولا صيف : فتحول عمرو الى الفسطاط ولم يكن فسطاطا بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي بابليون الى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى : وقيل في تسميته الفسطاط ان عمراً لما أراد التوجه الى الاسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرّخ فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم: فأمر به فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا:

أين نتزل ؟ قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وقيل سمي فسطاط عمرو: أي مدينة عمرو: لان الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب

لما تحول عمرو الى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر لانه اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف (١) على الضفة الغربية فاصبحت حاضرة البلاد المصرية ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة الى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولّى على الخطط (وهي الحارات) معاوية ابن خُدَيج التجيبي ، وشريك بن سمي الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني، وحيويل بن ناشرة المغافري، فاختطوا لكل قبيلة خطة . واختطوا مكان الجامع المعروف الى الآن بجامع عمر اذ كتب عمر الى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الامراء يأمرهم ان يبنوا فى كل مدينة مسجدا جامعا ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجدا

وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً في عرض خمسين وجعلوا سقفه مطأطأً جدا واتخذ عمرو فيه منبرا من أعواد فكتب اليه عمر يعزم عليه في كسره ويقول . اما بحسبك ان تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام فى زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر الا بهذا الجامع

ثم ان المسجد ضاق بالمصلين بعدُ فى ولاية مسلمة بن مخلد فاستأذن معاوية فى الزيادة فيه فاذن له بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه .

---

(١) لاتقابلها تماما بل منف كانت الى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة دهشور وسقارة الآن

وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان فى سنة تسع وسبعين من الهجرة وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت بحريه ولم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه ثم هدم فى زمن قرة بن شريك في خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والامراء بالاصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد وقل ساكنو الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل الى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان لكنه فى حالة لاترضى أبدا . ولو كان المصريون ممن يعنيهم حفظ آثار الرجال لجعلوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر أحياء للذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح

واما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لما خطط فى زمن عمرو فالكلام عليه يطول وهو مبسوط فى كتاب الخطط للمقريزي فليراجعه من أحب

ومن آثاره المشكورة فى مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعدُ بخليج القاهرة الذي كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند . والخليج قديم جدا قبل الاسلام الا انه طم وتعطل قبل الفتح فحفره عمرو بن العاص وكان سبب حفره على مانقل المقريزي عن ابن الحكم بروايته عن الليث ابن سعد قال : ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة . فكتب الى عمرو بن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي : سلام أما بعد

فلعمري ياعمرو ماتبالي اذا شبعت أنت ومن معك من أهلك أن أهلك أنا ومن معي فيا غوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب اليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين . أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعيراً أولها عندك وآخرها عندي والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فبعث اليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى كل أهل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص يقسمونها على الناس فدفعوا الى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره فوسع الله بذلك على الناس فلما رأى ذلك عمر رضي الله عنه حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه. فقال عمر ياعمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد ألقي في روعي لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ان أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به مانريد : فانطلق أنت واصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فاخبر من كان معه من أهل مصر . فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر فنرى ان تعظم ذلك على امير المؤمنين وتقول له ان هذا امر

لايعتدل ولايكون ولانجد اليه سبيلا : فرجع عمرو بذلك الى عمر فضحك عمر رضي الله عنه حين رآه وقال : والذي نفسي بيده (كأني أنظر اليك ياعمرو والى اصحابك حين اخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى ان تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا أمر لايعتدل ولايكون ولانجد له سبيلا: فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله ياأمير المؤمنين لقد كان الامر على ماذكرت : فقال عمر (رض) انطلق بعزيمة مني حتى تجد في ذلك ولايأتي عليك الحول حتى تفرغ منه ان شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة مابلغ منه ماأراد ثم احتفر الخليج في حاشية الفسطاط الذي يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل الى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ماأراد من الطعام الى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمي خليج أمير المؤمنين : ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع فصار منتهاه الى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم: انتهت رواية ابن عبد الحكم

وقد أجرت الحكومة المصرية على الباقي منه لهذا العهد فأمرت بطمه من بضع سنين واصبح الجزء الذي يخترق القاهرة شارعا مد عليه خط الترامواي ودعي بخط الخليج

وجاء في سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى منها ماذكره ابو الفداء ان عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذي يصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر فتحه خوفا من

وصول الروم الى البحر الاحمر ويقال ان خليج البرزخ هذا كان موجودا فى عهد البطالسة وأن أثره كان باقيا لعهد عمرو بن العاص لهذا أشار على عمر بفتحه فكان رأي عمر ان لا يفتح ونعم ذلك الرأي فان فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق وفى الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذي يقال انه كان من قبل فليرجع اليه من أحب

وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهي أنهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل فكانت من عوائدهم القبيحة فيه ان يلقوا فيه كل سنة بنتا من الابكار بعد ان يزينوها بالحلي والحلل زعما منهم انه لا بقي لهم الا بهذه الضحية : ويقال ان الامبراطور قسطنطين ابطل هذه العادة فى عصره لكن المصريين عادوا اليها بدليل ان مؤرخي العرب ذكروا انها كانت موجودة لحين دخول عمرو بن العاص الى مصر فأبطلها هذا بامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وتحرير الخبر على ما نقله المقريزي عن ابن عبد الحكم ان عمراً لما فتح مصر أتى أهلها اليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا له أيها الامير ان لنيلنا هذا سنة لا يجري الا بها فقال لهم وما ذلك : قالوا انه اذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل مايكون ثم القيناها فى النيل: فقال لهم عمرو : انّ هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله :

فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وتوت وهو لا يجري قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فلما رأى عمرو ذلك كتب الى عمر بن الخطاب بذلك:

فكتب اليه عمر ان قد أصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها في النيل اذا أتاك كتابي

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقه فاذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين الى نيل مصر : اما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك:) فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لايقوم بمصلحتهم فيها الا النيل . فأصبحوا يوم الصليب وقد أجزاه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر : (*)

وكان القبط يزعمون ان النيل لايزيد الا اذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ولهم تابوت يضعون فيه أصابعا من أصابع أسلافهم الموتى في اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه في النيل فأبطل ذلك العيد الامير بيبرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانغماس في الفجور ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن ان هذا العيد هو العادة التي أبطلها عمرو بن العاص : أي هذا العيد تخلف عن تلك العادة :

والذي أدركناه لهذا العهد ان البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين تلقى في البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى عروسة النيل وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لا سيما العوائد الوثنية التي تسربت الى أرباب الاديان الآلهية مع شدة نكير هذه الاديان على أهل تلك العوائد

(*) في هذه الحكاية بحث ونظر راجع تحقيقه في المجلد الثاني من مجلة المنار (ص ٥٥٠)

ومن آثاره الجميلة مدة ولايته على مصر توزيع الجباية بالعدل وقسمتها الى ثلاثة اقسام قسم لترميم الجسور وحفر الترع ومايلزم لعمران البلاد وقسم لاعطيات الجند والباقي يرسله الى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقريزي فجباها اثنى عشر مليون كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه. ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها: فقال بخصال ـ تحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها الامن غلتها ولا يقبل مطل اهله ويوفى لهم بالشروط ويدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهله المعاون والهدايا فبذلك تعمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية فى السنين التي لايفي فيها النيل وربما كسرها وذلك العهد الذي كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبري:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لايزيد شيء فى ذلك ولا ينقص ولايساكنهم النوب : وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى أحدمنهم ان يجيب رفع عنهم من الجزي بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مالهم وعليه ماعليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ماعليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ماعليهم : على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم

المومنين: وعلى النوبة الذين استجابو كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يعنوا من تجارة صادرة ولا واردة : شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان . . . . اهـ

فدخل اهل مصر في هذا الصلح جميعهم وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل فى الزيادة والنقص وربما اضطر احيانا الى كسر الخراج فكان عمر يظن فيه الظنون ولما استبطأه مرة فى الخراج كتب اليه مانصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : امابعد فأني فكرت فى أمرك والذي أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر . وانها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوّهم وكفرهم . فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت انها لاتؤدي نصف ماكانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذي على أرضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ورجوت ان تفيق فترفع اليّ ذلك : فاذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لاتوافق الذي فى نفسي : لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرّباً كافيا صحيحا إنّ البراءة لنافعة . وان كنت مضيعا نطعا إن الامر لعلى غير ماتحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتلي ذلك منك فى العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع اليّ ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا أنّ عمالك عمال السوء وماتوالس عليك

وتلفف اتخذوك كهفا. وعندي بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد ان يؤخذ منك الحق وتعطاه . فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وماعنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام (١)

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو : اما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين فى الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر . لانهم كانوا على كفرهم وعتوّهم أرغب فى عمارة أرضهم منّا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وتربت. وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خُبْر فجئت لعمري بالمقطعات المقذعات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لامانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا . نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شيناً فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا . معاذ

(١) (تفسير الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب) قوله تأتيني بمعاريض تعبأ بها. المعاريض هي التورية بالشيء عن الشيء. وتعبأبها أي تظنها ما يعبأ به أي يهتم له وهي لاشيء عندي وقوله وان كنت مضيعا نطعا. النطع المتشدق بالكلام . وقوله ان ابتلى ذلك منك أي امتحن . وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد. وقوله الحق أبلج أي مضيء مشرق لا يخفيه التمويه وماعنه تلجلج التلجلج التردد في الكلام . وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف

الله من تلك الطعم، ومن شر الشيم، والاجتراء على كل مأثم، فأمض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا، ولم تكرم فيه أخا، والله يابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما . وماعملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولكني حفظت مالم تحفظ . ولو كنتُ من يهود يثرب مازدتَ، يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت عالما بها . وكان اللسان بها مني ذلولا . ولكن الله عظم من حقك مالا يجهل اه

فكتب اليه عمر رضى الله عنه

من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام اليك فاني احمد اليك الله الذي لا إله إلا هو : اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي بثنيات الطرق وقد علمتَ اني لست أرضى منك إلا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك . فاذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو فيء المسلمين . وعندي ماقد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص

(بسم الله الرحمن الرحيم) لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام ..... اما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج ويزعم اني أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق . واني والله ماأرغب عن صالح ماتعلم وان أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من ان نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم فيصيروا الي بيع مالاغنى بهم عنه والسلام

فقيل ان عمر رضى الله عنه كتب اليه ان ابعث اليّ رجلا قديما من القبطة. فاستخبره عمر رضي الله عنه عن مصر وخراجها قبل الاسلام. فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ماظهر له كانه لا يريدها الا لعام واحد:

فعرف عمر ماقال القبطي وعلم منه جلية الامر فقبل من عمرو ما كان يعتذر به

ولا يتبادرن الى ذهن القاريء ان إلحاح عمر رضي الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به اجهاد القبط او التوصل الى الخراج كيف ما كان الحال معاذ الله ان يخطر هذا لعمر بن الخطاب فى بال وانما هو استبطأ الخراج مع عدم قوفه على حاجة البلاد وعلمه بطمع عمرو فكتب اليه ما كتب والا فانه رضي الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصا على الرعية وقياما على العمران ومحافظة على العهود خصوصا مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم. واليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص يستوصيه بالقبط ويأمره بأن يأخذ من الخراج مايحتاج اليه مما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه ويعطي الاعطيات لاربابها ومايفيض يرسله اليه وان لا يأخذ الخراج الا من حقه وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا: كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص

اما بعد فاني فرضت لمن قِبَلي في الديوان (أي فرض العطاء) ولمن ورد علينا فى المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه اليك والى البلدان. فانظر من فرضتُ له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ومن نزل

بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما أيتي فرضت لاشباهه وخذ لنفسك مائتي دينار (١) . فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والانصار. ولم أبلغ بهذا أحدا من نظرائك غيرك لانك من عمال المسلمين فألحقتك بأرفع ذلك وقد علمت ان مؤنا تلزمك فوفر الخراج وخذه من حقه ثم عف عنه بعد جمعه فاذا حصل اليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج اليه مما لا بدّ منه. ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله اليّ. واعلم ان ماقبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح (٢) وما فيها للمسلمين فيء : تبدأ بمن أغنى عنهم فى ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ

(١) لعل هذا الفرض الذي فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبه) على عمله لا فرض العطاء اذ ان عمر (رض) كان يجري على العمال جراية هي غير نصيبهم من العطاء فقد ذكر فى سراج الملوك ان عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف وربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجربة : ومن هذا يعلم ان عماله كان لهم جرايات على هذه النسبة وهي غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وانما نبهنا على هذا الامر هنا لاهميته ولانه فاتنا ذكره والتنبيه اليه فى سيرة عمر رضى الله عنه.

(٢) قوله ليس فيها خمس وانما هي أرض صلح يدل على ان مصر فتحت صلحا وان ما فتح عنوة أجري بعد ذلك مجرى الصلح الذى دخل فيه كل القبط للعهد الذى أخذه لهم المقوقس وهذا يؤيد ما جاء فى كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وان عمر وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح

(أقصى) عنهم في أعمالهم ثم أنض مافضل بعد ذلك على من سمى الله (أي في القرآن)

واعلم ياعمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه « واجعلنا للمتقين اماماً » يريد ان يقتدى به . وانّ معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما» ورحمهم انّ أم اسماعيل منهم . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيمة » احذر ياعمرو ان يكون رسول الله (ص) لك خصما فانه من خاصمه خصمه . والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفا وانتشرت رعيتي ورق عظمي فاسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لاخشى لومات جمل باقصى عملك ضياعا ان اسأل عنه اه

لو لم يكن لعمر الا هذا الكتاب لكفاه فضيلة في نفسه وفضلا على رعيته فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرده بالعدل وحسن السيرة في الرعية ومضاء الفكر في السياسة وشدة الاخذ على أيدي العمال واليقظة في الامور جليلها وحقيرها فرضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء

﴿ كلمة ثانية في أهل الذمة ﴾

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال في منعهم عن ايذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم وعملا بامره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعقل ان يريد بهم اذى بقول أو فعل ؟ كلا ان العقل والبديهة يرفضان نسبة أي قول أو فعل اليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن امتهان الذمي أو ظلمه .

واذ علم هذا فالذي يدعو الى العجب هو غفلة نقلة الاخبار ورواتها عن مقاصد عمر (رض) التي هي مقاصد الشرع الاسلامي الذي جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جمع المتناقضات من الاخبار ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيحها من كاذبها وبدون تروّ في النافع والضار منها

كتبنا في الجزء الثاني فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزي في انّ عمر تقدم الى أحد عماله بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص(١) وأبنا ثمة وجه الضعف في هذا الخبر وعجبنا من مثل ابن الجوزي كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع انه ليس في الدرجة التي تؤلم النفس اذ لو صح لحمل على قصد سياسي أو اداري على تعبير المتأخرين يراد به ضبط احصاء أهل الجزية من الذميين لا امتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الاسلام كالرومان والفرس الذين ثبت انهم كانوا يضربون على الرعية الجزية وربما كانت هذه العادة متبعة عندهم في احصاء أهل الجزية وقد زاد عجبنا اضعافاً الآن اذ رأينا هذا الخبر في الخطط نقله صاحبها المقريزي عن ابن عبد الحكم بزيادة أحر بها ان تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب

(١) المراد بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما في بعض التواريخ

رضي الله عنه واذ قلنا بوهن الرواية الاولى فى جانب العقل وهي لأحد حفاظ الحديث فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . واليكها بنصها مع الزيادة التي أوردها المقريزي قال :

كان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا (أي من العمال) معهم الطور والمساحي والاداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء . ثم كتب اليه عمر ان تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ولا يضربوا الجزية الاعلى من جرت عليه المواسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين

فانظر أيها العاقل الى هـذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذي يوصي فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجد بينهما التئاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا فى الجزء الثاني ضعف أمثال هذه الاخبار بما فيه الكفاية وانما عدنا اليها الآن لامر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو ان واضعي هذه الاخبار انما ألجأهم لوضعها أمران

الامر الاول ان الشؤون الادارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط فى أكثر الاوقات بأهل الذمة بل استمرت تكتب بلغتهم أيضا الى عهد عبد الملك بن مروان فكانوا يستطيلون احياناً على رجال الدولة وأهل المكانة وربما تحرج منهم أحيانا بعض الفقهاء فوضعوا لهم أمثال تلك الاخبار تنقيصا لهم وحطا من مكانتهم عند الخلفاء والملوك وابعاداً

لهم عن مناصب الدولة وانما الجأهم الى نسبة هذه الاخبار الى عمر كونه كان رضي الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء في الشرع وهذا بلا ريب يعد من أولئك الوضاعين تناهيا في ضعف الرأي لاسيما اذا علموا باحوال اهل التقى والعدل من الخلفاء ومعاملتهم الجميلة لاهل الذمة كعمر بن عبد العزيز ومن حذا في ذلك حذوه من الخلفاء وبالاخص الخلفاء من بني العباس الذين كان أكثرهم متفقها في الدين واقفا على اخبار السلف كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وامثالهم ممن أتى بعدهم فكانوا يوسدون كثيراً من شؤون الدولة الى أهل الذمة ويقربونهم منهم لاسيما الاطباء والكتاب بلا أدنى تحرج في الدين وأي حرج في الدين يمنع من محاسنة الذميين وعدم ايذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين ومن وقف على اخبار ماسويه وحنين بن اسحق واضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين في مصر فكان القبط أرباب الكلمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقريزي يتولون دواوين الخراج ويركبون البغال الفارهة ويتصرفون باموال الدولة بل بلغ بالخلفاء ان كانوا يعطون القاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهي الالقاب المضافة الى الدين للاطباء والكتبة من النصارى واليهود وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين ابن البورى الكاتب النصراني) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن:

هذا هو السبب الاول واما السبب الثاني لوضع تلك الاخبار فمنشأوه نزوع بعض الامراء الى اجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكث

عهود هؤلاء القديمة ولما لم يروا في الشريعة مخرجا لهم يتوصلون به الى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمي فوق ما حدده الشرع من الخراج والجزية كما حملوا المسلم لا سيما والاخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على ما لهم من حقوق الذمة والجوار وانهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — مهدوا لاغراضهم السبيل بالايماز الى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر مقدمة لاستباحة امتهانهم ثم إجهادهم بالضرائب يدلك عليه ما حدث في عهد المروانيين من الاجتراء على استزادة الخراج والجزية في مصر وغيرها من غير حقها كما ستراه مبسوطاً في محله ان شاء الله

على ان سيرة الصحابة ورجال الفتح في الصدر الاول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الاقوال الواهية حتي انهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة ما لا يقوى عليه الحسام، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الاقوام(١) وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم تجنب ايذائهم بالقول أو الفعل خصوصا عماله يدلك عليه ما ذكره في سراج الملوك في حكاية طويلة لا محل لذكره هنا وخلاصتها ان عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد الى عملك فقال عمير أنشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لم أسلم منه حتي قلت لذمي: أخزاك الله: ولقد خشيت ان يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول (انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لي الى أهلي: فاذن له فاتى أهله الخ الحكاية

فاذا كان مثل عمير بن سعد يستعفي من عمله لكلمة قالها لذمي وخاف ان يخصمه رسول الله عليها لانه قال «من ظلم ذميا فانا خصمه يوم القيمة» فهل يسوغ العقل ان يؤذي عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصي والركوب على الاكف ونحو ذلك من أنواع الايذاء الذي لا شيء بالنسبة اليه قول عمير للذمي: اخزاك الله:

فاللهم انا نبرأ اليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للعقل

من الكتابيين ان ما روى عنهم من اخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع انهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثنيي العرب قبل الاسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك: الروم: والقبط: مثلا كانهزام الروم . وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب التاريخ التي نقلت الينا أخبار الفتح بالرواية كالطبري وأشباهه، ولو فرض وجود شيء من تلك الالفاظ فيها فانه نزر يسير وهو من حشو النساخ واما كتب المتأخرين او المقلدين فان أصحابها لم يراعوا فيها ماراعاه السلف من الادب وحسن الاداء لما وقر في نفوسهم من التعصب الذي حدث في القرون الوسطى ولم يكن له أثر في النفوس في صدر الاسلام لعلم أهل ذلك الصدر ان الاسلام جاء للتأليف والوئام، لا للتفريق بين الاقوام، وان اختلاف الاديان لا يوجب الفرقة والخصام، لقوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » ولان القرآن نطق بان أهل الكتاب أقرب مودة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى . ذلك بانّ منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون» ولهذا سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك في الجزء الثاني في حكاية هرقل مع الفرس وهي القصة التي جاءت في قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع في محلها

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين وانما أطلنا الكلام في هذا الباب اظهارا لبراءة عمر (رض) مما عزي اليه وتنبيها لاولي النهى من المسلمين الى ان دينهم يأمر بمحاسنة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين وان مرض التعصب الذميم انما طرأت اعراضه على الامة تدريجا سيما على

عقب الحروب الصليبية، وان من آثار ذلك التعصب القبيح ما يلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الاهانة والعسف من الدول المسيحية التي حكمت بعض الممالك الاسلامية ولم تراع فى حكم المسلمين حقوق الانسانية ولا الدين بحجة الانتقام للمسيحية . والمسيحية والاسلام يبرآن الى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ولكن ما الحيلة والانسان مهما ترقت مداركه وسمى عقله فانه لا يزال يتقاصر دون الوصول الى مرتبة العلم الكامل الذي يجعل البشر كلهم بالاضافة الى وجوب التعاون والاجتماع سواء، وان اختلفوا فى المذاهب والاهواء، اذ كل امرىء مسؤول عن اعتقاده عند الله. وانه سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها. ولكن: انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور :

(عود لخبر عمرو)

لما تم لعمرو بن العاص افتتاح مصر وكتب الى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب اليه كتابا يشكره فيه ويقول له ان صف لى حال مصر فكتب اليه ما نصه

ورد اليّ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه يسألني عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر ، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر عجاجه، وتعظم أمواجه، فتفيض على الجانبين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب .

وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن المخائل، أو ورق الاصائل، فاذ تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطمى في ردته ، فعند ذلك تخرج ملة محقورة، وذمة مخفورة،(١) يحرثون بطون الارض، ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله عنهم بغير جدهم، فاذا أحرق الزرع وأشرق سقاه الندا ، وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، فاذا هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة زرقاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ويقر قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرة الا في أوانها ، وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها ، فاذا تقرر الحال مع العمال، على هذه الاحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله يوفق الى حسن الحال ،

استقر أمر عمرو بن العاص في مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتمناه فتبسط في المعيشة وتوسع في أمور دنياه فأنهي الى عمر بن الخطاب انه فشت لعمرو فاشية من خيل ومتاع، ونزعت نفسه الى الراحة والاستمتاع، وهيهات لمثله ان يتم له ما أراد ويتقلب على وثير النعم وخليفته يعاني شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ويؤدب عماله باديه ويحملهم على طريقته تعففا عما بايدي الناس، واكتفاء بأجر الصبر والتماسا لرضا الله والرعية .

روى البلاذري عن عبد الله بن المبارك قال : كان عمر بن الخطاب

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخفورة يدلك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من الجور والاهانة في دولة الروم

يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم مازاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب الى عمرو بن العاص « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر »

فكتب اليه عمرو « ان أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلا عن مانحتاج اليه لنفقتنا »

فكتب اليه «اني قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك اليّ كتاب من أقلقه الاخذ بالحق. وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فاطلعه طَلَعَهُ واخرج اليه مايطالبك وأعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفاء » فقاسمه ماله

لم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، الاّ الخضوع لما أمره به ومقاسمته بن مسلمة ماله ذلك لانه يعلم منه الجد في القول وقد قال له في كتابه « وأعفه من الغلظة عليك» فانه لو لم يقاسمه راضيا لقاسمه مكرهاً حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع له ماله ولا جنده . فلله ماأعظم ذلك الرجل الكبير فعلاً . وأعلاه في النفوس مكانةً وماأهيبه في القلوب وأرهبه للعمّال على ماعرف به من التواضع للرعية والرأفة بفقراء الناس

وأخرج البلاذري أيضا عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد ابن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : انّ زماناً عاملنا فيه بن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت

معتقلاً عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكوءها(١)

قال أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولي فان المجالس بالامانة : فقال لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمرو واشباههما ومن هم ؟ هم أصحاب ذلك الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافحوا جنود فارس والروم . وانما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة وترك الادلال بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابقة والفضل فى فتوح الممالك والبلدان

فان هذه السياسة الجميلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس الامة لكلمة سوء يتقرب بها واحدهم اليهم أو بدعة شرٍّ يعرضها عليهم لا لفتح الممالك والبلدان، ولا لمكافحة جيوش فارس والرومان، واذا تأذن الله بزوال أكثر دول الاسلام لحيدهم عن طريق الشرع فى سياسة الرعية واطلاقهم يد العمال فى معاملة الامة بالعنف والتعسف بالحكم جرياً لمنافعهم الذاتية ، وتهاوناً بامور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»

هذا وما زال عمرو بن العاص أميرا على مصر حتى ولي الخلافة عثمان رضي الله عنه فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها فى زمن معاوية ولم تطل مدة ولايته الثانية وتوفى فيها كما سنذكر ذلك بعد

(١) أي رابطا بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسوءك قلته يقال بكأت الناقة والشاة اذا قل لبنها

هـذا ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح مصر وولاية عمرو رضي الله عنه عليها وبقي لنا كلام عن الحالة الاجتماعية في مصر رأينا من الصواب ان نرجئه الى سيرة محمد علي باشا آخر من حكموا مصر من المشاهير ليكون الكلام مبتدئاً من زمن عمرو ومنتهياً الى هـذا العصر فيصير كالسلسلة المتصلة الحلقات آخذاً بعضه برقاب بعض في كل مايتعلق بشؤون مصر العمرانية والسياسية والله الموفق والمعين ٠



باب

دهاؤه واخباره مع عثمان ومعاوية

وكلمة في الفتنة

(اخباره مع عثمان)

قبل الكلام على دخول عمرو في فتنة عليّ ومعاوية رأينا ان لانغفل مانقلوه عن دخوله في فتنـة عثمان بياناً للحق واستيفاء لاخباره ما كان له منها وما عليه

نقم المسلمون من عثمان رضي الله عنه اشياء ليس هـذا محل بسط الكلام عليها وكان أهمها إيثاره ذوي قرابته على غيرهم من جلة الصحابة في توليتهم على الاطراف وتسليمهم ازمة الدولة بعـد تتبع امراء الاعمـال الأول بالعزل وابعادهم عن مناصب الدولة وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الامارة عمرو بن العاص فنقم منـه مع من نقم ولو أنصـف عمرو وكل من نقم من عثمان وانكر عليه تأمير ذوي قرباه ونظروا الى الظروف التي صار اليها في خـلافته والاحوال التي اكتنفته في ولايتـه وما أحرجه به

مناظروه لما نقموا منــه عمله ذلك لانه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع الى الفتنــة والتوثب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر كما سنبسط ذلك فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

عزل عمرو بن العاص عن امارة مصر فجاء الى المدينة فكان عثمان رضي الله عنه يميل الى استشارته في أموره ويضعه موضع الثقة منه حتى انه لما اشتدت عليه الازمة دعاه فيمن دعاهم اليه من ذوي قرابته وعماله واستشارهم فيما يصنع لاطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما في رواية أبي جعفر الطبري

يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل، أو اعتزل، فإن أبيت فاعزم عزما، وامض قدما،

فقال له عثمان: مالك قمل فروك أهذا الجد منك: فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لانت أكرم علي من ذلك ولكني علمت ان بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا فاردت ان يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود اليك خيرا وادفع عنك شراً

وفي رواية للطبري أيضا قال: كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغري به ولقد خطب عثمان يوما في آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص: اتق الله يا عثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب الى الله نتب

فناداه عثمان: وانك ههنا يا ابن النابغة قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل

وفى رواية له أيضا قال: كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول والله ان كنت لالقى الراعي فاحرّضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سعر الشر بالمدينة خرج الى منزله بفلسطين فبينما هو بقصر ومعه ابناه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة بن روح الخزامي اذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو : انا أبو عبد الله *العير يضرط والمكواة في النار* : ثم مر بهم راكب آخر فسألوه فقال: قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله اذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يامعشر قريش انما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا ان نخرج الحق من حاضرة الباطل ليكون الناس فى الامر شرعا سواء

هذا كل ماقيل فى شأن دخول عمرو فى فتنة عثمان وهذا الخبر الاخير مع مافيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الاول وانه يحتاج الى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على ان كل مانقم من عثمان (رض) انما هو ايثاره بني أمية على غيرهم فى الاعمال . وقد زعم بعضهم ان عمرو بن العاص هو الذي حرك المصريين على عثمان ولا دليل عليه اذ الذي حرك المصريين فى الحقيقة هو محمد بن أبي حذيفة وابن السوداء اليهودي كما سيأتي فى محله وما كان لعمرو فى هذه الفتنة الا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله واحسن مايعتذر به عن عمرو هو انه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك فى فتنة عليّ ومعاوية يدلك عليه مانقله ابن أبي الحديد فى شرح نهج البلاغة من رواية الواقدي عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أي لسعد) كيف

لم يمنع أصحاب رسول الله (ص) عن عثمان ؟ فقال انما قتله أصحاب رسول الله
ويريد بهذا انهم شهدوا قتله ولم يكونوا القيام من قام عليه كارهين
واما انهم أرادوا قتله فمعاذ الله وانما هم نقموا منه ما نقم الناس وظنوا
ان عثمان اذا اشتدعليه الامر وضايقه المحاصرون له يخلع نفسه من الخلافة
فتعود شورى بين الناس وهذا غاية ما كان يطمح اليه المهاجرون الذين
هم من أهل الشورى والذين كان لكل منهم حزب يريده على الخلافة
ويرى انه أحق بها من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطرار الآفاق
الذين حاصروا عثمان وبادروا الى قتله لما علموا انهم ان عادوا الى ديارهم
مع بقاء الخليفة عثمان حياً أخذوا لامحالة وهذا بحث طويل لامحل له هنا
بل سنعود اليه ونتبسط فيه من كل وجوهه في سيرة عثمان ان شاء الله



أخباره مع معاوية

(وكلة فى الفتنة)

ذكرنا فى سيرة سعد بن أبي وقاص في التمهيد الذي مهدناه لاخبار الفتنة انّ هذه الفتنة سياسية لادينية وانّ سعداً اعتزلها حباً بالسلامة وقد جاراه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة ابن شعبة وعبادة بن الصامت ونفر غيرهم . واعلم ان اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة انما كان لعدم تحققهم الحق من غيره من فريقي المتخاصمين اذ القوم كلهم مسلمون وفى الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الانصار من لم يشك فى دينهم أو يقدح فى عدالتهم والحكم على فريق منهم انه على غير الحق حكم على الآخر اذ الكل متساوون فى الاسلام

متكافئون بالصحبة وان امتاز بعضهم عن بعض بالسابقة أو قدم الهجرة وكل مازعمه بعض الفرق الاسلامية كالمنزلة والشيعة من ان الفريق الذي حارب علياً رضي الله عنه من الهالكين على رأي الفرقة الاولى ومن الكافرين على رأي الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ لانهم كلهم دخلوا في الفتنة فاذا صح كما يزعمون انّ الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين وهم أبرأ الى الله مما يزعمون

والعجيب فى أولئك الفرق ان يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة دنيوية بل ولو دينية أيضا يرى كل شخص منهم انه الاحرى بها والاليق للقيام باعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعا دينياً كأنه تنازع على انّ الله واحد أو أكثر ينجو من آمن بوحدانيته ويهلك من قال بتعدده فيرسخ فى اذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ مع انّ فى الحديث (من قال لاخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين لا لأنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لانهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله وكلٌّ يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست فى الآخر

نعم ان لتلك الفرق ان يقولوا أنّ علياً رضي الله عنه حقيق بأمرة المؤمنين لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الاوصاف الفاضلة التي هو بها جدير رضي الله عنه وأرضاه ولكن ليس لهم ان يقولوا انّ من نازعوه على الخلافة وانصارهم كفار . لماذا : لانهم نازعوه عليها . مع انه ليس هناك أمر آلهي بتخصيص الخلافة فى شخص بعينه بل ولا أمر نبوي أيضا وكل ماقيل وروي عن النبي (ص) فى شأن علي وآله نصاً

ووصاية كما يقولون فقد ثبت انه موضوع وان حاول مؤسسو مذهب الشيعة ورافعو دعامته اثباته بوجوه كلها مردودة وحسبك شاهداً على ذلك انّ الصحابة لما ناقشوا الانصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم الا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش عليّ أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية بل بالسابقة والقرابة ثم اجمعوا جميعهم وعليّ معهم على الرضى بخلافة أبي بكر ولو كان هناك نص على عليّ لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بعليّ أحدا الا اذا اعتقد الشيعة بوجود النص وان الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبي (ص) لانهم غير مؤمنين الاّ عليّ بن أبي طالب فانه كان وحده كل المسلمين . وماتخال ان الجهل يبلغ بأحد الى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله الاّ طائفة حقيرة منهم ظهرت في المغرب تنسب الي الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوّة علي وألوهيته وغير ذلك من الهذيان

وبالجملة فمن الفضول في أمر مضى زمنه، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه في عصرهم، ان ينقسم الناس لاجله شيعا إلى هذا اليوم. وانما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعضيدا له وأخذا بناصره وتوصلا لامرته . وأما التشيع لفريق دون فريق الى هذا اليوم فأيّ فائدة فيه للمتشيع له غير مايقوله الامامية من وجوب الخلافة لآل عليّ للنص أوالعصمة وهم غير مغنيهم عن هذا الوجوب شيئاً الاّ ما كان في بعض العصور الاسلامية من قيام الدعاة لآل عليّ يتذرعون بذلك

للسيادة والملك أو الالتفاف حول صاحب الدولة(١) وناهيك بما نشأ عن هذه

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على ان نفرد له فصلا مخصوصا في سيرة عليّ رضى الله عنه نأتي به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلبا للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة وانما قلنا الزعماء لان العبرة فى تاريخ تلك النحل الامامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها اذ هؤلاء اتباع الرؤساء وأسرى التقايد في كل نحلة يدينون بما دان به آباؤهم كيف ما كان . على ان كلامنا في هذا الفصل جميعه اجمالي أتى معنا استطراداً والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظنن ان ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فان من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال في مذاهبهم ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم في القول بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل وبناء مذهب الامامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين على اني أعتقد ان أكثر عقلاء الشيعة والمستنيرين بنور العلم والحكمة ولاسيما خاصة أمة الفرس منهم ينكرون على الغلاة أشد الانكار ويتأففون من ذلك الخلط والخبط الذي مزق احشاء الاسلام وكل من شممت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين ومآل اليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر عليّ هذا القول بل أظهر من الألم من سوء هذا التعصب الاعمى والجهل مثلما أحسّ به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطر مصير صار اليه المسلمون بازاء الامم الاخرى لتضييعهم ايام مجدهم وابان شباب دولتهم بمثل هذه السفاسف التي ليست على شيء من الدين والحق حتى شغلتهم هذه الامور عن كل شاغل فاسترسلوا فى تيه الغفلة عما يكون من مجد الامم وسعادتها ولم ينتبهوا من هذه الغفلة حتي أخذتهم صيحة الغرب من كل مكان وساقت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لامة الغرب الراقية التي عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الانسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا والهمنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والاوهام وحسبنا من جزائك العادل أن صرنا وراء الامم، وأشرفنا على هوة العدم، والعياذ بالله

الدعوة من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس وما كان فوق هــذا من غلو فريق كبير فى آل عليّ حتي جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والاسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة التي بلغ ببعضها الجهل والتناقض فى ضعف العقول ان قالوا انّ رؤية الامام وجدها كافيــة لاسقاط الفرائض واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلى من هذا الكتاب ان شاء الله

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بامامة آل عليّ . وعن ماذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على امارة المؤمنين أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم وانتهى أمر خلافهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام الى هذا اليوم حتى صاروا هــذا بسنيته وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالسمك بعضهم عدوّ بعض يسـطو قويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ولكن ما رأي الامة الآن وقد فغر حوت المغرب فاه ليلتهم القوي والضـعيف ويأتى على الآكل والمأكول ما دام الكل فى الفرقـة والخصام مسترسلين يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين والدين بريءٌ مما يعملون

اذا تقرر هذا فقد علمت انه نتج مما تقدم أمور ينبغي النظر فيها وهي:

(١) ان مسئلة الخلاف على الخلافة فى ذلك العصر مسئلة سياسية باعتبار ان الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا فى صدر الجزء الاول) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية

(٢) ان الذي دعا فرق الشيعة الى إلصاقها بالدين وجعلها واجبة دينا

باعتبار انها ركن من أركان الدين انما هي السياسة نفسها وهي ارادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون ان لهم عليه حق النصرة ويقولون انه أهل لادارة مصالح الامة على محور الشرع أكثر من غيره ولكن لما علموا ان الاهلية لا تنحصر في الحقيقة في شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص أي ان صاحب الشرع نص على عليٍّ ثم جرّهم ضرورة سوق الامامة الى أولاده الى اعتقاد العصمة في عليٍّ وآله تدعيما لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل انزلوهم منزلة النبوة تارة والالوهية أخرى وهم رضي الله عنهم برآء مما يقول الظالمون

(٣) ان كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار ان النفر الذين تطلعوا الى الخلافة وانقسم لاجلهم المسلمون انما تنازعوا على أمر مازال يتنازع عليه الاكفاء من أهل العصبية في كل دولة من الدول وعصر من العصور

(٤) انا كما عذرنا أولئك النفر ينبغي ان نعذر عمرو بن العاص على دخوله في الفتنة لان له أسوة يومئذ بكل المسلمين ولا يؤخذ عليه من ذلك الا ما صنعه يوم التحكيم وهو وان ادّى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز اليه وعمل بما تقضي به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما الا أنه أوجد من الامور أمورا أنتجت نتائج كبيرة في مستقبل الامة ، فهو اذا أوخذ فانما يؤاخذ من هذه الجهة لا من جهة انه كفر وألحد باعانته على عليٍّ (رض) كما يتخرص به أولئك المتخرصون . اذ ما كان ليضر عليًّا ممالأة عمرو عليه لو أحسن شيعته الطاعة له في حرب معاوية (رض) ويوم اختيار الحكم ولكن لله في هذا شأنا هو بالغه

عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجالهم فى الجاهلية والاسلام وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة فى فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب وقد رأى ماراى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب كافة المسلمين لاولئك النفر من قريش فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم فى الامور ماوسع النفر المعتزلين من حب السلامة بل رأي أن انتفاع فريق من اولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل باطفاء شواظ الفتنة وحسم لمادة الاختلاف الذي أهريق فيه دم الامة. وتربص ريثما انجلت الفتنة الاولى عن قتل طلحة والزبير وانحاز الاحزاب كلهم الى علي ومعاوية رضي الله عنهما فنظر فرأى علي بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعاريض الساسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه : وان معاوية رجل دنيا لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمرا الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه بل ربما أضمر ان ينازعه الخلافة كما نازع هو عليًا عليها اذا أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه فى الامر كما سترى بعدُ فانحاز الى معاوية وكان له من الشأن بعدُ ماهو معروف وما سنذكره هنا ان شاء الله

روى ابن عساكر فى سبب ارتحال عمرو الى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : ان الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى بها (١) من عمرو بن العاص قال وما زال معتصما بمكة ليس فى شيءٍ مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث الى ابنيه عبد الله ومحمد فقال لهما انى رأيت رأيا ولستما باللذين تردانى ولكن أشيرا عليّ .

---

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة الجامع الازهر (اعمامها) وهي غير مفهومة كما لا يخفى

اني رأيت العرب صاروا عادين (١) يضطربان وانا طارح نفسي بين حراري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة فقال الى أي الفريقين أعمد

فقال له عبد الله ابنه ان كنت لا بدّ فاعلا فالى عليّ فقال عمرو: ثكلتك أمك اني ان أثبتُ عليًّا قال لي انت رجل من المسلمين. وان أثبت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني فى أمره: فأتى معاوية. وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليًّا دعا ابنيه عبد الله ومحمدا واستشارهما: فقال له عبد الله: صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي وهو عنك راض. وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان. ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض فأرى ان تلزم بيتك فهو أسلم لدينك:

وقال له محمد أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أرى ان تختلف العرب فى جسيم أمورها ولا يرى مكانك

فقال لعبد الله اما أنت فأشرت عليّ بما هو خير لي فى آخرتي واما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري ارتحلا: فارتحل الى معاوية

وفى رواية ان عليا رضي الله عنه كتب الى معاوية كتابا بعث به مع جرير بن عبد الله البجلي يدعوه الى البيعة فطاول فى الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ثم استشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان فاشار عليه ان استعن بعمرو بن العاص فكتب اليه ما نصه:

أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبدالله

---

(١) لعلها (عاديين) او محرفة عن مثنى عديد اوعد وكلاهما بمعنى القرن والند

في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فاقبل اذا كرك أمورا لاتعدم صلاح مغبّها ان شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبد الله ومحمدا فاشار عليه الاول بالجلوس والثاني بالخروج الى معاوية فارتحل اليه

فلما قدم اليه دعاه الى جهاد عليّ ومطالبته بدم عثمان وصغر له من شأن علي رضي الله عنه فقال : والله يامعاوية ماأنت وعلي بحملي بعير ليس لك هجرته ولاسابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولاعلمه . والله ان له مع ذلك لحظا في الحرب ليس لاحد غيره . ولكني قد تعوّدت من الله تعالى احسانا وبلاء جميلاً فما تجعل لي ان شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر :

قال معاوية : حكمك : قال عمرو : مصر طعمة : فتلكأ معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم ان مصر مثل العراق: « يريد انّ العراق بيد علي ومصر بيد عمرو فماذا يبقى له) قال عمرو : بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما كانت لك اذا غلبت عليًّا على العراق :

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى ان تشري عمرا بمصر ان هي صنعت لك: وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتا يقول فيها:

أيّها المانع سيفا لم يهز ... انما ملتَ على خزٍّ وقزّ

الى ان قال :

واسحب الذيلَ وبادر فوقها ... وانتهزها ان عمرا ينتهز

أعطِه مصرا وزده مثلها ... انما مصر لمن عزّ فبز

واترك الحرص عليها ضلة　　واشبب النار لمقرور يكز(١)
ان مصرا لعلي أو لنا　　يُغلَب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله ارسل الى عمرو فاعطاه مصر على ان يعطي عطاءهم وأرزاقهم وما بقي فله. فرجع عمرو الى عبد الله ابنه فقال: الله قد أخذنا مصر: فقال وما مصر في سلطان العرب. فقال له: لاأشبع الله بطنك ان لم تشبعك مصر:

وكتب معاوية بمصر كتابا لعمرو أراد ان يكايده حتى اذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب اليه فيما كتب « على ان لا ينقض - أي عمرو - شرط طاعة» فادركها عمرو وكتب «على ان لا تنقض طاعة شرطا» وهو قلب في العبارة بلغ الغاية في اللطف وقلب المقصود الذي قصده معاوية الى ما يقصده عمرو من ان الطاعة لاتوجب التخلي عن مصر

على ان معاوية لما استقر له الامر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصلح بينهما معاوية بن خُدَيج (٢).

روى ابن عساكر عن أبي عون قال: لما صار الامر كله في يدي معاوية استكثر طعمة لعمرو ماعاش: ورأى عمرو ان الامر كله قد صلح به وبتدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن ان معاوية سيزيده الشام مع مصر: فلم يفعل معاوية. فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا. وتميز الناس وظنوا انه لايجتمع أمرهما. وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو

---

(١) قوله وأشبب النار أي أشعلها. وقوله لمقرور يكز المقرور الذي أصابه البرد ويكز بمعنى ينقبض (٢) ضبطه ابن الاثير في التاريخ ابن حديج بالحاء المهملة وجاء في أسد الغابة له أيضا بالخاء المعجمة وفي أكثر كتب الاخبار كذلك

خاصة وللناس عامة وانّ لعمرو ولاية مصر سبع سنين ، وعلى أنّ على عمرو السمع والطاعة لمعاوية. وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهودا ثم مضى عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله مامكث سنتين أو ثلاثا حتى مات!

ولا يتبادر الى ذهن القارئ من قوله فى هذه الرواية « لما صار الامر كله فى يدي معاوية الخ » ان مصر انتهت الى معاوية بعد استصفاء معاوية للخلافة وموت علي والحسن رضي الله عنهما كلا بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبي بكر لما كان واليا على مصر من قبل علي رضي الله عنه كما سترى بعد

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلي ينتظر جواب معاوية لعلي فاستشار معاوية عمرا فيما يصنع فقال ان رد ربيعة عن عليّ خطر شديد ورأس أهل الشام شُرَحبيل بن السمط الكندي وهو عدوّ لجرير المرسل اليك فابعث اليه ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس ان علياً قتل عثمان. وليكونوا أهل رضى عند شرحبيل . فانها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب وان تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيءٍ أبدا

ففعل معاوية ماأشار به عمرو كما سنذكره في محله ان شاء الله فاغرى شرحبيل بحرب عليّ وتم لمعاوية ماأراد من جمع أهل الشام على حربه وكان بعد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد فى هذا الكتاب ان شاء الله

مهد عمرو لمعاوية بدهائه ما مهد وارتحل معه الى صفين حيث كانت الحرب بين علي ومعاوية فاتى هناك بمكيدتين دلتا على عظيم دهائه

وكبير عقله الا انهما كانتا كالبركان اذا انفجر لا يبقى ولا يذر، فاما المكيدة الأولى: فهي اشارته برفع المصاحف في وجوه أصحاب علي وذلك ان عمرا كان في آخر يوم من أيام صفين بحيال الاشتر فقال لوردان مولاه: أتدري مامثلي ومثلك ومثل الاشتر: قال لا: قال كالاشقر ان تقدم عقر وان تأخر عقر لئن تأخرت لأضربن عنقك: قال أما والله ياأبا عبد الله لاوردنك حياض الموت ضع يدك على عاتقي: ثم جعل يتقدم ويقول لاوردنك حياض الموت واشتد القتال. فلما رأى عمرو أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الا اجتماعا، ولا يزيدهم الا فرقة: قال نعم: قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم: فان أبى بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا ان نقبل. فتكون فرقة بينهم. وان قبلوا مافيها رفعنا القتال عنا الى أجل

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حكم الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهله «أي من يحميها من العدو» من لثغور العراق بعد أهله: فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله:

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار بعد ان كادت جنوده تدحر جنود الشام

وأما المكيدة الثانية فهي خداعه لابي موسى الاشعري يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه فخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الأخبار فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله

اجتهد عمرو بنصرة صاحبه وتأييد جانبه فنجح فى مكيدتيه الاولى والثانية لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد؟ انّ غاية ما كان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الاولى ان يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون فيدب الفشل حينا فى جيش علي بن أبي طالب (ض) يلم في غضونه جيش معاوية شمثه ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو الامر حيلته ويهيئ لعمل آخر أسبابه فجاءه الامر فوق ماأراد ووقع سهمه وراء الغرض اذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب، أوأصابت جسما فاضطرب ، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت فى عقل فتنشطت، ونعقت ناعقة كأنها كانت فى قفص فأفلتت، فنادت الى م تمضنا هذه الحرب بنابها، وعلام تأخذنا قريش بجريرتها، ومالنا والامراء من عدنان أو قحطان وأمير كلّ امرء دينه، وحاكمه وجدانه، هلمّ فلنخرج عن جماعة الامراء، ولنقتلهم فى ليلة ظلماء، ونثير على الامة كلها غارة شعواء، فاما ان تفئ معنا الى كتاب الله. وأما ان نموت شهداء

هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنة وضرًا على علي وأصحابه، ومعاوية واحزابه ، ومروان وجنده ، وعبد الملك وكيده ، والخلفاء من بعدهم. صبغوا أديم الارض بدماء المسلمين، وكدروا صفاء الدول عددا طويلا من السنين، ولولا غلوّ فى معتقدهم، واغراب فى بوادر السنتهم، وتطرّف في مذهبهم، استلحموا به الناس قتلا وحربا لالتف الناس لفهم، وأخذوا جميعا اخذهم، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من اعماق الوجود، وقلبوا أوضاع الدول، ولكن أكلتهم الحروب، وفرق جمعهم الخلفاء، وأضعفهم الشذوذ فى

الاعتقاد، فلم يصلوا الى مبتغاهم وضاع أثرهم (١) بعد ان ضاع تعبهم اللهم الا أثرا فى النفوس تركوه، وطريقا لحرية القول مهدوه، فدب فى الامة من ذلك اليوم دبيب الجدل لكن فى الدين، وحبب اليهم الانطلاق لكن عن قيود الوحدة فى المشرب والفكر، والكلام على هذا نستوفيه فى غير هذا المحل ان شاء الله

هذا ما انتجته مكيدة عمرو الاولى ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل (واما المكيدة الثانية) فحسبها ان حولت قواعد الخلافة الشرعية الى الملك العضوض، والشورى الى المغالبة، والاختيار الى الوراثة، ولو استقرت الخلافة لابن أبي طالب رضي الله عنه بعد اذ ذهب مناظروه من اقيال قريش لما بقي للمغالبة بعده أثر لان النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس والنزوع الى تلك الرياسة العظمى وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة قضوا ولم يك يبق بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون اليها الا الاختيار السابقين في الاهلية لرياسة الامة وكانت رسخت ليومئذ فى نفوس الامة مبادي الشورى ونمت فيهم ملكة الاستمداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطي على أساس متين فاستحال ان تدركه أيدي المتغالبين على الملك الطامعين فى استعباد الناس،

الملك طرفان مطلق ومقيد فتنازعهما علي ومعاوية فكان عليّ آخر

---

(١) ان الخوارج تفرقوا فى مذاهبهم السياسية والدينية فرقا شتى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الاباضية ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلي المحيط الهندي وناس فى زنجبار ومثلهم فى بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله

الامراء المقيدين، ومعاوية أول الامراء المطلقين، ومع ماعرف عن الثاني من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التي يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فانّ هـذا لم يغن الامة شيئا عن خلافة علي ابن أبي طالب التي كانت أحب الى الامة وأسـد سبيلا فى مستقبل الايام للخلافة الشرعيـة وضم عقد الرعيـة كافة فى سلك واحد تتوحد فيـه مشاربهم السياسية فينقطع دابر النازعين الى الملك من غير ذوي الاهلية ، وينحسم أصل النزاع على السلطان أو التسلط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحـد . وهيهات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو هيهات ، والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت

قلنا فيما تقـدم انّ عمرو بن العاص انما كاد ما كاد وفاء بعهده مع معاوية لاينظر الى ماتصير اليـه الامور فى مستقبل السنين بل ينظر الى قضاء لبانة عرضت له والاعمال التي يترتب عليها من النتائج العظمى ماترتب على عمل عمرو وممالأته لمعاوية هي أمور مخبوءة فى باطن الايام يتبع بعضها بعضا فى الظهور وقد لانظهر بمثل احتكاك عمرو أو أشـد منه أيضا فلا ينبغي الاغراق فى مؤاخذة عمرو بن العاص مادامت تلك النتائج غـير مقصودة له بالذات وانما جاءت بالعرض لاسيما وانه ربما كان يرمي الى غرض آخر من ممـالأته لمعاوية وهو مصير الخلافة اليه اذا قضى علي ومعاوية رضي الله عنهما فى تلك الحرب . يدلك عليه تغريره بمعاوية فى كثير من المواضع ليطوح بنفسه الى الهلاك

ومنها تغريره له في مبارزة على بن أبي طالب فى وقعة صفين وتحرير الخبر ان عليّ بن أبي طالب (رض) نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا

هلمّ أحاكمك الى الله فأينا اقتل صاحبه استقامت له الامور :

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ماأنصفت انك لتعلم انه لم يبرز اليه أحد الا قتله : فقال له عمرو : مايحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أي الخلافة » بعدي

ومنها اغراؤه له بقتل أسرى صفين وقد كان عند علي بن أبي طالب أسرى أطلقهم في تلك الساعة فجاؤا الى معاوية وانّ عمراً ليكلمه في قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك في هؤلاء الاسارى لوقعنا في قبيح من الامر

ومنها اغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة وقد كان قيس من شيعة علي ومعه جيش كثيف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن في يدي معاوية وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم في وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الامان . ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له وأخذ مصر طعمة منه وكان بعد وقعة صفين والتباس الامور وقع الفشل في المسلمين وظهرت الفوضى في البلاد واختلف الناس على محمد بن أبي بكر في مصر وهو أمير عليها من قبل عليّ (رض) فاستشار معاوية أصحابه في أخذ مصر فأشاروا عليه بارسال عمرو وكتب الى شيعة عثمان بمصر فأجابه منهم مَسلَمة بن مُخَلَّد ومعاوية بن خديج بسرعة العمل وبعث الامداد فسير عمراً ومعه عشرة آلاف مقاتل فتلقاه محمد بن أبي بكر بالفين فانهزم

ثم اختفى في خربة أخذه منها معاوية بن خديج وقتله وصفت مصر لعمرو ابن العاص في خلافة معاوية ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفي وهو أمير عليها

ومن أخباره مع معاوية مارواه ابن عساكر ان معاوية دعا عمرو بن العاص «يوم التحكيم» وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش وقال ياعمرو: ان أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لايريده ونحن بك راضون. وقد ضم اليك رجل طويل اللسان كليل المدية له بعد حظ من دين. فاذا قال فدعه فليقل ثم قل وأوجز. واقطع المفصل. ولا تلقه بكل رأيك. واعلم ان خبي الرأي زيادة في العقل. فان خوفك بأهل العراق فخوفه بأهل الشام. وان خوفك بعلي خوفه بمعاوية. وان خوفك بمصر خوفه باليمن. وان أتاك بالتفسير فاته بالجميل:

فقال له عمرو ياأمير المؤمنين أنت وعلي رجلا قريش ولم يقل في حربك مارجوت. ولم تأمن ماخفت: ذكرت ان لعبدالله دينا وصاحب الدين منصور وايم الله لأبينن عِلَله ولأستخرجن خبيئه ولكن اذا جاءني بالايمان والهجرة ومناقب علي فما عسيت ان أقول:

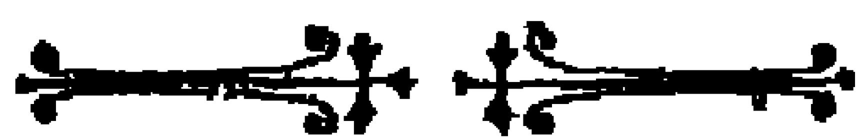
فقال معاوية: قل ماترى. فقال له عمرو فهل تدعني وما أرى: وخرج مغضباً فقال لاصحابه انما أراد معاوية ان يصغر أبا موسى لانه علم اني خادعه فأحب ان يقول: لم يخدع أريباً. فقد كذبته بالخلاف عليه وقال في ذلك شعراً

يشجعني معاوية بن حرب كأني للحوادث مستكين
واني عن معاوية غني بحمد الله والله المعين

في أبيات

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لي فيه رأي : فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : أما والله انّ أمثاله من قريش لكثير ولكنك ألزمت نفسك الحاجة اليه فالزمها الغنى عنه

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه انهما كانامتفقين ظاهراً ، متنافرين باطناً وانّ عمراً لم يشايع معاوية رضي الله عنه حباً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ولم يكن معاوية أيضا بأقل بغضاً له منه يدلك عليه ماروي ان معاوية قال يوما لجلسائه : ما أعجب الاشياء ، فقال يزيد : أعجب الاشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والارض لايدعمه شيء من تحته ولا هو منوط بشيء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل ، وقال آخر أعجب الاشياء مالم يرَ مثله : وقال عمرو ابن العاص : أعجب الاشياء انّ المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلي ومعاوية) فقال معاوية : بل أعجب الاشياء ان يعطي الانسان مالا يستحق اذا كان لايخاف (يعرض بعمرو ومصر التي أخذها طعمة) فنفث كل منهما بما في صدره من الآخر وهذا يدل على انّ علياً رضي الله عنه لو تألف عمراً واستدناه اليه لانتفع به ولصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ولكن اغراق عليّ في حب الفضيلة دعاه الى ترك الحيلة بمثل عمر كما دعاه الى عدم قبول اشارة من أشار عليه بتألف معاوية وتثبيته على ولاية الشام كما ترى بعدُ



باب

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله

رُؤي عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم فقيل له: أيها الامير تركب هذه البغلة . قال: اني لاأملّ دابتي ماحملتني. ولا زوجتي ماأحسنت عشرتي . ولا جليسي مالم يصرف وجهه عني.

وروى ابن عساكر انه قال لابنه يوما: يابني امام عادل، خير من مطر وابل، وأسد حطوم، خير من امام ظلوم، وامام ظلوم غشوم، خير من فتنة تدوم، يابني مزاحمة الاحمق خير من مصالحته، يابني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لاتبقي ولاتذر، يابني «استراح من لاعقل له»: فأرسلها مثلا

وروي أيضا ان عمرو بن العاص قال يوما لمعاوية: ان الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع، فسد خصاصة (حاجة) الكريم، واقمع اللئيم،

وفي رواية أخرى له: قال عمرو بن العاص لمعاوية: ياأمير المؤمنين لاتكون بشيء من أمور رعيتك أشد تعمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه، (ازالته) واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول اذا جاع، واللئيم يصول اذا شبع:

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسدّ النصائح

وروي أيضا عن هشام الكلبي عن أبيه قال: قال معاوية لعمرو بن

العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه . قال فمن أسخى الناس ؟ قال من بذل دنياه في صلاح دينه . قال فمن أشجع الناس ؟ قال من ردّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عُيينة . قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ . ولكنه الذي يعرف خير الشرين

وروى ابن عساكر عن عمرو انه قال : الرجال ثلاثة . فرجل تام . ونصف رجل . ولا شيء ، فامّا الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والالباب ، فاذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك مضيه موفقا . والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله فاذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً وقال أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيي لرأيه . فيصيب ويخطئ : والذي لا شيء الذي لا دين ولا عقل له ولا يستشير في الامر . فلا يزال ذلك مخطئا مدبراً ، ووالله اني لأستشير في الامر الذي أردته حتى خدمي . وماعليّ بعرض عقولهم وأسمع :

وسأله معاوية بن أبي سفيان : ما السرور ياأبا عبد الله ؟ قال الغمرات ثم تنجلي « كناية عن الخلاص من الشدة »

وعن سفيان بن عُيينة قال قال عمرو بن العاص : ماوضعت عند أحد من الناس سراً فأفشاه فلمته . أنا كنت به أضيق صدرا حتى استودعته اياه :

ومن غرر أقواله مانقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة

وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب الاّ انه لا يسلّم من كل الوجوه وانما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دنيّ النفس

يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية فهذا مهما بلغ من علو المكانة فانه بعيد عن الفضيلة لانه لم يستمسك فى ارتفاعه باسبابها، ولم يأت البيوت من أبوابها، فيكون شرا فى مبدإ أمره، شرا فى منتهاه، وفي ارتفاعه شرّ على الناس لانه يستعمل نعمة الارتقاع آلة للاضرار بالناس ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ولو من غير طرقه المشروعة لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية فى الحكومة للسفلة لئلا يفسد السفلة أمرها، ويوهنوا بنيانها، ويرى بعضهم فى هذا العصر لهذا السبب ان أحسن الدول حكومة وأضبطها ادارة وأسدها عملا وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التي مع انها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الاشراف الارستقراطية لانها قائمة على دعائم الاشراف واهل الغنى والثروة لا توسد مناصبها العالية الا لاهل البيوتات العريقة بالمجد والامارة وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى وهذا وان كان يخالف من بعض الوجوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشوروية الا انه يوافق أصول التجارب وينطبق فى كثير من الاحوال على مقاصد الحق والعدل والكلام عليه يحتاج الى بيان وتمحيص وربما نعود إليه فى محل آخر ان شاء الله

هـذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص واما جهة من لا ينطبق عليه فهو الذي يرتفع باسباب طبيعية ونريد بالطبيعية لاستعداد والجد والعمل لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة فان من يرتقي باستعداده وجده ويكون بطبعه عالي النفس سليم الفطرة يرتقي بحكم الاستعداد والفطرة من طريق الفضيلة فيكون فاضلا فى مبدأ

أمره فاضلا في منتهاه فلا يستعمل ارتفاعه سلاحا يتهجم به على الناس بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضرة من ارتفاعه بل ارتفاعه ضروري لازم بحكم العقل والعدل فلا يشمله معنى قول عمرو ولعله لا يعنيه ولكن يا للاسف ان أمثال هذا عددهم قليل ، في كل قبيل ،

خطبة له

رأينا في تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمرو بن العاص من أحسن أقواله يوصي بها الناس بالقصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط وصرف العناية الى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها وغير ذلك من الوصايا الجميلة النافعة رواها ابن عساكر عن بُحَيْر بن داخر المعافري قال :

ركبت أنا ووالدي الى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد حمم (كذا) النصارى بايام يسيرة فأطلنا الركوع اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يؤخرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال يابني هؤلاء الشرط . واقام المؤذن الصلاة فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج(١) عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تألق (٢) عليه . وعليه عمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكوة وصلة الرحم وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال في ذلك

يامعشر الناس اياي وخلالا اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العز . إياي وكثرةَ العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييعَ المال ، والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال ، وثم انه لا بد من فراغ يأول المرء اليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد (٣) والنصيب الأقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه

(١) الادعج اسود العين الابلج المضيء المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص (٣) أي بالاعتدال

عادلا، يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى، واقلعت (١) السماء، وارتفع الوفاء، وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السمائم (٢) وعلى الراعي حسن النظر. فحي بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيره ولبنه، ومرافقه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جُنتكم (٣) من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم. واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً. وايّاي والمومسات (٤) المفسدات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم. حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول صلى الله عليه وسلم يقول «ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة» فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا ابصاركم. فلأعلمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه (٥) واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسهُ من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك. واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم، ولإشراف قلوبهم اليكم، والى داركم، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة. حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله (ص) يقول (اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض) فقال له أبو بكر: ولم ذلك يارسول الله؟ قال: (لانهم في رباط الى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما اولاكم واقيموا في ريفكم ما بدا لكم. فاذا يبس العود، وسخن العمود، وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح (٦) البقل وانقطع الورد فحيّ على فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن احد منكم على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته او عسرته اه

---

(١) واقلعت السماء اي كفت وهو كناية عن انقطاع المطر (٢) كذا في الاصل ولعلها السوائم وهي الماشية (٣) الجُنة هي الوقاية (٤) العواهر (٥) جواب قسم محذوف اكد بالنون الثقيلة وما مصدرية اي فوالله لاعلمن اتيان رجل موصوف بما ذكر وفي طيه من الترهيب البليغ مالا يخفى وقد بين بعدُ جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ (٦) صوح اي يبس اعلاه



﴿ أخباره ﴾

(من أخباره فى حسن الخلق) مارواه بن عساكر عن الشعبي عن قبيصة بن جابر قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاأبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه :

وعن قبيصةأيضا قال : صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أحسن مداراة منه ،

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى لجزيل من غير مسئلة منه،

وصحبت معاوية بن أبي سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلما منه

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين (أوقال أنصع) طريقا منه ولا أكرم جليسا ولا أشبه سريرة بعلانية منه

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لايخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من أبوابها كلها :

ونادت امرأته مرةجارية لها فابطأت فقالت يازانية : فقال لهاعمرو أو رأيتها تزني؟قالت لا ٠قال لتضربنّ بها يوم القيمة سبعين سوطا:فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو اذا اعتقتها فاعتقتها

(ومن اخباره) التي تدل على علمه وتعقله وبعده عن الاوهام مارواه ابن عساكر عن موسى بن عليّ قال سمعت أبي قال : كنت مع عمرو بن العاص بالاسكندرية فانكسف القمر فاصبحنا مع عمرو فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة ان القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدوّ الله هذا ، هم علموا مافي الارض فما علمهم مافى

السماء ! قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له: انما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون: ثم قرأ الآية (انّ الله عنده علمُ الساعة ويُنزّلُ الغيث ويعلمُ مافي الارحام وماتدري نفسٌ ماذا تكسبُ غدا وما تدري نفس بأيّ أرض تموت) الى آخر الآية

ولا شك ان هذا الدليل الكتابي يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخلق ان الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئا من أسرار الوجود ولم يحرم على الانسان ان يتناول بالبحث والنظر ماشاء من مجالي الطبيعة وأرشده الى انّ الغيب الذى يعلمه الله وحده هو غير مايتوهمه العقل احيانا عند تضاؤله عن ادراك الشيءُ وضعفه عن الوصول اليه

وحبذا لو تنبه الى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين المرء وعقله بغيا من عند أنفسهم وتحكما في الدين وصرفا للأمة عن الاخذ بالعلوم النافعة التي قام بها الآن مجد الامم واصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بعد شاهد العيان برهان

(ومن أخباره) مارواه صاحب الاغاني قال حضرت وفود الانصار باب معاوية بن أبي سفيان فخرج اليهم حاجبه أبو درة فقالوا له استأذن للانصار فدخل اليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ماهذا اللقب ياأمير المؤمنين؟ أردد القوم الى انسابهم . فقال «أي الحاجب» هي كلمة ان مضت عرتهم ونقصتهم والاّ فهذا الاسم راجع اليهم : فقال له «أي عمرو» اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل. فقالها الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم الا الانصار . فنظر معاوية الى عمرو نظرَ منكر فقال له باعدت جدا . فقال اخرج فقل من كان ههنا

من الاوس والخزرج فليدخل : فخرج فقالها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الانصاري وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فمالنا ... نسب نجيب به سوى الانصار

نسب تخيّره الاله لقومنا ... أثقل به نسباً الى الكفّار

ان الذين ثووا ببدر منكمُ ... يوم القَلِيبِ هم وقودُ النار

فقال معاوية لعمرو: قد كنا لأغنياء عن هذا اه

ولا ندري ان كان أراد عمرو بهذا المباعدة بين معاوية وبين الانصار اتماما لمقاصده السياسية فى إغراء مثل الانصار بمعاوية أوهو يريد الحط من قدر الانصار فقط لانهم شايعوا عليّ بن طالب أيام الفتنة خلا النعمان ابن بشير فانه كان من شيعة معاوية يومئذ

(ومن أخباره في استعطاف الخاطر والاعتذار) مارواه محمد بن سعيد عن ابراهيم بن حويطب ونقله فى العقد قال : قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس بعد قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ان هذا الامر الذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الامر بنا وبكم الى ماترى وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنا نقول ليتها لم تكن كانت فانظر فيما بقي بغير ما مضى فانك رأس هذا الامر بعد عليّ فانك أمير مطاع ومأمور مطيع ومشاور مأمون وأنت هو:

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه فى رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل فى العقد خبرا آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاتر والسباب مايدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال

(ومن أخباره فى التقي والانابة) مارواه ابن عساكر عن عمرو بن

شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص كلام فى الوهط (وهو بستان لعمرو بالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن العاص: يال هصيص يسبني المغيرة : فقال له عبدالله ابنه : انالله وانا اليه راجعون أدعوة القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فاعتق عمرو بن العاص ثلاثين رقبة عنها

وطالما كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة لما فيها من تفريق الكلمة والرجوع الى العصبية وقد نهى عنها رسول الله أشد النهي جمعاً لكلمة الامة واستمساكا بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ولكن تهاون الناس بهذه الرابطة الكبيرة فرق بينهم فى المشارب والاهواء والغايات فانقلبت الأمة حربا على بعضها يتجاذبها الامراء أو المتوثبون على الملك تارة باسم الجنسية وأخرى باسم المذهب وآونة باسم الدين حتى أنهكوا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ولا يزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفريق انتحالا توصلا للرياسة ولا سيما فى شبه جزيرة العرب التى تفرق أهلها قدداً وجماعات واصبحوا فوضى مع اهواء الامراء العديدين وقد كانت أحق بان يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس كما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم على كلمة الاسلام فعملوا بقوة اجتماعهم مالم تستطع عمله أمة قط ولكن أين من يعقل والاهواء غالبة والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود والنفوس عن الاتعاظ بما لحق أكثر الثغور العربية من الاحتلال الاجنبي غافلة والله أعلم بعاقبة الامور

وأخرج ابن عساكر عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص ان عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول «ان فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»:

وروي عن ربيعة بن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي بالليل وهو يبكي ويقول: اللهم آتيت عمراً مالا فان كان أحب اليك ان تسلب عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله. وانك آتيت عمرا أولادا فان كان أحب اليك ان تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده. وانك آتيت عمرا سلطانا فان كان أحب اليك ان تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه .

باب

(وفاته وولده)

(وفاته وكلمة مجملة فيه)

قضى عمرو بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت فما قصد غاية الا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها وكان له بين ذلك هنات تغتفر له في جانب جهاده العظيم في فتوح مصر وغيرها ولا يلام على شيء من أمور الفتنة التي انغمست فيها قريش كلها وساقوا الأمة اليها الا بما يلام به سائرهم وانما هو سبقهم باعماله الكبار بالاضافة الى شهرته بالدهاء وحبه للظهور ومهما ترتب على اعماله تلك من النتائج في مستقبل الدولة فانه غير مقصود له بالذات كما أبنا ذلك فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل ان يقر له بثبات الجاش وقوة الارادة وصدق العزيمة والرأي وانه من رجال الاسلام العظام وحسبه انه كان من اعوان عمر بن الخطاب وامرائه الكبار وعمر رضي الله عنه لا يضع ثقته بغير الا كفاء كما هو معروف عنه ونحن

لا نشك كما لا يشك عاقل معنا في ان مما لاقته على علي بن أبي طالب انما كانت لاعراض هذا عنه ولو رغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجده عمر ومعاوية وانما كان علي رضي الله عنه قليل العناية بامثال عمرو من رجال السياسة أولاً لثقته من نفسه وثانيا لكونه يرى سلوك السبيل السوي في القول والعمل خير صاحب ومعين وهو اعتقاد حق لا يعتقد غيره من كان مثل علي بن أبي طالب وفي مرتبته من الفضيلة لكنه رضي الله عنه لم ينظر الى ما اكتنفه من الاحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وان البيئة في وقته صارت غيرها في زمن أبي بكر وعمر ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفعان في كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك في صدقهم وصداقتهم كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع انهم من اعداء الدين

وبالجملة فعمرو بن العاص يعد على حسن بلائه في الاسلام وسلامة يقينه من دهاة الامة في عصره وكبار رجالها الذين افتتحوا الممالك ورفعوا منار الدولة لاسيما وانه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التي فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضي عنه

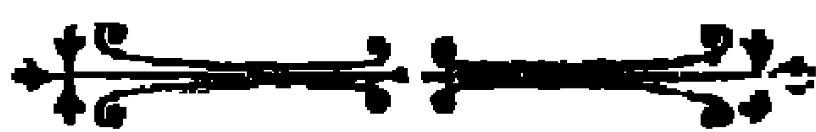
روى ابن عساكر عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في ساعة الموت وولى وجهه الى الحائط وجعل يبكي طويلا فقال له ابنه: ما يبكيك أما بشرك رسول الله (ص) بكذا اما بشرك رسول الله بكذا؟ قال : ثم أقبل بوجهه فقال : ان أفضل ما يعد عليّ شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني قد رأيتني على اطباق ثلاثة : لقد رأيتني وما أحد

من الناس أبغض الىّ من رسول الله (ص) ولا أحب الىّ ان أكون استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار، فلما جعل الله الاسلام فى قلبي أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول ابسط يدك لابايعك فبسط يمينه فقبضت يدي، فقال «مالك ياعمرو» فقلت أردت ان أشترط . فقال «تشترط ماذا» قلت ان تغفر لي ماتقدم . قال «اما علمت ياعمرو ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله؟» فبايعته فما كان أحد أجل فى عيني منه اني لم أكن استطيع ان املأ عيني منه اجلالا له فلو مت على تلك الحال لرجوت ان أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء لاأدري ماحالي فيها فاذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ولا نار فاذا دفنتموني فى قبري فسنوا علي التراب سنا (أي صبوه صبا) فاذا فرغتم من دفني فأقيموا عند قبري قدر ماينحر جزور ويقسم لحمها حتى أعلم ما اراجع به رسل ربي فاني استأنس بكم اه وروى هذا الخبر أيضا من طرق أخرى باختلاف قليل فى اللفظ

وروي عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو ان أباه قال حين احتضر: اللهم انك أمرت بأمور ونهيت عن أمور، تركنا كثيرا مما أمرت ووقعنا فى كثير مما نهيت اللهم لا اله الا أنت: ثم أخذ بابهامه فلم يزل يهلل حتى مات: وفى رواية انه وضع يده موضع الغل من ذقنه ثم قال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا تسعنا الا مغفرتك: فكانت تلك هجراه حتى مات

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين فى خلافة معاوية وهو متجاوز السبعين وقيل انه تجاوز الثمانين ودفن فى المقطم في جهة الفج

وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة . وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد وكان غنياً جداً على ما يظهر من سيرته وقد روى ابن عساكر ان عمراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم فالكرم الذي يحتاج الى خشب بمليون درهم كم تكون غلته هذا اذا صح الخبر. وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع وكان له دور بدمشق منها دار بجيرون ودار في ناحية باب الجابية بين دار البيعادين وزقاق الهاشميين ودار تعرف بدار بني أحيحه أو بني جحيحة في رحبة الزبيب ودار تعرف بالمارستان الاول عند عين الحمى كذا جاء في تاريخ ابن عساكر وقد ذكر المؤرخون من مقدار ثروته مالا يقبله العقل فضربنا صفحا عن ذكره



ولده

ولده عبدالله ومحمد وكان عبدالله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلا فاضلا شجاعا يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلباً للسلامة وتوفي بمكة عن اثنتين وسبعين سنة وله عقب من زوجه عمرة بنت عبيدالله ابن عباس وعمرو بن شعيب وكان سريا ربما قسم في المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفا كما ذكر ذلك ابن قتيبة اه

انتهى الجزء الثالث وهو يشتمل على سيرة أشهر مشهوري الرجال في دولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين . وقد ابطأت باصدار هذا الجزء لمرض ألم بي يقضي علي بتخفيف المطالعة ومراعاة الراحة فارجو

من القراء المعذرة واسأل الله ان يعينني على اتمام الاجزاء التالية انه أكرم مسؤل

أجوبة انتقاد

انتقد علي كثير من أصدقائي ورود خطأ كثير في الجزء الثاني غير ماأصلح فى فهرس الخطأ والصواب واستكثروا أيضا ما ورد فى ذلك الفهرس وعذري فى ذلك ابنته فى آخر الجزء وهو المرض الذي ألم بي فى اثناء كتابة الجزء وعدم تمكني من مراجعته وتصحيحه حتى فى حال الطبع وسأعيد طبعه مصححا مضبوطا ان شاء الله تعالى

وطلب الي بعضهم التوسع فى أخبار الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية والخروج عما شرطته على نفسي فى خطبة الكتاب قائلا بعد كلام طويل (انك مهدت في تاريخك هذا طريقا وعرة للمؤرخين والكتاب فى اطلاق حرية الفكر والقلم من أسر التقليد والقاء الكلام على عواهنه وسرد الحوادث سردا لا تظهر منه حقيقة تاريخ الاسلام . وكما انك السابق بين مؤرخي المسلمين من أهل العربية فى تحكيم العقل في أخبار التاريخ وتتبع مواضع النقد وبيان الاسباب والنتائج على اسلوب قد أشربته العقول وسيكون قدوة لمؤرخي المسلمين وهذا ما نتمناه فانا نسألك ان تقدلنا ذلك القيد الذي قيدت به نفسك فى صدر الجزء الاول ولا تضن بالتوسع فى أخبار الفتن التى أشرت اليها لان التوسع بها وحدها توسع فى تاريخ الاسلام كله) الخ ما قال

وجوابنا عنه اني مع الشكر لحسن ظن ذلك الفاضل بي عترف باني أضعف من خط القلم وكتب في التاريخ وكل ماعلقته على الحوادث من النقد والبيان انما هو نتيجة الجرأة واطلاق الفكر من أسر التحفظ الشديد والا

فان حوادث تاريخ الاسلام مكتوبة فى ثنايا الكتب في أجلى مظاهر الحقيقة اذلم يضن المؤرخون علينا بشيء من غثها والسمين فهم أصحاب الفضل واليهم يساق الثناء جزاهم الله عنا خير الجزاء وما كتبوه من أخبار الصدر الاول يدل على اغراق فى حرية القلم وبيان الحقيقة ماأظننا نستطيع ان نقتفو به أثرهم فى هذا العصر اذا أراد أحدنا ان يكتب تاريخ واحد من الملوك من معاصريه . وانما تجنبوا البحث فى الاسباب والنتائج وتعليق آرائهم الخصوصية على الاخبار لاسباب عديدة لاتخفى على من له وقوف على أحوال المسلمين وشدة ما أوجده علماؤهم من الارتباط الشديد بين الدين والسياسة حاشا المعتزلة والشيعة فانهم علقوا على أخبار الصدر الاول أفكارهم الخصوصية لكن من جهة دينية لا من الجهة الاجتماعية والسياسية وغلوا فى ذلك غلوا شديدا ولاسيما الشيعة حتى ظهر التحامل على كلامهم ظهوراً لم يبق له ادنى اعتبار عند من سواهم ولله در امام المؤرخين وفيلسوف العمران العلامة ابن خلدون الذي سبق كل كتاب المسلمين والمؤرخين باستقصاء فلسفة التاريخ فى مقدمته الشهيرة فكان خير قدوة لمن كتب ويكتب بعده فى هذا الباب سواء من أهل المشرق أو من الافرنج الا انه افرد آراءه الخصوصية بمقدمة تاريخه المشهورة ولم يأت بها فى غضون التاريخ فخالفته فى هذه الطريقة لما يترتب على الاتيان بالشواهد فى محلها ومحاكمة الخبر عند ايراده من الاثر النافع فى النفوس وان أكن انا وأمثالي عالة عليه لاندرك له شأوا فى الآراء العالية والمذاهب الصحيحة واني يدرك الظالع شأو الظليع

واني لما رأيتني أشعر بالحاجة الى التوسع فى تاريخ الصدر الاول كما

شعر بها ذلك الفاضل تبسطت فى بعض المواضع من هذا الجزء أكثر مما اشترطته على نفسي مراعيا فيما قلت ونقلت جانب الادب وحسن الاداء الواجب على المؤرخ الذي لاغرض له مع شخص بعينه أو فريق مخصوص وانما غرضه بيان الحق وتوخي الحقيقة فان أخطأت في شيء مما قلت فاستغفر الله منه وانما هو رأي أبديه فلا يؤاخذني المخالفون لي في هذا الرأي لاني مؤرخ لا متكلم ولا جدلي ولا فقيه. وسألم فى بقية الكلام على الصدر الاول بشيء مما بدأت به رغم تكافي تجنب الخوض فى أخبار القوم وأراعي على قدر الامكان ماأخذته على نفسي من التأدب وعدم الاسترسال فى النقل اجابة لرغبة الراغبين والله الموفق والمعين

وطلب مني فاضل من أفاضل بيروت ان أوفق بين مانقلته فى الصفحة ٨٦ من الجزء الاول من قول أبي بكر رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت أكبر مني وأكرم وأنا أسن منك: وبين ما نقلته فى الصفحة ١٣٧ من أن أبا بكر توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة مع ان من الثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة فيكون أكبر سنا من أبي بكر بما يوازي مدة خلافته بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهي سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام

والجواب عن هذا ان التوفيق متعذر فى الحقيقة مالم يثبت ان أبا بكر توفي وله من العمر أكثر من ثلاث وستين والاكثر على انه لم يتجاوز هذا السن واما رواية يزيد بن الاصم فهكذا نقلها السيوطي عن أحمد وابن عساكر ولكن جاء فى رواية أخرى لابن أبي شيبة ولابن عساكر أيضا ان الذي سئل وأجاب هو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر

وتنبيه المنتقد الى ما نبهنا اليه يرجح ان الرواية الثانية هي الاصح وقد كنت قصدت ان أشير في هامش الكتاب الى هذه الرواية لما ذكرت الرواية الاولى فأنسيت على ذلك فللمنتقد الشكر على التنبيه لهذا الامر

وانتقدت على مجلة المقتطف الغراء اختصاري في الكلام على فتح مصر في الجزء الثاني مع اني ذكرت في نفس الفصل الذي كتبته ثمة عن فتح مصر ان فتحها لما كان عن يد عمرو بن العاص فقد دعاني ذلك لترك الاستفاضة في الكلام على فتحها الى سيرة عمرو والظاهر ان المنتقد لم ير تلك الجملة لهذا أخذ علي ذلك الاختصار وقد بسطت الكلام على فتح مصر في هذا الجزء بسطاً أرجوي أن يكون وافيا بالغرض

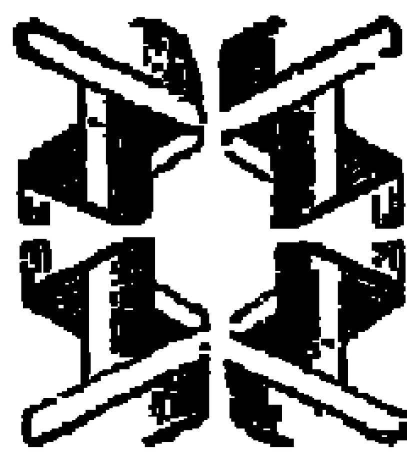
وانتقد علي المقتطف أيضا انكارى على المتأخرين ذكرهم خبر خالد ابن الوليد ولحاقه بأهل دمشق وقتلهم وجزمي بأنه خبر باطل لم يرد في تاريخ من التواريخ الاسلامية الصحيحة فرأى المقتطف انه ورد في تاريخ اسلامي وهو فتوح الشام المنسوب للواقدي واني نقلت عنه أخبار فتح الشام فكيف أنكر هذا الخبر وعيّن الصحف التي ورد فيها ذلك الخبر من الكتاب المذكور ولعل الكاتب الفاضل لم يساعده الوقت على قراءة ماقلته في افتتاح الكلام على فتح دمشق من اني نقلت أخبار الفتح عن تاريخ الطبري فلو قرأ ذلك الفصل برمته وطبق ماأوردته عن أخبار فتحها على الطبري لوجده منقولاً عنه حرفاً بحرف . ولعله لم يستقص أيضا الفصل الذي ورد تحت عنوان (بطلان خبر) كله ولم ير ما قلته فيه « من ان ذلك الخبر لم ينقله أحد من ثقات المؤرخين من المتقدمين فربما يكون نقله المتأخرون عن كتب القصاصين كفتوح الشام وأمثاله) ولو قرأ هذه الجملة لما استند في تأييد

الخبر على فتوح الشام الذي وهنت خبره فى نفس الفصل واني مع شكرى للمقتطف على اعطائه كتابي نصيبا من الانتقاد وحظاً من العناية التي تدل على احلاله منه محل القبول استسمح كاتبه الفاضل من أخذي عليه اعتماده كتاب فتوح الشام من التواريخ الوثيقة مع انه كتاب من كتب المغازي والقصاصين التي لم يعرف واضعوها الى الآن وانما نسب هذا الكتاب الى الواقدي لكثرة ماعرف عن الرجل من رواية الاخبار، هذا من وجه ومن وجه آخر فان الثقات من أهل الاخبار والمحدثين يوهنون رواية الواقدي فلو فرض صحة نسبة الكتاب اليه فانه عندنا غير موثوق ولنا مندوحة عنه بمثل تاريخ الطبري الذي هو أعظم تاريخ كتب فى القرون الاولى ويتلوه غيره من كتب التاريخ الوثيقة وكلها لم تذكر ذلك الخبر : وفى كل حال أشكر مجلة المقتطف التي أخذت بانتقاد كتابي دون كثير من المجلات التي كنت أتمنى لو تحذو حذو المقتطف الاغر لما فى ذلك من التعاون على استجلاء الحقائق التي هي مرامي أفكار الباحثين : انتهى الجزء الثالث بحمد الله



فهرست

الجزء الثالث من أشهر مشاهير الاسلام



﴿ فهرست مالم يصحح في الجزء الثاني من الغلط وماوقع في هذا الجزء ﴾

تابع الجزء الثاني

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٨٥	٦	زراح	رزاح
١٨٧	٨	المشهورين	المشهورون
١٩٢	١٠	ويؤتم	وييتم
٠٠٠	١٥	الخطاب	بن الخطاب
١٩٣	٥	وهب	وهبا
١٩٧	١	المتين	الامين
١١٤	١٩	الاخا	الاخاء
٢٢١	١٨	عمر	عمرو
٢٢٠	٢٠	والجنسين	والجنسان
٢٣٥	٤	مجدون	مجدين
٢٣٩	١٧	لافمن	فمن (ولا) زائدة
٢٤٦	١١	تنفرج	تنفرّج
٢٥٠	٢٠	حضروه	حضوره
٢٦٥	١٦	أأقليم	أأقلائم
٢٧٥	٨	وانتهب	وانّهت
٢٨٨	٢	التالف	التآءلف
٠٠٠	١١	عن عن	عن
٣١٩	٢٠	ودانقين	ودانقان
٣٢٠	١٩	لنا ذنوبنا	لنا ولاخواننا
٣٤٥	١٩	أباه	أبوه
٣٦٥	١٨	أذا	اذ
٣٦٦	١	أمرا	أمر

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٤١١	١٦	ومروأته	ومرؤته
٤١٢	١٨	التجهد	التهجد
٤١٨	٢١	لما	لم
٤٢٠	١٤	اذ لم	اذالم
٤٢٧	١٢	فافصي	فافضي
٤٢٨	١٧	الرفاه	الرفاهة
٤٣١	٣	كفايته منه	كفايته منها
٤٣٩	١٤	حجرا	جحرا
٤٤٠	١	وسنيشير	وسنشير
٤٤٨	١٣	تخيلا	بخيلا
٤٥٥	٢١	متعبة	متبعة
٤٦٠	٢٦	اذ	اذا
٤٦٨	١٢	واستجاب	واستجلاب

تابع هذا الجزء

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
٥١٦	١٩	لابي عيد	لابى عبيدة
٥١٩	١٢	ابن	بن
٥٨٩	١٦	وقد عقب	وقدرتب
٥٢٠	٤	اللهتائبا	اللهالاتائبا
٥٤٧	٢	الروم	الردم
٥٥٠	٦	فافتلوا	فاقتلوا
٤٤٤	١٠	الغربية	الغريبة
٥٥٩	١٢	وهناعلىالامةوهونا على الامة وهونالها	وهناعلىالامة وهونالهـا
٥٦١	٤	الشهرة	الشهوة

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥٧٣	٦	بمسلمه	بمسيلمة
« « «	١٣	كمان	كان
٥٩١	٢١	لرمي	الرومي
٥٩٢	٤و٥	استجيت	استحييت
٥٩٤	١	لاخرق	الاخرق
« « «	٦	فى	بقى
٥٩٤	٢٠	الغربة	الغريبة
٥٩٦	١٦	فوقه من	فوقه من المناصب
٥٩٨	٢١	اهداها	واهداها
٦٠٤	١٠	عمر	عمرو
« « «	١٦	الجرية	الجمة
٦٢١	٤	كانهزام	كانهزم
٥٣١	٦	بلي	بعلي
٦٣٣	٤	والتناقصي	والتناهي
٦٣٦	٤	اثبت	أتيت
٦٣٨	٤	فقال الله	فقال ياعبدالله
« « «	٧	يكايده	يكايده فيه
« « «	١٥	استكثر طعمة	استكثر مصر طعمة
« « «	٢٠	خديج	حديج
٦٤٠	١٩	أوما	واما

كتاب أشهر مشاهير الإسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الرابع من المجلد الأول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

وهذا الجزء يتضمن سيرة عثمان بن عفان

ومن اشتهر في دولته

مطبعة هندية بشارع المهدي بالأزبكية بمصر

سنة ١٣٢٢ هـ و ١٩٠٥ م

عثمان بن عفان

باب

﴿ حاله في الجاهلية ﴾

(نسبه وأصله)

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميـة بن عبد شمس بن عبـد مناف بن قُصَيّ القرشي الأموي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم في عبد منـاف يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو كنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما ولد في السنة السادسة بعد الفيل أمه اروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي وأمها البيضاء ام حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ صناعته ومكانته في قومه ﴾

كان عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك في صدر الجزء الاول وقدم الشام مرة في تجارة في رواية لابن عساكر وكان غنياً كريمـا حسن الشيمة محببا في قومه مأمونا عندهم محترما لديهم يدلك عليه ما أخرجه ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان في قريش محببا يوصون اليه ويعظمونه وان كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهي تقول

أحبك والرحمن　　　حبّ قريش عثمان

باب

اسلامه وصحبته

(أسلامه)

كان أسلامه بدعوة أبي بكر رضي الله عنه وكان لابي بكر نظر واختبار ومعرفة برجال قريش واخلاقهم وكان لقريش ثقة به وركون اليه ولعله بنقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة العناد والمكابرة دعاه الى الاسلام هو والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله كما في اكثر كتب الاخبار والحديث فاجابوه واسلموا فكانوا من السابقين الاولين الذين لهم فضل السبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع اساس التوحيد الذي هدم بعدد اركان الوثنية واستفاض نوره في ارجاء الارض وكان لعثمان رضي الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للاسلام ومعاضدة نبيه عليه الصلاة والسلام كما سترى بعدُ

لا ريب في ان الاسلام انما قام بقوّة الهية وروح عالية اودعت فيه وجعلته سهلاً مقبولاً لدى العقول حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمنعنا ان نقول ان النفر الذين سبقوا الى تلقيه كانوا دعامة الاسلام وممهدي طريقه وناصري دعوته والقدوة الصالحة للعرب في اتباعه لما انهم من اخيار قريش ووجوه العرب وصريح ولد اسماعيل لذا اثنى عليهم القرآن وقربهم منه النبي عليه الصلاة والسلام ومما رواه ابن الاثير في أسد الغابة عن ابن عباس ان قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الآية نزلت في عشرة: أبي بكر: وعمر: وعثمان: وعلي: وطلحة: والزبير: وسعد: وعبد الرحمن بن عوف: وسعيد بن زيد: وعبدالله بن مسعود: ومن قرأ تاريخ النبي محمد

صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بامعان علم فضل عثمان واخوانه من السابقين رضوان الله عليهم بسبقهم للاسلام وقيامهم باعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة مع ما يعهد من امر كل دعوة من البطء في السير والمناهضة التي تلقاها من اسراء العوائد والتقليد في كل الأمم فجزاهم الله عن الامة الاسلامية خير الجزاء

(صحبته)

كان في صحبته محبوبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما عنده عزيزاً عليه فحباه من كرامة المصاهرة بابنتيه بما يغبط عليه تكريما له وتقديراً لحسن بلائه في الاسلام واخلاصه في تأييد الدعوة ومبادرته لتلقي كلمة التوحيد فقد روى ابن الاثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما من المحدثين واهل الاخبار ان عثمان لما اسلم زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبنته رقية (وفي رواية السيوطي انه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية في السنة الثانية من الهجرة يوم ظفر رسول الله بالمشركين في وقعة بدر وكان عثمان (رض) تخلف في المدينة لاجل تمريضها فضرب له رسول الله (ص) بسهم فعد لذلك بدرياً وان لم يحضر وقعة بدر ثم زوجه بعدها بأبنته أم كلثوم ولذا سمي ذا النورين اي لانه كان ختن رسول الله على بنتيه وتوفيت أم كلثوم في السنة التاسعة من الهجرة فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو انّ لنا ثالثة لزوجناك وهذا يدل على مكانته عنده وثقته به وحبه له

ويحق له ان يرى من نبيه مثل هذا التفضل لتغاليه في طاعته واداء واجب الصحبة له وصبره بين يديه على المكاره واستمساكه بعروة الاسلام وبذله ماله في سبيله وتحمله الاذى من اجله ومن ذلك ما اخرجه ابن سعد

عن محمد بن الحارث بن ابراهيم التيمي قال : لما أسلم عثمان بن عفان اخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطا وقال ترغب عن ملة آبائك الى دين محدث والله لا أدعك ابداً حتى تدع ما انت عليه . فقال عثمان والله لا أدعه ابداً ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه :

ولما رأى انّ اضطهاد قريش له واقع لا محالة وانّ الفرار بدينه أسلم هاجر الى الحبشة مع رقية بنت رسول الله (ص)فكان أول من هاجر ففي رواية عن أنس قال : اول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي (ص) صحبهما الله انّ عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط: ثم هاجر الهجرة الثانية الى المدينة

ومما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله وفي منفعة المؤمنين تجهيزه جيش العسرة بالف بعير فقد نقل في الاستيعاب عن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على الف بعير وخمسين فرسا ونقل في رواية أخرى انه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الالف بخمسين فرسا وجيش العسرة كان في غزوة تبوك

واخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان الى النبي(ص) بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول ـ ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ـ مرتين

ومن هذا القبيل ايضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبدالبر في الاستيعاب ان بئر رومة كانت ركية ليهودي يبيع المسلمين ماءها فقال رسول الله (ص) : من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب في الجنة فأتى عثمان

اليهودي فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها فاشترى نصفها باثني عشر الف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان (رض) ان شئت جعلت على نصيبي قرنين(١) وان شئت فلي يوم ولك يوم: قال بل لك يوم ولي يوم. فكان اذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين فلما رأى ذلك اليهودي قال أفسدت عليّ ركيتي فاشترِ النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم (٢)

ومن هذا القبيل ايضاً زيادته في مسجد رسول الله (ص) من ماله وذلك ان رسول الله (ص) قال: من يزيد في مسجدنا: فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده في المسجد. هكذا ذكره ابن عبد البر ورواه غيره بهذا المعنى او ما يقرب منه

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الاعمال جميل الصحبة حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين لهذا اجل النبي (ص) قدره ونوه باسمه وقد وردت عن النبي (ص) احاديث كثيرة تشهد بفضله فليراجعها من احب في كتب الحديث وحسبه انه احد العشرة الكرام حواري النبي عليه الصلاة والسلام واحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى واخبر ان رسول الله توفي وهو عنهم راض واحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطي قال ابن عباد: لم يجمع القرآن من الخلفاء الا هو والمأمون: وقد شهد مع النبي (ص) بعض المشاهد وكان يستخلفه على المدينة في بعضها ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان لان هذه كانت من اجله وذلك لما ارسله رسول الله الى اهل مكة رسولاً ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بان عثمان

---

(١) حبلين (٢) وفي بعض الروايات ان عثمان هو الذي حفر بئر رومة

قد قتل فجمع اصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال اهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بان عثمان لم يقتل وهذا يدلك على مكانته عنده وحبه له

اخرج الترمذي عن انس قال. لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله الى اهل مكة فبايع الناس فقال النبي (ص) : ان عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله . فضرب باحدى يديه على الاخرى فكانت يد رسول الله (ص) لعثمان خيراً من أيديهم لانفسهم :

باب

(خلافته والشورى وكلمة في البيعة او الخلافة والدين)

كلمة في الخلافة والدين

علم القارئ مما بسطناه في الجزء الاول والثاني عن كيفية استخلاف ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وبيعتهما ان الاولى اعتدها عمر فلتة وقى الله المسلمين شرها لانها لم تكن شوري بين المسلمين ومع ذلك فقد رضيها المسلمون أتم رضى ولم يخالف على أبي بكر احد من الصحابة ورضي بها من خالف ولو بعد حين . وانّ الثانية تمت لعمر بعهد من أبي بكر ثم برضا الامة وانّ عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً ويؤخذ من مجمل مانقلناه بهذا الصدد ان البيعة وان كان يتوقف عقدها على رضى الجمهور الا انها لم تأسس على قاعدة محض الاختيار اعني اختيار الامة او من ينوب عنها من اهل الحل والعقد ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الاسلامية اقرب للجمهورية منها للملكية وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحد الى آخر على شرط تقيد الامير بقانون الشورى لكان اسلم عاقبة وأسد

لذرائع الخصام والانقسام كما قال ذلك معاوية بن ابي سفيان لابن حصين حين وفد عليه (١) ولكن لما لم تكن كذلك واخذ اصل البيعة شكلاً بين شكلين شكل الشورى وشكل الاستبداد او شكل الاطلاق والتخصيص تولدت في ثنايا الخلافة جراثيم النزاع حتى افضى الامر بعدُ الى التغالب والغالب بالضرورة قهار قلما يراعي اميال الامة وتحري قاعدة الشورى التي نوَّه بمحاسنها الشرع فلا جرم ان تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها الى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الاسلام غالب للمسلمين على امرهم كما حصل بعدُ وكان سبباً عظيماً لكمون الضعف في ثنايا القوة المريعة التي قامت بها دول

(١) قالوا ان زياد بن ابيه اوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة فقال له يابن حصين قد بلغني ان عندك ذهناً وعقلا فاخبرني عن شيء اسألك عنه. قال سلني عما بدالك قال اخبرني ما الذي شتت امر المسلمين وملأهم وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان قال ما صنعت شيئاً . قال فسير عليّ اليك وقتاله اياك. قال ماصنعت شيئاً . قال فسير طلحة والزبير وعائشة وقتال علي اياهم . قال ماصنعت شيئاً. قال ما عندي غير هـذا يا امير المؤمنين . قال فانا اخبرك انه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم الا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر وذلك ان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما امره الله به ثم قبضه الله اليه وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لامر دنياهم اذ رضيه رسول الله (ص) لامر دينهم فعمل بسنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت الى ذلك نفسه ولو انّ عمر استخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف اهـ

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ولكن عمر رضي الله عنه لم يرد فيما صنع الا الخير لانه رأى ان لا يتحمل تبعة الخلافة ميتاً كما تحملها حياً فلم يعهد الى شخص بعينه وخاف ان يتركها لرأي الامة واختيارها فيقع الخلاف الذي اشار اليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضي الله عنه لا يقع

الاسلام حتى اذا آن اوان الراحة والنزوع الى التمتع بجني الاسلام أخذ ذلك الضعف يظهر في كل جزء من اجزاء الامة وفي كل عضو من اعضائها حاكما كان او محكوما حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع :لاوقوف معه: من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التي بلغت في عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة في ابان زهوها

انّ الدول مازالت تقوم وتقعد وتضعف وتقوى والأمم كذلك غاية ما في الامر انّ الضعف اذا تناهى يغير احيانا شكل الأمم كما لو قيل انّ الرومان أخلفهم الطليان وانّ اليونان أخلفهم البزنطيون وانّ هؤلاء أخلفهم الاروام والاصل في الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده في شكل آخر ولو مزيجاً واقام له دولة غير الاولى . وهكذا الشأن في كل أمم المغرب مع ما لاقته من ضروب الشقاء والاستبداد وما انتابها من القوة والضعف فانها مازالت تسقط وتقوم وتعالج انواع الارزاء ،وتحاول بعد الهبوط الى الحضيض العروج الى السماء ،حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذي يرى الآن،وتقمصت في شكل جديد لم ترَ مثله عين الزمان

رب سائل يسأل كيف اذن لم يتلاف المسلمون امر ذلك الضعف واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر في منحدرهم الذي لانهاية له غير الموت والخذلان مع ما يشاهدونه من حال الملل الاخرى التي صار اليها ملك الاسلام. فالجواب عنه ان ذلك الضعف الذي اشرنا الى انه كمن في ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين انما منع المسلمين عن تلافيه بل وألجأهم للاعراض عن معالجته امران : الاول : ما قدمناه من عدم توفر شروط الشورى والاختيار في البيعة بحيث اخذت الخلافة شكلاً ترك ثغرة كبرى للولوج

اليها من طريق القوّة والتغالب فاوجد نزاعا مستمراًمن اجلها في الامةأفضى الى مصير الامر ليد الغالب والغالب لايتقيد بالشورى ولا يجاري رغائب الأمة بالضرورة

والامر الثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لاولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للاخذ على أيدي الرعية وأفواهها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياتا دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة وعقلائها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضية حالة كل عصر سواء كان في حياة الامم السياسية او حياتها الاجتماعية لا سيما بعد ان قالوا بحرمة الاجتهاد و وقفوا عندحد محدود من الفروع وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نموًّا جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام وتعطى بأزمتها الى الامراء والحكام حتى في عصر زال فيه الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للامراء وجوبا دينياً وعرف أكثر عقلاء المسلمين ان الدين لن يكون مانعا من قيام الدول على قاعدة مراعات الاصلح وانما هو تأثر النفوس بحكم العادة المألوفة للاباء أخذ باعنة الابناء الى سلوك سبيل الاقتداء

واعلم ان الشارع جوّز الاجتهاد باحكام المعاملات دون العبادات وهي العقائد والاعمال لان الأولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لانها قطعية واما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا تتناهى . هذا في المعاملات فما بالك بامور الأمة السياسية التي يناط بها قيام الدول لاجرم انها أولى ان تعتبر دنيوية

وان تكون لذلك حياة المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا انّ الكتاب الكريم أمر بالشورى ووعد المؤمنين بالاستخلاف في الارض وانّ في هذا اشارة الى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورية فاستلزم ذلك ان تكون دينية اذ هذه اصول او كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الاحكام الأخرى من جواز الاجتهاد في جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة مع المصلحة الدنيوية . ومقوّمات الحكومة كثيرة لا تحصر في الكليات ولا تختص بزمان او مكان بل هي تابعة للحاجة سائرة مع ترقي الزمان ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لانها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة

لا جرم ان الصحابة عرفوا هذا الاصل فجنح الخلفاء الراشدون منهم الى الشورى في تدبير امور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفتين ما فيه الكفاية وعرفوا انّ لهم ما وراء ذلك الاصل ان يأخذوا بما هو نافع لهم من مقوّمات الملك لانه منوط بالمصلحة التي يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة الدولة فأخذوا اصول الحكومة الادارية عن الفرس كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الارضين واحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ وغير ذلك مما مر بك ذكره في هذا الكتاب وفاتهم ان يأخذوا عن الرومان اصول الحكومات النيابية الثابتة التي تقوم بالتكافل بين افراد الأمة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التي اوجبها الكتاب الكريم وانما أذهلهم عن هذا ان ليس لديهم تاريخ في اصول الحكومات يرجعون اليه وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاوريهم الرومانيين فلجأوا الى اناطة كل شؤون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا

الامر على وجهه حتى جاء عصر كان الامام فيه هو المتسلط على كل شؤون الدولة تسلطاً ملازما لتساطه الديني فكما ان له ان ينيب عنه اماماً في الصلاة فله ان ينيب عنه قاضيا للقضاء وكانت الخلافة لذلك اشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدّى الى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الافكار على مبدأ الخضوع المطلق للامير باعتبار ان الامير رئيس ديني تجب له الطاعة مع التغاضي عما يجب عليه في مقابلها من العدل

انّ اصطباغ المسلمين في حياتهم السياسية بصبغة الدين حوّل الاحزاب السياسية التي تقوم في الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب الى فرق دينية كانت في الاسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين، ومثاله انّ الاحزاب السياسية التي قامت في الصدر الاول لمطلق الغرض السياسي او الانتصار لزيد والاخذ بناصر بكر ما لبثت ان انقلبت الى فرق دينية ومشت الى الانتحال في الدين كالخوارج مثلا فأنهم بعد ان كانوا يذهبون الى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام في امور الدين والدنيا انقلبوا الى نحل دينيــة فرقت شمل المسلمين . وكالشيعة فانهم بعد ان كانوا ينتصرون لعليّ رضي الله عنه لاعتقاد انه أهل للخلافة و يريدونه عليها ولو بالقوّة انقلبوا ايضا الى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوبا دينيا وانفردوا بمذاهب خاصة كلها ترمي الى الدين و بالدين، وكان في غضون ذلك ما كان من الفتن التي انهكت قوى المسلمين، وصبغت بدمائهم اديم الارض باسم الدين . والدولة الاسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق، والتحزب والافتراق، في مركز واحد ومتجهة الى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير الا بتحولها من الشورى

الى الاستبداد مع ان المعهود في الدول التي تنتابها الفتن وتقوم فيها الاحزاب ان ينتاب صبغتها التغيير وتتقلب اشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الاحزاب السياسية في كل زمان

هذا الاجمال ينبئك كيف استحكم داء الضعف في الأمة الاسلامية مع انه عارض قد كان في الامكان تلافيه قبل ان يستحيل الى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها في هذا الوجود وظهر أثره حتى على اعمال المسلمين واخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم بحيث صاروا لا يقبلون اي جديد الا باسم الدين ويرفضون كل امر نافع اذا لم يعرف عن اسلافهم الميتين حتى سبقتهم في مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية وهم يدافعون الخير ويأبون مجاراة الأمم لمطلق التوهم في ان مجاراة السابقين خروج عن الدين وان الاسلام والعياذ بالله قد حرّم كل امر نافع على المسلمين الاّ ما قال بحله شيخ من الشيوخ الماضين، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة في الاولين ولا الآخرين، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة ان الاسلام بريئ مما يزعمون . واليك مثالاً من هذا الهوس الذي جعلوه آلة لهدم تعاليم الاسلام وهم لا يشعرون

قامت في هذه الاثناء فتنة كبرى بين أميرين من امراء نجد وهما يتنازعان الامارة فرأيت بعض نبهاء النجديين ونصحته في تلافي اسباب هذه الفتنة بالانضمام الى الدولة العثمانية قبل ان تمتد الى البلاد يد اجنبية فأجابني ان هذا منى النفوس لكن النجديين يأبون دخول المستحدثات العصرية الى بلادهم ولا سيما نظام الجندية الحديث والدولة العثمانية تريدهم على مثل هذا النظام وهو في نظرهم من الحرام الخ

فانظر يا اخي الى هذه الأمة التي خاضت بخيلها على عهد الفتح الاسلامي شطوط المحيطين وبلغت دولتها من القوّة الحربية مبلغا لم تصل اليه دولة قط كيف بلغ بها الهوس بالدين الى هدم أهم ركن من اركانه وهو الجهاد الذي لا يتم الاّ بالعمل بقوله تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) الآية ومن البديهي ان مبلغ الاستطاعة في هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوّة الاعداء القائمة بنظام الجندية ايضا وترتيبها على هـذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذي ثبت عند كافة الأمم انه خير ما انتهى اليه العقل البشري في استكمال اسباب القوّة وحفظ البيضة والذود عن حياض الملك والاستقلال هذا من وجه ومن وجه آخر فان نظام الجندية الحديثة الذي يراه اولئك القوم من المحرمات له مزية اعداد الامـة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل اعباء الجندية حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الاخلاد الى ظل القصور وهذا خلق طبيعي في العرب فما الذي يدعوهم الى الهروب منه واعتقاد حرمته الاّ ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين على غير علم بانها تهدم بهـذا الهوس اركان الدين، وتنحدر في تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين، وبالاجمال فانّ حياة المسلمين السياسية لمّا لم تقم على اصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياتا دينية ترك فيها القياد الى أمير واحد تناط به كل شؤون الدين والدولة فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما سترى بعدُ وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين في كل شؤونها الدنيوية . على انّ اصطباغ الأمة بهذه الصبغة الدينية وان تأتى عن جعل الحياة السياسية حياةً دينية كما قدمنا الا انّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها الاّ تحري

المصلحة على قدر ما وصل اليه علمهم واجتهادهم وفيما عدا هذا فأنهم لم يحرجوا أنفسهم ولا المسلمين في امور الدولة الادارية وامور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما احرج هؤلاء بعد سوء الفهم وندرة المفهمين اذ الصحابة أخذوا عن مشركي الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ اليه علمهم من الامور النافعة التي هي من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تحرج في الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً في سيرة عمر رضي الله عنه

(خبر الشورى وخلافة عثمان)

نقلنا في الجزء الثاني شيئاً من خبر الشورى عما رواه ابن عبد ربه في العقد ووعدنا باستيفاء البحث في هذا الجزء وقد رأينا روايات كثيرة في خبر الشورى أعدلها لهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبري فآثرنا نقله على غيره من الروايات لوثوقنا باعتدال الطبري وتحريه لأصدق الحديث وقد روى الطبري في أول قصة الشورى ماهو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه انّ عمر رضي الله عنه لما عهد للستة أمرهم بالاجتماع قريبا منه ليتشاوروا فيما بينهم فاجتمعوا وتناجوا ثم ارتفعت اصواتهم فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله انّ أمير المؤمنين لم يمت بعدُ: فأسمعه فانتبه فقال: ألا أعرضوا عن هذا اجمعون فاذا متّ فتشاوروا ثلاثة ايام وليصلِّ بالناس صُهيب ولا يأتين اليوم الرابع الاّ وعليكم أمير منكم ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه أمركم . ومن لي بطلحة: فقال سعد بن أبي وقاص . أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله . فقال عمر ارجو ان لا يخالف ان شاء الله . وما أظن ان يلي الاّ أحد هذين الرجلين . عليّ وعثمان . فان

ولي عثمان فرجل فيه لين . وان ولي عليّ ففيه دُعابة وأحرِ أنْ يحملهم على طريق الحق . وان تولوا سعداً فأهلها هو والاّ فليستعن به الوالي فاني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ـ ونعم ذو الرأي عبدالرحمن بن عوف مسدَّد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الانصاري. يا أبا طلحة انّ الله عزّ وجلّ طالما أعزّ الاسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتىّ يختاروا رجلاً منهم

وقال للمِقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصُهيب صلِّ بالناس ثلاثة ايام وأدخل عليًّا وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة ان قدم وأحضر عبدالله بن عمر ولا شيء له من الامر وقُمْ على رؤسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه او اضرب رأسه بالسيف وان اتفق اربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبدالله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فخرجوا فقال عليّ لقوم كانوا معه من بني هاشم : إن أُطيعَ فيكم قومكم لم تؤمَّروا ابداً : وتلقّاه العباس فقال . عدلت عنا . فقال وما علّمك . قال . قرن بي عثمان وقال كونوا مع الاكثر فان رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لايخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان او يوليها عثمان عبدالرحمن . فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بَلَهَ أني

لا ارجو الاّ (١) احدهما . فقال العباس . لم ادفعك في شيء الاّ رجعت اليّ مستأخراً بما أكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله (ص) ان تسئله فيمن هذا الامر فأبيتَ وأشرت عليك بعد وفاته ان تعاجل الامر فأبيتَ وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ان لا تدخل معهم فأبيت . احفظ عني واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل لا الاّ ان يولّوك واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الامر حتى يقوم لنا به غيرنا . وأَيمُ اللهِ لا ينـاله الاّ بشر لا ينفع معه خير فقال عليّ اما لئن بقي عثمان لاذكرنه ما أتى . ولئن مات ليتداولنّها بينهم . ولئن فعلوا ليجدُنّي حيث يكرهون ثم تمثل

حلفتُ بربِّ الراقصات عشيّةً غدون خِفافاً فابتدرنَ المُحصَبَا
لَيَختَلِيَنْ رهطُ ابنِ يَعْمَرَ مارئاً نجيعاً بنو الشُداخ وِرْداً مُصَلّبا

والتفت فرأى أباطلحة فكره مكانه . فقال أبو طلحة . لم تُرَعْ ابا الحسن .

فلما مات عمر وأُخرجت جنازته تصدّى عليّ وعثمان ايّهما يصلي عليه . فقال عبدالرحمن كلاكما يحب الامْرة لستما من هذا في شيءٍ هذا الى صُهَيْب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثا حتىّ يجتمع الناس على امام : فصلّي عليه صهيب

فلما دفن عمر جمع المِقداد أهل الشورى في بيت المِسوَر بن مَخْرَمه ويقال في بيت المال ويقال في حجرة عائشة باذنها وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحـة غائب وأمروا أبا طلحة ان يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمُغيرة بن شُعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان ان تقولا حضرنا

(١) لعل (الاّ) زائدة اذ الظاهر ان ليس معه احد يستثنيه هنا فليحرر

وكنا في اهل الشورى .

فتنافس القوم في الامر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة. انا كنت لأن تدافعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أُمرتم ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون

فقال عبدالرحمن ايكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على ان يوليها افضلكم فلم يجبه أحد فقال . فأنا انخلع منها . فقال عثمان انا أول من رضي فقد سمعت رسول الله يقول (امين في الارض أمين في السماء) فقال القوم قد رضينا وعليّ ساكت . فقال ما تقول يا أبا الحسن . قال اعطني موثقاً لتؤثرنّ الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رَحِم ولا تألو الأمة

فقال اعطوني مواثيقكم على ان تكونوا معي على من بدّل وغيرّ وان ترضوا من اخترت ولكم عليّ ميثاق الله ان لا أخص ذا رَحِم لرَحِمِه ولا آلو المسلمين : فاخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعليّ انك تقول اني أحق من حضر بالامر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ولكن أرأيت لو صرف هذا الامر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط احقّ بالامر؟ قال عثمان . وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله (ص) وابن عمه لي سابقة وفضل فلن يصرف هذا الامر عني . ولكن لو لم تحضر فايّ هؤلاء الرهط تراه أحقّ به؟ قال . عليّ . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان . ثم خلا بسعد فكلمه . فلقي عليّ سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تَسَاءَلونَ بهِ والارحامَ انّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً : اسئلك برحم ابني هذا من رسول الله

(ص) وبرحم عمي حمزة منك (١) ان لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً عليّ فاني أُدلي بما لا يُدْلي به عثمان .

ودار عبد الرحمن لياليه يلقى اصحاب رسول الله (ص) ومن وافى المدينة من امراء الاجناد واشراف الناس يشاورهم . ولا يخلو برجل الاّ أمره بعثمان حتىّ اذا كانت الليلة التي يُستكمل في صبيحتها الاجل أتى منزل المِسْوَر بن مَخْرمة بعد ابهيرار (٢) من الليل فأيقظه فقال . الا اراك نائماً ولم اذق في هذه الليلة كثير غُمْضٍ انطلق فادعُ الزبير وسعداً . فدعاهما . فبدأ بالزبير في مؤخرّ المسجد في الصُفَّة التي تلي دار مروان . فقال له خلِّ ابنَيْ عبد مناف وهـذا الامر : قال نصيبي لعـلي ّ . وقال لسعد اذا وانت كلالة (٣) فاجعل نصيبك لي فأختار . قال ان اخترت نفسك فنعم وان اخترت عثمان فعليٌّ أحبُّ اليّ . أيّها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤسنا . قال يا أبا اسحق اني قد خلعت نفسي منها على أن اختار ولو لم أفعل وجُعل الخيار اليّ لم أُردها اني أُريت كروضة خضراء كثيرة العُشْب فدخل فحل لم ارَ فحلاً قـط اكرم منه فمرّ كأنه سهم لا يلتفت الى شيءٍ مما في الروضة حتىّ قطعها لم يعرّج . ودخل بعير يتلوه فاتّبع أثره حتىّ خرج من

(١) قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعد هي ان أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي ايضا أم المقوّم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هؤلاء اربعة بنو عبدالمطلب من هالة وهالة هذه هي عمة سعد بن أبي وقاص فحمزة اذن ابن عمة سعد وسعد ابن خال حمزة

(٢) اي بعد انتصافه

(٣) الكلالة بنو العم الأباعد

الروضة ثم دخل فحل عبقريّ (١) يجرّ خطامه (٢) يتلفت يميناً وشمالاً ويمضي قصد الأوّلين حتىّ خرج ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة ولا واللهِ لا اكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضي الناس عنه قال سعد . فاني اخاف ان يكون الضعف قد ادركك فامضِ لرأيك فقد عرفت عهد عمر

وانصرف الزبير وسعد وارسل (اي عبدالرحمن) المسوَر بن مخرمة الى عليّ فناجاه طويلاً وهو لا يشك انه صاحب الامير ثم نهض . وأرسل المسور الى عثمان فكان في نجيهما حتىّ فرّق بينهما اذان الصبح . قال عمرو ابن ميمون قال لي عبدالله بن عمر يا عمرو من أخبرك انه يعلم ما كلم به عبدالرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان

فلما صلوا الصبح جمع (عبدالرحمن) الرهط وبعث الى من حضره من اهل السابقة والفضل من الانصار وامراء الاجناد فاجتمعوا حتى التج (ازدحم) المسجد بأهله فقال . ايها الناس انّ الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الامصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد انّا نراك اهلاً لها . فقال أشيروا عليّ بغير هذا فقال عمّار ان أردت ان لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الاسوَد صدق عمّار ان بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبي سرح ان اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبدالله بن أبي ربيعة صدق ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتم عمّار ابن أبي سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو

---

(١) العقبري القوي

(٢) الخطام أي الزمام

أمية . فقال عمّار ايها الناس انّ الله عزّ وجلّ أكرمنا بنبيه وأعزّنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الامر عن اهل بيت نبيكم . فقال رجل من بني مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سُمّية وما أنت وتأمير قريش لانفسها . فقال سعد بن أبي وقاص يا عبدالرحمن افرغ قبل ان يفتتن الناس . فقال عبدالرحمن اني قد نظرتُ وشاورت فلا تجعلُنّ ايها الرهط على انفسكم سبيلا . ودعا علياً وقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعليّ . قال نعم . فبايعه فقال علي حبوته حبو دهر ليس هذا اول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفون) والله ما وليت عثمان الاّ ليرد الامر اليك واللهُ كلّ يوم هو في شأن . فقال عبدالرحمن يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول . سيبلغ الكتاب أجله . فقال عمّار يا عبد الرحمن اما والله لقد تركته وانه من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون . فقال يا عمار والله لقد اجتهدت للسلمين . قال ان كنت اردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما اوتي الى أهل هذا البيت بعد نبيهم اني لاعجب لقريش انهم تركوا رجلا ما اقول انّ أحداً اعلم ولا أقضى منه بالعدل أما والله لو أجد اعوانا

فقال عبدالرحمن يا مقداد اتق الله فاني خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله مَن أهل هذا البيت ومَن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبدالمطلب والرجل عليّ بن أبي طالب . فقال عليّ انّ الناس

ينظرون الى قريش وقريش تنظر الى بيتها (وفي نسخة تنظر في صلاح شأنها) فتقول ان ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم ابداً وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكلّ قريش راض به . قيل نعم فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك ان أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكلّ الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا ارغب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه .

وقال المغيرة بن شعبة لعبدالرحمن يا أبا محمد قد أصبتَ ان بايعتَ عثمان . وقال لعثمان لو بايع عبدالرحمن غيرك ما رضينا . فقال عبدالرحمن . كذبت يا أعور لو بايعتُ غيره لبايعته ولقلتَ هذه المقالة

وكان المسور بن مخرمة يقول . ما رأيت رجلاً بذّ (١) قوماً فيما دخلوا فيه بأشدّ مما بذّهم عبدالرحمن بن عوف

هذا ما رواه الطبري في تاريخه عن خبر الشورى وقد اورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم في الرواية الأولى الاّ انه اورد فيها ما دار من الخطب بين اهل الشورى مما لم نرَ حاجة لا يراده خوف التطويل وزاد فيها ان عبدالرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر فقعد عبدالرحمن مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه وتلكأ عليّ فقال عبدالرحمن (ومن نكثَ فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدَ عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً) فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيما خدعة . قال وانما سبب قول عليّ خدعة . انّ

(١) اي غلبهم

عمر بن العاص كان قد اتى عليا في ليالي الشورى فقال انّ عبدالرحمن رجل مجتهد وانه متى اعطيته العزيمة (١) كان أزهد له فيك ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك . قال . ثم لقى عثمان فقال انّ عبدالرحمن رجل مجتهد وليس والله يبايعك الاّ بالعزيمة فاقبل : قال فلذلك قال عليّ . خدعة :

واختلفوا في اليوم الذي بويع فيه عثمان ففي رواية للطبري انه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ وفي رواية أخرى له ايضا ان عثمان استخلف لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ فخرج فصلى بالناس العصر ولعله الاصح

(هل هناك تحامل على علي)

هذا ما أورده الطبري من قصة الشورى وانت ترى من ظاهر هذه القصة ان القوم ربما تحاملوا على علي رضي الله عنه بصرف الخلافة عنه الى عثمان رضي الله عنه والذي اعتقده ان قريشا وان كانت لا تريد استخلاف عليّ لاسباب سيأتي بيانها الاّ ان الخلافة من أبي بكر الى عثمان ثم علي ترتيب طبيعي اتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين والثابت عندهم من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير الى مثل هذا الترتيب(٢) في المقام والدرجة التي وضع كلا منهم فيها رسول الله (ص) وعليّ

(١) اي متى اسرعت بالتسليم لما يشترطه عليك

(٢) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر . وأشدهم في أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان واقضاهم عليّ الخ . اخرجه ابو يعلى عن ابن عمر ورواه احمد والترمذي عن أنس لكن ليس فيه عليّ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتبئا فقل له انّ النبي يقرأ عليك السلام ويقول ابشر بالجنة وانطلق الى عمر ..... وانطلق

نفسه يعرف ذلك ويعترف به فقد اخرج الحافظ بن عساكر في تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حُرَيث وعن شُرَيح القاضي انهما سمعا عليّ بن أبي طالب يقول (ألا انّ خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . ثم عمر . ثم عثمان) واخرج هذا الحديث الامام احمد وقال الذهبي انه متواتر : كما ان اخلاق الاربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم للخلافة في العصر الذي استُخلف فيه ليس باعتبار ان كل واحد أفضل من الآخر او آهل منه كلا بل ان لكل واحد منهم خصالاً فاضلة تجعله اهلاً لذلك المنصب لكن في الوقت الذي أُسند فيه اليه فأبو بكر لما كان رجلاً مسناً طويل الاناة رؤف القلب وله في النفوس هيبة الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة اليه والاسلام غضا طريًا والايمان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية والاعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء في محله وملافات المرض بطبيبه يدلك عليه قول بن مسعود الذي مر معنا في اخبار الردة (لقد قمنا بعد رسول الله (ص) مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان مَنَّ الله علينا بأبي بكر الخ) وابن مسعود انما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبي بكر (رض) يومئذ وحسب

الى عثمان ... الحديث واخرجه بن أبن عساكر في تاريخه

ومنها ما رواه البخاري عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله (ص) فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان وزاد الطبراني في الكبير فيعلم بذلك النبي (ص) ولا ينكره ومثله ما اخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفينا رسول الله (ص) نفضل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا . وقد ورد كثير من مثل هذه الاحاديث ولا سيا ما يشير منها الى ما يحصل لعثمان وعلي وما يكون من الفتنة في عصرها وكلها تشير الى هذا الترتيب فلتراجع في مظانها من كتب الحديث

العاقل ان ينظر في سيرة أبي بكر واخباره مع اهل الردة وتأنيه في مثل تلك الخطوب التي استقبلها بعد وفاة النبي (ص) المسلمون فيعلم ان كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبي بكر رضي الله عنه

استخضع أبو بكر اولئك الخارجين بالحرب واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالاحسان اليهم والصفح عن مسيئهم وألان جانبه للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ولما تمهد لهم طريق الفتح وفتح امامهم باب مستقبل سعيد تولد في النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ونفث فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الاسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الاعراب فاحتيج الى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشتد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفا بالشدة والارهاب حائزا لهذه الشروط فعهد اليه أبو بكر بالخلافة وهي له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعهد اليه بها أبو بكر والذي يراجع ما كتبناه من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان في حاجة الى مثله تسوق الخلافة اليه سوقاً ثم لما كان عمر شديداً بطبعه ميالاً الى التقشف والقصد وقد أخذ على شكائم النفوس اخذاً ضيّق في وجوه القوم مذاهب التبسط في العيش والتطلع الى كل رغائب النفوس مع اقبال الدنيا عليهم ومصير ذلك الملك العريض اليهم احتاجوا بعده الى سائس يبسط اليهم كف العطاء. ويلين لهم جانب العقوبة. ويطلق يدهم في جنى ثمرات النصب في ذلك الفتح. وينشر عليهم جناح الرأفة. وكان المترشحون للخلافة من الستة هما عثمان وعليّ. وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد واناة الشيخوخة

كما كان عليّ معروفا بالشدة وحب القصد كعمر بن الخطاب اتجهت رغائبهم الى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة ايضا لهذا رأينا كل من استشاره عبدالرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا الى هذا بسائقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد باهلية عثمان يدلك عليه ما رواه بن سعد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود انه قال لما بويع عثمان (أمرّنا خير من بقى ولم نأل) فاذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضي الله عنه وهـذه شهادة ابن مسعود له مع انه ممن ضربهم عثمان ونقم منه فيمن نقم لاجل هذا فليس هنالك شيء من التحامل كما يتبادر الى ذهن القاريء من قصة الشورى . وما روي في تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو اذا صح وما اخاله صحيحا فانما هو بمحض رأي عمرو لا يد لعبدالرحمن رضي الله عنه فيه وعمرو سيق الى هذه الرغيبة كما سيق اليها غيره من المهاجرين والانصار لا سيما وانه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرته في ماله كما رأيت في سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل الى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعليّ لشدته

وهكذا يقال ايضاً عن عليّ في خلافته وانه استخلف في الوقت الذي كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن في طرق الاستمتاع وتفلت بل وأفلتت فيه من قيد الرهبة الذي قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة واكبح لجماح النفوس من استخلاف عليّ (رض) لما عرف به من الشدة والورع وحب القصد مع بلوغه السن الذي يؤهله لهذا المنصب الرفيع

وقد ذهب بعضهم الى انّ علياً ضعيف الرأي لهـذا غلبه على الخلافة

الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضي الله عنه له (لم أدفعك في شيء الاّ استأخرت اليّ بما أكره) الى آخر الخبر الذي مرّ في قصة الشورى واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع في الحكم لا نصيب له من التأمل فيما اكتنف علياً رضي الله عنه من الاحوال والبواعث التي بسطناها للقارئ وانما كان هذا الترتيب في الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعي كما رأيت فماذا ينفع فيه الراي والحيلة لا سيما وانّ علياً رضي الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمساك بالفضيلة لا ينزع الى خدع السياسة وليس هذا وأيم الحق بعيب يعاب به مثل عليّ وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور اذا لم يلجأ الى الحيلة في بعض الاحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه

وجملة القول انّ ما رويَ من الصحابة من صرف الخلافة عن عليّ او التنحي عن نصرة بني هاشم في كثير من الاحوال وان كان فيه شيء من الخوف من سيادة بني هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ثم استئثارهم اذا صارت الخلافة اليهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار الى هذا عليّ في خبر الشورى واشياء أخرى سنأتي على ذكرها في غير هذا المحل الاّ انهم كانوا مسوقين الى ذلك ايضا باحكام الضرورة ودواعي الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهور في بعض الاحيان وهذا ما أراه موافقاً للحقيقة في هذه المسئلة والله أعلم بما وراء ذلك

(اول اعماله في خلافته)

لما بويع عثمان رضي الله عنه خطب الناس خطبة غراء في الوعظ ستأتي في باب خطبه وقيل أُرتج عليه لما أراد ان يخطب فقال : ايها الناس انّ اول

مركب صعب وانّ بعـد اليوم اياماً وان أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله : (اخرجه بن سعد) . قالوا وزاد في الاعطيات مائةمائة ووفّد أهل الامصار : قال الطبري وهو اول من فعل ذلك وكان عبيدالله بن عمر لم يزل محبوساً عند سعد بن أبي وقّاص منذ أخذه بعد قتله الهرمزان وجفينة فلما تمت البيعة لعثمان جلس في جانب المسجد ودعا بعبيدالله وقال لجماعة من المهاجرين والانصار . أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق . فقال عليّ اری ان نقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم : وانما أشار عليّ بقتله لانه ثبت يومئذ انّ الهرمزان لما ضربه عبدالله بالسيف قال لااله الاّ الله كما انه لم يثبت اشتراكه مع أبي لؤلؤة في جريمته الاّ بما شهد به عبدالرحمن بن أبي بكر من رؤيته ليلة الحادثة مع أبي لؤلؤة وفي يدهذا خنجر سقط منه لما رهقهما عبدالرحمن . وكان عليّ شديداً في الحق فأشار بقتله وأشار غيره بعدم قتله والامر كما لا يخفى على الناقد يوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج الى أناة وكان ممن حضر يومئذ عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين انّ الله قد اعفاك ان يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان انما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال عثمان انا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في ما لي : وانتهى الاشكال

هكذا رواها الطبري قال وكان رجـل من الانصار يقال له زياد بن لبيد البياضي اذا رأى عبيدالله بن عمر قال

ألا يا عبيـدَ اللهِ مالكَ مَهرَبٌ ولا ملجأٌ من ابن أرْوَى ولا خفَر
أصَبْتَ دماً والله في غـير حِلِّهِ حراماً وقتلُ الهُرْمُزان له خطر

في ابيات . فشكا عبيدالله الى عثمان فدعا زياد بن لبيد فنهاه فانشأ زياد

يقول في عثمان ابياتا منها

أبا عمرٍو عبيــد الله رَهنٌ فلا تشككْ بقتل الهرمزان

وفي رواية أخرى للطبري عن القماذبان بن الهرمزان انّ عثمان دعاه فامكنه من عبيدالله قاتل أبيه ليقتله فرجاه المسلمون بالعفو عنه فعفى عنه وفي هذا الخبر نظر لانه لوصح لما بقي عليّ بن أبي طالب مصرًّا على قتل عبيدالله حتى خلافته حيث دعا ذلك عبيدالله الى الفرار والانحياز الى معاوية بن أبي سفيان

ومن أحسن اعمال عثمان (رض) التي عملها عند استخلافه كتبه التي كتبها الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس فقد كتب الى كل فريق من هؤلاء كتاباً بلغ الغاية في النصح والارشاد وحملِ العمال على طريق العدل وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه وصرفه في وجهه والمساواة بين الناس مسلمهم ومعاهدهم كما سترى ذلك في باب كتبه ان شاء الله

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصي الخليفة من بعدي ان يستعمل سعــد بن أبي وقّاص فاني لم اعزله عن خيانة) ففي رواية انّ اول عامل بعثه عثمان سعــد بن أبي وقّاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبة والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبري واماّ الواقدي فقد قال انّ أُسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه انّ عمر أوصى ان يقرَّ عماله سنة فلما ولي عثمان أقر المغيرة بن شعبة على الكوفة ثم عزله واستعمل سعد بن أبي وقّاص ثم عزله واستعمل الوليد بن عقبة فان صح ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥

باب

﴿ فتوحاته ﴾

(فتح ارمينيا والقوقاز)

(وجغرافيتهما)

تحد ارمينيا من جهة الشمال بالبحر الاسود وكرجستان ومن الشرق بكرجستان ايضا وجزء من بلاد فارس ومن الجنوب بكردستان والجزيرة ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود ارمينيا الآن الا ان العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فربما ادخلوا في ارمينيا قسماً من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو أران المشتمل على مقاطعتي ايروان وتفليس وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا الى داغستان . وشرقا الى آزربيجان وبحر الخزر واما من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسماً من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من ارمينيا الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموماً الى فتح ارمينيا ولكي يكون القارئ على بينة من الاماكن التي ورد ذكرها في فتح هذه البلاد في كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لارمينيا وما هو تابع للقوقاز رأيت من اللازم التوسع في جغرافية هذين القطرين وقبل ان ابسط جغرافية القوقاز اذكر هنا بعض الاماكن الشهيرة في ارمينيا زيادة في الايضاح

فمن مدن ارمينيا الشهيرة خلاط وقاليقلا وارزروم او ارزن الروم (ويقول أبو الفداء أنها نفس قاليقلا) والى جهة الغرب منها ارزنجان ثم ارجيش على بحيرة وان ووان المنسوبة اليها هذه البحيرة وهي في الطرف الشرقي منها

وفي الجهـة الشرقية من سلسلة جبال ارمينيا جبل الجودي او أراراط الذي رست عليه سفينة نوح. ومن انهرها الفراة وأراس المعروف عند العرب بنهر الرّس وينحدر من الجبال قرب ارزروم ويمر بين مقاطعتي القارص وارزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من اعالي القارص ويصبان في بحر الخزر

واماّ القوقاز فيحدها شمالاً الروسيا وجنوبا العجم وتركية أسيا وشرقاً بحر الخزر الذي يفصلها عن بقيـة آسيا الروسية وغربا البحر الاسود ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربمـا دعوها باسم بلاد الران (أرّان) من قبيل تسمية الـكل باسم الجزء . فمن اقسام هـذه البلاد الجنوبية ايبريا او كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالاً الى داغستان ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري ان العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وانه يمتـد غربا الى آسيا الصغرى. ومن مدن الران الشهيرة ايروان وفيها كنيسة كبرى للارمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبرْذَعة والباب او باب الابواب (١) والبيلقان : قال الاصطخري : ليس في أرّان مدينة أكبر من بردعة والبـاب وتفليس ومن اقسامه الشمالية بلاد الچركس في الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويجري فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الاسود ونهر كوما وترك (ته رك) اللذان يصبان في بحر الخزر : ومن

(١) . قال القرماني في تاريخـه ما خلاصته ان باب الابواب على شاطئ بحر الخزر وان سبب هذه التسمية ان كسرى انوشروان لما بناها جعلهـا على سور في البحر يمتد مسافة شاسعة وجعل له ابواباً اسكن في كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالجبل من الهجوم على بلاده

أقسامه داغستان على بحر الخزر وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكوالتي فيها منابع النفط ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته بالويه . ودربند على شاطئ بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه الى السهول الشمالية حيث قتل على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتي الكلام على ذلك

واماّ فتح ارمينيا والقوقاز فقد اضطربت الروايات في فتحهما لتعدد الغزوات التي غزاها المسلمون لهذه البلاد في خلافة عمر وعثمان رضى الله عنهما فبعضها يقول ان الفتح الاول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق وحبيب بن مسلمة الفهرى من جهة الغرب وان عبد الرحمن قتل يومئذ في بلنجر وفي بعضها انّ عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ هـ في خلافة عثمان وفي بعضها انّ الذى قتل في بلنجر اخوه سلمان وذلك سنة٢٦ وبعضها لايقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط في غزوته الثانية والذى يؤخذ من مجموع الروايات التي جاءت في فتح ارمينيا ان عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا في بلاد الترك او الخزر على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة كل من عبد الرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الاثير فى أسد الغابة الاّ انهما لم يحققا السنة التي قتل فيها سلمان بل قالا قيل انه قتل سنة ٢٦ وقيل انه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ وقالا انّ أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان والاختلاف فى زمن قتل سلمان وعبد الرحمن اختلاف بالضرورة فى زمن الفتح أيضاً

والظاهر ان الاضطراب في هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط في سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخي الافرنج ايضا فقد ذكر ديفرجي ان عبدالرحمن غزا ارمينيا قبل قتل يزدجرد بمدة ولم يعين تاريخ دخوله ارمينيا ثم نقل عن احد مؤرخيهم وهو المسيو سان مرتان خبر دخول سلمان وحبيب وفتحها البلاد في خلافة عثمان سنة (٦٣٩ م) اي سنة (١٨ هـ) مع ان الخليفة في هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وانّ سلمان قتل في بلنجر في هذه الغزات وجلا العرب عن ارمينيا بعد قتله ثم قال لكن العرب عادوا اليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) واكرهوا امراء البلاد على دفع الجزية

ويؤخذ من هذا ان ديفرجي وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية في مكان الاولى اذ لا خلاف بين المؤرخين في انّ العرب دوخوا ارمينيا مرتين الاولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان وقد أيدّ هذا تواريخ الارمن أيضاً وأشار اليه القس جبرائل الخانجي في مختصر تاريخ الارمن وان لم يذكر أسماء الفاتحين من العرب في الحرب الاولى والثانية ولم يعين تاريخهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجي بالتاريخ اذ الثابت عنده وعند مؤرخينا ان الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الاولى سنة (١٨ هـ) والثانية (سنة ٢٦ هـ) وانما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً في الفتح الاول والثاني أدخل هذا الوهم على مؤرخي الافرنج لذا رأيت ان أمحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد في تاريخ ديفرجي ومختصر تاريخ الارمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول

قد كان بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد فتحا في خلافة عمر (رض)

بلاد آزربيجان الواقعة الى الشرق من ارمينيا ولما كتب بكير الى عمر بالفتح كتب عمر الى سراقة بن عمرو بغزو الباب وجعله على حربها أي اميراً للحرب وجعل عمر على مقدمة سراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى احدى مجنبتيه (جناحيه) ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبدالله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة وكتب الى حبيب بن مسلمة الفهري ان يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة ونهض سراقة على هذا الترتيب من البصرة ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة الى ارمينيا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهريار فكاتبه شهريار واستأمنه ولما فرغ سراقة من الباب بعث الامراء والقواد الى ما يليه من بلاد ارمينيا فارسل بكير بن عبدالله الى موقان وحبيب بن مَسْلَمة الفهري الى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان الى جبال اللان (القوقاز) فاشتبكت جنوده في اطراف ارمينيا مع الامير اوهان بن كامساراكان وأخيه ديران فقتلا وتشتت جندهما وذلك بخيانة أحد قواد الارمن المسمى ساحور الذي خان اوهان وانضم بجيشه الى العرب كما يقول ديفرجي وصاحب مختصر تاريخ الارمن

واما حبيب بن مسلمة الفهري فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له تيودوراحد امراء البلاد وكانت يومئذ منقسمة على بعضها واجتهد في ان يضم كل امراء ارمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح مع انه كان يساعده على هذا القصد البطريرك استراس الذي يئس من نجاح مسعاه فمات كمداً وبينما كان الارمن يشتغلون في اقامة بطريرك غيره اذ فاجأهم جند الاسلام بقيادة

حبيب بن مسلمة الفهري ووضعوا الحصار على مدينة دوفان[1] التي هي مقر البطريرك ويقول ديفرجي ان الحصار بدأ في نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعده (سنة ١٨ ه) واستمر الى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ ه) حيث فتحها حبيب ثم أخذ باتمام فتح ارمينيا وكرجستان ففتح وان ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرّس ويسميه الجغرافيون (أراس وأراكس) ومنها سار الى ارمينية الغربية ثم عطف على ايبريا التي هي جزء من شِرْوان وكرجستان الحالية واخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى وفي اثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبدالرحمن بن ربيعة فاقره عمر (رض) على فُرج الباب وأمره بغزو الترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر وكان سكانها من الجهالة والتوحش على جانب عظيم وأمعن عبدالرحمن في البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها الى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتي فرسخ من بلنجر ثم عاد الى الباب ولم يزل يردد الغزو فيهم حتى قتل في احدى غزاته على نهر ترك (ته رك) الذي يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان شمالي ارزنجان وبعضهم سلك طريق الباب الى ارمينيا. وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن في خلافة عمر أو في خلافة عثمان أم قتل هو في خلافة عمر وأخوه في خلافة عثمان فاذا سلمنا بما رواه الطبري من انّ عثمان كان أمد عبدالرحمن بأخيه سلمان وانّ الفارين من جند عبد الرحمن التقوا بسلمان في الطريق فنجاهم الله فتكون وفاة عبدالرحمن

(١) وفي مختصر تاريخ الارمن: تفين

في خلافة عثمان ولا عبرة بتعيين السنة التي قتل فيها بل العبرة في الفتح وهل حصل في زمنه أم لا ومما لا خلاف فيه انّ عبدالرحمن بلغ في فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الاسود في خلافة عمر بن الخطاب اي ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ هـ الاّ انّ ذلك الفتح كان فتحاً هيناً على الجزية ثم تراجع الامراء الذين فرقهم سراقة بن عمرو للفتح كما نقل ذلك ابن خلدون في كلامه على فتح جبال ارمينيا الاعبد الرحمن ابن ربيعة فقد بقي في بلاد الخزر. ومما يؤيدان هذا الفتح لم يكن فتحاً تثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون ايضاً من أنّ سراقة كتب الى عمر بخبر الامراء وتوجيههم الى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لانه فرج عظيم : أي انّ عمر لم يكن على ثقة من امكان فتح تلك البلاد وتملكها لاتساع فروجها اي ثغورها وتنائي اطرافها التي تحتاج الى كثير من الجند المرابط ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجي انّ المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك الى الجلاء عن كل ارمينيا وعادوا اليها بقوّة اعظم سنة (٦٤٦م) أي سنة (٢٦هـ) وهي السنة التي وجه فيها عثمان (رض) حبيباً وسلمان الى استرداد البلاد وفتح ارمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الاول في الحقيقة تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة الى اليوم للدول الاسلامية ولم تنتقض الاّ في فترات قليلة ثم استتب فيها الامر للمسلمين وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الارمن الى تسليم الارمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازديروس من قبل امبراطور القسطنطينية اذ كان الارمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التي كانت متسلطة عليهم وزالت سلطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى

الامبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مقدار سنة ومات وأخلفه ابنه سنباط

واليك بيان ما ذكره المؤرخون عن سبب ارسال عثمان (رض) لحبيب وسلمان الى ارمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٢٦ ه) ولا عبرة بما يوجد في سياق خبر الفتح الثاني من الشبه بسياق الخبر الاول فان حبيباً وسلمان سلكا على ما أرى في هذا الفتح عين الطريق الذي سلكاه في الفتح الماضي اي انّ سلمان أخذ الى القوقاز من شرق ارمينيا وحبيباً أخذ اليها من قلب ارمينيا وغربها وقد أشار ديفرجي في كلامه على فتح ارمينيا الى ان العرب لما عادوا الى فتحها في المرة الثانية سنة (٦٤٦م) (٢٦ه)انتهوا الى اراراط من الولايات التي دخلوا اليها أوّل مرة

انتقضت ارمينيا وآزَرْبِيْجَان ايضاً بعد الفتح الذى كان في خلافة عمر (رض) اماّ لقلة الجنود المرابطة في البلاد ودخول الوهن على نفوسهم بعد قتل عبد الرحمن بن ربيعة ثم تحيهم الى الاطراف والثغور التي من جهة فارس والجزيرة. واما لانّ الامراء الذين فتحوا البلاد يومئذ اكتفوا من السكان بالجزية ثم تراجعوا الى الثغور كما تقدم ذكره لثقتهم بضعف امراء البلاد عن النهوض الى الثورة والخروج عن الطاعة. اولعدم كفاية الجند الذين معهم للمحافظة على البلاد وبسط جناح السلطة على تلك الارجاء السحيقة عن مقر الخلافة البعيدة عن مستودع القوّة والامداد كالبصرة والكوفة والشام فلما استخلف عثمان (رض) وعزل عتبة بن فرقد عن ازربيجان بلغه انّ البلاد انتقضت فاستغزى الوليد بن عُقْبة والي الكوفة فغزاها فصالحه أهل كور آزربيجان على صلح حذيفة بن اليمان وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي الى ارمينيا

في اثني عشر الفاً فسار اليها واثخن ثم انصرف الى الوليد وعاد الوليد الى الكوفة وجعل طريقه على الموصل فلقيه كتاب عثمان انّ الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث اليهم رجلاً من اهل النجدة والبأس في عشرة آلاف فخطب الوليد في الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم ثمانية آلاف فسار بهم الى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسلمة الفهري فشنوا الغارات واستفتحوا الحصون

المعروف ان مؤرخينا اذا ذكروا بلاد الروم انما يعنون بها آسيا الصغرى التي كانت يومئذ تابعة لامبراطورية القسطنطينية.وكل ما هو تابع لها من الجزر ايضاً وربما اطلقوها احياناً على كل البلاد التي تلي الثغور الشامية والجزرية وهي ارمينيا والاناضول فاذا اعتبرنا هذا الاطلاق في هذه الرواية فيكون فتح ارمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة والاّ فيكون مسير هذه الجنود الى بلاد الروم لصد هجمة أرادها الامبراطور قسطنطين على سورية اولامداد أهل ارمينية على حبيب بن مسلمة الفهري كما ترى في الرواية الآتية التي هي أصح الروايات الواردة في اخبار فتح ارمينيا في خلافة عثمان وهي

لما استخلف عثمان (رض) كتب الى معاوية بولايته على الشام وولى عمير بن سعد الانصاري الجزيرة ثم عزله وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها وأمره ان يغزو شمشاط وهي ارمينيا الرابعة أو يغزيها وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري فتحها مع عياض بن غُنْم في خلافة عمر ثم أقفلت . وكان لحبيب رضي الله عنه أثر جميل في فتوح الشام والجزيرة وارمينيا فوجّهه معاوية في ستة آلاف مقاتل الى فتح ارمينيا وقيل بل كتب اليه عثمان يأمره

بذلك فنهض اليها حتى أناخ على قاليقلا سنة (٢٦ هـ) فخرج اليه أهلها فقاتلهم حتى الجأهم الى المدينـة فطلبوا الصلح على الامان او الجزية فأجابهم الى ذلك فجلا منهم من جلا وأقام من أقام

وقولهم انّ حبيبا نهض الى قاليقلا يدل على ان ما يليها من البلاد الى الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة اذ انّ المؤرخين لم يذكروا لحبيب قتالاً مع أحد فيما دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه انّ بطريق ارمنياقس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة وانضمت اليـه امداد أهل اللان والخاز وسمندر من الخزر . وقال بن الاثير ان ارمنياقس هي بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونيه وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية . وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذري ولا غيره من المتقدمين في سياق هذا الخبر وانما ذكرها بن الاثير من عنده وهي خطأ على ما أرى اذ ليست الولايات التي ذكرها ابن الاثير من ارمينيا بل هي من ولايات آسيا الصغرى التابعة لامبراطورية القسطنطينية وانما كانت سيواس قديما تعتبر من ارمينيا ثم انضمت الى الامبراطورية الشرقية فامّا ان يكون الموريان يومئذ بطريقا على ارمينيا الغربيـة فسموه والي ارمينياقس وهو الذى أجاب عليهم بجموع من بلاد الخزر والقوقاس وارمينيا الغربيـة ولا دخل في هذه التسمية لقونيه واقصره وغيرها من ولايات الامبراطورية الشرقية وامّا انه كان والياً على سيواس التي هي ارمينيا الامبراطورية وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الاسيوية من قبل امبراطور القسطنطينية وعندى ان الأول ارجح

لما انتهى الى حبيب هذا الخبر كتب الى عثمان (رض) يسأله المدد

فكتب الى معاوية ان يشخص اليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب في الجهاد فبعث اليه معاوية الفي رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها وكتب أمير المؤمنين عثمان الى سعيد بن العاص ايضا وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بامداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وهو سلمان الخير وكان غزّاءً فاضلاً خيّراً فسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة وقد اقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات وقد ابطأ على حبيب المدد ورأى حبيب ان يبيتهم ليلاً فأمر جنوده فبيتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوّة جاشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ انّ أمّ عبدالله الكلبية امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعدك : قال سُرَادِق الطاغية (يعني الموريان) او الجنة : فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده

وحق لنساءٍ مثل هذه المرأة الفاضلة التي تسابق الرجل الى الشرف او الموت أنْ يربين رجالاً عظاما وابطالاً كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الامم الكثيرة . وما أقبح بالمرأة ان تفرط بالرفاهة وتستسلم لعوامل الضعف والسكينة وهي أمّ الرجل الذى تقوم على كواهله دعائم الحياة البيتية فاماً سعيدة واماً شقية

ثم انّ سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان ان يتأمر على حبيب فأبى عليه حبيب حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء في ذلك وهو من جند سلمان

فانْ تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وانْ ترحلوا نحو ابن عفّان نرحل

وان تُقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أميرٌ في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنّا حماته ليالي نرمي كلّ ثغر وننكل

هكذا روى البلاذري في تاريخه انّ الاختلاف بينهما وقع في هذه الغزوة وذكر البيت الاول من الابيات الثلاثة لكن الطبري أورد هذه الابيات في أخبار سنة (٣٢هـ) وقال ان هذا الاختلاف وقع بينهما في هذه السنة في بلاد الخزر حيث كان سعيد بن العاص استعمل سلمان على ثغر الباب وأمدّه عثمان بحبيب بن مسلمة الفهري وفي البيت الثاني والثالث مايدل على ان هذا الخلاف كان في الباب اذ كان ثغر المسلمين يومئذ وهو تابع لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وان تقسطوا الى آخر البيت فاذا صح انّ هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل في الخزر وانما الذي قتل أخوه فقط وذلك لان الذى كان يغزو الخزر بجند الكوفه من الباب يومئذهو حذيفة بن اليمان وكان أميراً للحرب فيها وما زال يغزوهم حتى قتل عثمان (رض) كما روى الطبرى في تاريخه

لما انتهى سلمان الى حبيب وقد فرغ من القوم سار الى غزو أرّان ومن ثم افترق القائدان فتوغل حبيب في ارمينيا الغربية متجهاً الى الشمال واتجه سلمان الى ارمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ففتحا البلاد التي بين البحر الاسود و بحر الخزر حتى القوقاز حبيب من جهة الغرب أي من جهة البحر الاسود وسلمان من جهة الشرق أي من جهة بحر الخزر. فامّا ما فتحه حبيب ابن مسلمة من البلاد فنرجئه الى خبر فتوحاته الذي سيرد في ترجمته ان شاء الله لانا عزمنا ان نفرد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه وعنهم أجمعين

واماّ سلمان فانه سار الى أرّان ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحا واشترط على أهلها اداء الجزية والخراج ثم اتى بردعة وعسكر على نهر الثرثور على فرسخ منها فامتنعت عليه فعاناها أياماً فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجّه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق في أران ودعا اكراد البوشنجان (او البلاسجان) الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدّى البعض الصدقة ممن دخلوا في الاسلام ثم سار الى مجمع نهر الكر (كور بالكاف الثقيلة) والرّس « أراس » فعبر الكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التي على الضفة الشمالية من نهر الكر ويسميها ديفرجي بلاد سشاكي ثم دخل بلاد سشيوان وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب وكل هذه البلاد واقعة الى الشمال الشرقي من نهر الكر حتى داغستان ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال ان سلمان انتهى الى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون وبعضهم يقول انه استخضع كل امراء الجبل ثم اجتاز مضيق دربند حيث قتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفي قتيبة بن مسلم فاتح تركستان يقول ابن جمانة الباهلي مفتخراً بهما لانهما باهليان

وانّ لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بصينستان ياله من قبر
فذاك الذي في الصين عمّت فتوحهُ وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم انّ قتيبة وسلمان وأخاه ليسو بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين فخر الأمة الاسلامية والذكر الخالد لها الذي يمثل عظمة رجالها الفاتحين تمثيلاً تزدهي به صفحات التاريخ

هذا ما انتهى اليه تحقيقنا في فتح ارمينيا والقوقاز الذي بلغ به المسلمون نهر ترك الذي يصب في بحر الخزر ماراً في السهول الواقعة وراء جبل القوقاز وفي اعتقادي ان المسلمين لو لم ينكبوا بنكبة نهر ترك ويخرب الخزر ما بينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع صداً لهجماتهم المتوالية على تلك الاصقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزوا في فتوحاتهم يومئذ نهر فوما وأمعنوا في روسيا الشرقية على قسمين قسم ينعطف على بلاد القلموق واستراخان ويدوروا حول بحر الخزر أي بحر قزبين حتى ينتهي الى جرجان حيث يلتقي بالجيوش الاسلامية الضاربة في انحاء ولاية خراسان ويسير الى معاونة الجيوش الآخذة بتلابيت يزدجرد الذي قتل على نهر المرغاب . وقسم يتتبع مجرى نهر ولغا الى قازان وما والاها والله أعلم

دخول معاوية الى بلاد الروم

(وفتح قبرص)

كان اولئك الفاتحون كالتيار الجاري اذا صُدّ من جهة انقلب الى جهة أخرى فان تذامر الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصدهم عن التوغل فيما وراء بحر قزبين حوّل وجهة الفاتحين ثانية الى بلاد الروم وقد كانت امبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية والجزيرة تنظر الى جيوش المسلمين نظر الحذر وتراقب حركات الجيوش الاسلامية مراقبة الواقف لعدوّه بالمرصاد وكان القواد وزعماء الفتح الاسلامي عرفوا من الدولة البزنطية هذا الحذر فتحولوا عن مهاجمتها الى جهات أخرى وهكذا الى سنة (٢٥ او ٢٦ هـ) حيث أغار معاوية بن أبي سفيان على الاناضول من جهة

اقليمي قبادوكيا وفريجيا فاخذ عمورية [1] ثم ارتد ولو رأى غرة من الروم لامعن في البلاد حتى جدران القسطنطينية لكن الظاهر انه وجد القوم في مكانة من اليقظة والتحصن وجد بها الوصول الى بغية من جهة البر أمرًا دونه الصعاب فاتجه خاطره الى البحر وقد كان شديد الرغبة بالغارة على سواحل الاناضول وجزر البحر الابيض من عهد عمر بن الخطاب ولكن عمر رضي الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضي الله عنه هذه المرة أي سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر فأذن له على شرط ان يخير الناس فمن اختار الغزو في البحر يحمله معه فأعد لهذه الغزوة اسطولاً من سواحل الشام وكتب الى عبدالله بن سعد بن أبي سرح عامل مصر باعداد اسطول آخر واستعمل عبد الله بن قيس الجاسي على البحر وسار الاسطولان فاجتمعا في قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوّهم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدوّ عليهم. بمعنى ان تكون قبرص مستودعاً حربياً في البحر الابيض للمسلمين ومركز اتصال بينهم و بين اساطيلهم الماخرة في هذا البحر تلجأ اليها عند الحاجة

---

(١) كبادوكيا مقاطعة في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي ارمينيا وكانت تسمى قديماً بهذا الاسم وفريجيا اوفروغيا مثلها ايضاً وهي من المقاطعات الوسطى في آسيا الصغرى واما عمورية فقد قال لاروس في قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) انها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطيه وكانت موطن ومنشأ الامبراطور تيوفيل وقد تخربت في حروب المسلمين ضد الامبراطورية الشرقية

وقد ذكر سديو في تاريخه انّ معاوية فتح سنة (٢٩هـ) أيضاً اقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ومؤرخونا لم يقولوا بهذا والظاهر ان هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته ايام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لاسطولهم العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية رضى الله عنه

فتح بلاد المغرب

(وجغرافيتها)

بلاد المغرب اوافريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقا بلاد مصر والبحر المتوسط ايضاً وجنوباً الصحراء الكبيرة وغربا الاوقيانوس وكانت تنقسم في صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى وهي (المغرب الادنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس (والمغرب الاوسط) وهي المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط (والمغرب الاقصى) وقاعدته فاس ومراكش. وينقسم الآن كل من هذه الاقسام الى أقسام صغرى فطرابلس الغرب تنقسم الى ثلاثة اقسام طرابلس وفزّان وبنغازى وهي تابعة للدولة العلية (وتونس) وهى ولاية مستقلة تحت حماية فرانسا وهي تنقسم الى أقسام كثيرة صغرى (والجزائر) وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهي الجزائر. ووهران وقسنطينة وهي تابعة للدولة الفرنساوية واما القسم الثالث وهو المغرب الاقصى فأشهر اقسامه عمالات فاس. ومراكش. والسوس. ودرعه وتافيلالات وهو مستقل

يحكمه الآن مولاى السلطان عبد العزيز[1] وأشهر مدن المغرب الادنى: طرابلس الغرب: وهي فرضة بحرية: ويرقة: وكانت تسمى قديماً انطابولس

---

(١) ما زال أهالي هذا المغرب في غفلة عن اطماع الدول الاوربية في هذه البلاد وحكومتهم فوضى لاعناية لها بالتعليم وانشاء دور العلم والصناعة الحديثة وتأسيس قواعد الحكومة على الأصول الجديدة التي ترتبط بها سعادة الامم وقوتها حتى فاجأها الاتفاق الفرنساوي الانكليزي الذي عقد بين هاتين الدولتين من بضعة شهور ومن مقتضاه اطلاق يد فرانسا في مراكش وعدم تعرض انكلترا لها بشيء اذا أرادت أخذ هذه البلاد وقد بدأت الحكومة الفرنساوية في التذرع بالذرائع السياسية للاستيلاء على هذه المملكة العظيمة ولم نسمع للحكومة المراكشية بازاء هذا الخطر المقبل والعدو اللدود الا لغطاً لا يغني عنها شيئاً وانما تغني القوة والقوة بالعلم والتربية التي جعلت الامة اليابانية في ثلاثين سنة من أقوى دول الارض ولعمري ان استمساك أهل المغرب بالقديم وتحريمهم على أنفسهم الاخذ بكل أمر نافع لتوهم حرمة ذلك في الدين سينتهى بهم الى ما انتهى اليه حال بقية الممالك الاسلامية في آسيا وافريقيا كالهند والتركستان وتونس والجزائر والصومال وغيرها وأين من يعقل ويتبصر • وينظر الى المستقبل ويتدبر • وقد مني المسلمون بمرض الخمول فاصبحوا كالطير التي تعيش يوماً بيوم ولا تنظر الى ما يكون في الغد ولولا ذلك لتنبه مسلمو المغرب الى ترقى اوربا منذ قرن لانهم أقرب الامم جواراً لها ولاخذوا بالاسباب التي أوصلت جيرانهم الى قمة المجد والقوة وألفوا في افريقيا الشمالية من طرابلس شرقاً الى المحيط غرباً مملكة عظمى من أخصب ممالك الارض تحتوي على ١٦ مليوناً من النفوس اذا صارت لهم حكومة منظمة وانتشرت بينهم المعارف والعلوم لا يتيسر لدولة مهما كانت قوية ان تقدم على نزع استقلالهم قط بل ولكانوا لهذا العهد أصحاب السيادة على قسم كبير من اواسط افريقيا وغربها ولعل المستقبل بهذه الامنية كفيل لاسيما متى شعر المسلمون هناك بألم الاستعباد واستناروا بشيء من نور المدنية الحديثة والله بما يأتي في الغد عليم

وفرضتها بنغازي : وتونس : وهي قرب اطلال قرطاجنة القديمة [١] وتسمى قديماً افريقيا وربما سموا اقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا القارة كلها به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء وهي على البحر ويليها : قابس : وبنزرت وصطفورة المعروفة قديماً بصوفيطوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عقبة ابن نافع الفهري وجعلها قاعدة البلاد وبالقرب من القروان مدينة : رقادة: والى الجنوب الشرقي منها مدينة صفاقس

ومن مدن المغرب الاوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر مزغنة

---

(١) قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر الابيض المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سوريه وكان لها في التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذي غزا الرومانيين في عقر دارهم وما زالت قرطاجنة التي كانت ضرة رومة شجي في حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبون سنة (١٤٩) قبل المسيح والظاهر ان الخراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامي وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم في حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى في افريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغساني لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى الجأهم للتسليم بعد ان فر منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن انقاضها عمرت مدينة تونس . وهذا التخريب وان عدّ عند الأثريين سيئة لحسان الا انه عند السياسيين ليس بشيء لان الدول من دأبها ان يعفي اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون في افريقيا هذه المدينة فقد اقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار انها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير في التاريخ . لذا فليس ببدع ان يأتي حسان ما آتاه ويأتيه غيره في كل دولة من الدول لاسيما وان اعتبار البلدان التاريخي الأثري لم يكن في تلك العصور بالمنزلة التي انتهى اليها في هذا العصر

او مزغنان : ومدينة تلمسان : وهما من الاقليمين المعروفين قديماً بموريتانية القيصرية والسيتفية : ومدينة قسنطينة : وهي حاضرة الاقليم المعروف قديماً باقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهي على البحر ويصب قربها نهر الشليف او شلف ومدينة بونه او عنابه وهي على البحر المتوسط ايضاً ووهران مثلها أيضاً

ومن مدن القسم الثالث مراكش وفاس ومكناس او مكناسة الزيتون في جهة الشمال والوسط وططوان وسبتة ومليلا على شواطئ البحر المتوسط ومغادر وطنجة والرباط وسلا على شواطئ الاوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة والسوس في جهات الجنوب والجنوب الشرقي٠ ومن جبالها جبل درن وغمارة ومديونة ويسر وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة

امّا فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا في سيرة عمرو بن العاص انه فتح برقة وطرابلس في خلافة عمر رضى الله عنه وضرب على أهلها الجزية ثم عاد بعد ان استخلف عقبة بن نافع الفهري على البلاد وقيل انه لم يستخلفه وانّ عثمان رضى الله عنه ارسله اليها لمّا أمر ابن أبي سرح بغزوها وتحرير الخبر عن ذلك انّ عثمان (رض) كان استعمل على الحرب في مصر عبدالله بن سعد ابن أبي سرح وأمره بغزو افريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فامر عقبة بن نافع بن عبدالقيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقيا في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم انّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح شكا عمراً الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل بن أبي سرح على

امارتي الخراج والحرب في مصر وكتب عبد الله يستأذن عثمان في قصد افريقيا ثانية ويستمده فاستشار عثمان (رض) الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة وابناء الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم وساروا مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة (٢٦ هـ) ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالاً خفيفاً فبث عبد الله السرايا في كل ناحية وسار الى افريقيا (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة وفي رواية سبيطلة حاكم (بطريق) افريقيا الشمالية من قبل امبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف مقاتل واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير[1] مدداً من قبل عثمان فشهد الحرب وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من يقتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده: وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سقط في يده الا انه جالد المسلمين جلاداً عظيماً فلما ابطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبدالله بن سعد بأن يترك جماعة من ابطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاتل العدو بباقي العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل

(١) الزبير هذا بفتح الزاي كما صححه في أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاي) ابن العوام والد عبد الله الذي قال بعض المؤرخين انه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع انه كان في الجيش الذي بعثه عثمان (رض) لابن سعد قبل هذا كما رأيت

وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى أتعبوهم ثم افترقوا وقد انهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير في خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله بن الزبير جرجير (غريغوار) وأُخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله

ثم انّ عبد الله بن سعد بعث سراياه الى انحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا في اقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً فاغاروا من جهة الجنوب على اقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل او الجريد ومن الشمال والغرب على اقليمي نوميديا وموريتانيا في الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد الى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لهم الجزية التي كانوا يدفعونها لقيصر الروم كما ذكر ذلك سديو في خلاصة تاريخ العرب واما مؤرخونا فقد اختصروا جداً في أخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذي عرضه عظماء افريقيا على ابن سعد وهو ان يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب اي مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس الى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار: قال ابن خلدون وغيره: وبعضهم يقول اعطاه اياه «أي الخمس» ولا يصح وانما اعطى عبد الله بن سعد بن أبي سرح خمس الغزوة الاولى

امّا عبد الله بن سعد فمن قائل انه عاد الى مصر ولم يولّ على افريقيا أحداً قال بهذا البلاذري في روايته عن الواقدي وقال الطبري ان عثمان صرف

عبدالله بن سعد عن افريقيا وولى عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس وقال ابن خلدون وغيره انه ولى عليهم والياً منهم ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجيء قائد من قبل امبراطور الروم وطرده للوالي الذي ولاه المسلمون كما سترى:

هـذا ولما أصاب ابن سعد من افريقيا ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل (هراقليوس) امبراطور القسطنطينية أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد ان يهاجم به الاسكندريه على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التي كان يريدها قسطنطين وفي ظني انه كان يريد افريقيا بدليل التجاء الامبراطور الى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره في هذه الغزوة وهي قريبة من تونس ولما بلغ المسلمون خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته في البحر أسطولان أسطول من الاسكندريه مع عبد الله بن سعد واسطول من سورية مع معاوية بن أبي سفيان والتقيا معه في عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتتلوا قتالاً شديداً حتى استحر القتل فانهزم قسطنطين جريحاً الى صقليا بما بقي معه من الروم ولمّا علم أهل صقليا بفراره قتلوه . وسمى المسلمون هـذه الغزوة غزوة ذات الصواري والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصواري

ثم ان الامبراطور قونستانس الثاني غضب على أهل صقليا لما اعطوه من المال لعبدالله بن سعد لانه اكثر مما كانوا يعطونه لامبراطرة الروم واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم في التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذي ولوه عليهم بعد جرجير (غريغوار) فالتجأ الى معاوية بن أبي سفيان وقد كان اجتمع له الامر فنصره وبعث معه ابن خديج لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية كما سترى ذلك في خلافة معاوية (رض)

﴿ تتمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان ﴾
(وقتل يزدجرد)

علمنا مما تقدم في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان المسلمين فتحوا قسماً عظيماً من بلاد فارس او مملكة الاكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادي وقد رأيت ان أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارئ على بينة مما فتح منها على عهد عمر (رض) وما فتح على عهد عثمان (رض) فاقول

بلاد فارس تنقسم الآن الى ثلاثة اقسام فارس الغربية وهي مملكة ايران وفارس الشرقيــة وهي مملكة افغانستان وبلوجستان وكان العرب يقسمونها الى اقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالي منها) مما يلي ارمينيا غرباً والقوقاز شمالاً يعرف بكورة آزربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والبير والموقان والطيلسان والى الشرق منها قزيين الواقعة شمال بلاد الجبل حيث كانت تسمى بلاد الديلم ثم الى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر الخزر او بحر قزيين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (او دنباوند) واستراباذ والدامغان وقومس في جهة الجنوب وأبيورد ونسا وسرخس ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران (والقسم الغربي منها) يعرف بالعراق العجمي وخوزستان وبلاد الجبل ومن مدن العراق العجمي الشهيرة المدائن والنهروان على دجلة ومنازر وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان واصفهان من بلاد الجبل والاهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من خوزستان (والقسم الجنوبي منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران اوكورة السند (وتعرف الآن ببلوجستان) وسجستان وهي بين مكران وخراسان ومن

مدن فارس الشهيرة إِصْطَخْر وفساودارابجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان ثم مكران وقندابيل وقنزبور وارمائيل وبيرون والديبل (ثغر على المحيط الهندي من كرمان او السند) ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان (لعلها صحراء لوط) وزرنج التي يؤخذ منها الى وادي سناروز والكش من ناحية الهند ورشت وناشرورز من سجستان (والقسم الشرقي والشمالي الشرقي) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان وهذا القسم اكثره واقع الآن في افغانستان وكان العرب يقسمونه الى اقسام كثيرة اوكور فمنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان وغزنة وكابل من زابلستان وبلخ من طخارستان : وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من خراسان وطوس الى الشمال منها ايضاً ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأَبَرْشَهر وبيهق واسفرائن وأرغيان وغيرها ثم هراة ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وباغون وطاغون وسنج وغيرها اما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيان فانّ من مدنها الشهيرة بلخ وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : واما زابلستان فمن مدنها الشهيرة كابل وغزنه اهـ

هذا ما احببت بيانه من جغرافية هذه البلاد وأما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الاكبر منها في خلافة عمر (رض) وقد كنت رأيت اختلافاً في بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر او على عهد عثمان والذي اتفق عليه اكثر المؤرخين ان فتح خراسان وسجستان

وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ثم انتقضت أكثر بلاد فارس فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان (رض) ودوخوا هذه المملكة الى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالاً فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية وجزء من السند وقسم من تركستان واليك مجمل خبر الفتح

في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضي الله عنه انتقضت آمد و بلاد الاكراد فعزم أبو موسى الاشعري والي البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلاً بعد ان كان يحض على الجهاد مشياً فتألب عليه أهل البصرة وذهب منهم وفد الى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه وتولى كبر ذلك غَيْلان بن خَرِشة الضبي فعزله عثمان وولى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة القرشي وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاصي من عُمان والبحرين فصرف عبيد الله بن مَعْمَر عن خراسان وبعثه الى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة الاّ أصلحها ثم ولى عليها في السنة التالية أُميرْ بن احمر اليَشْكُري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عُبَيْس واستعمل على سجستان عبد الله بن عُمَيْر الليثي فأثخن فيها الى كابل ثم عمران بن الفُضَيْل البُرْجُمي وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر

ثم انَّ أهل فارس ثاروا وانتقضوا بعبيد الله بن معمر فسار اليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيد الله و بلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس الى فارس وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاصي وفي المجنبتين أبو

برزة الاسلمي ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين وكلهم له صحبة فلقيه الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح اصطخر عنوة وسار بعدها الى دار ابجرد ومدينة جور وكان هَرِم بن حيَّان محاصراً لهـا فلما جاء ابن عامر فتحها ثم عاد الى اصطخر وقد انتقضت ثانية فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة ففني فيها أكثر اهل البيوتات والاساورة لانهم كانوا لجأوا اليها ووطئ ابن عامر أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل وكتب الى عثمان رضى الله عنه بالفتح فكتب اليه ان يستعمل على بلاد فارس هَرِم ابن حسان اليشكري وهرم بن حيَّان العبدي والخرّيت بن راشد والمنجاب ابن راشد والترجمان الهجيمي وأمره ان يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الاحنف بن قيس على المروين وحبيب بن قرّة اليربوعي على بلخ وخالد بن عبد الله بن زهير على هراة وأُمير بن أحمر على طوس وقيس بن الهيثم السلمي على نيسابور ثم انّ عثمان رضى الله عنه جمع هذه الولاية قبل موته لقيس واستعمل أُمير بن أَحمر على سجستان

لما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكثهم فأتاه الاحنف بن قيس وقال له أيها الاميران عدوّك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فانّ الله ناصرك ومعزّ دينه فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سيَّر امراءه الى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ثم تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة وأعمالها

كما سيأتي تفصيل الخبر عن ذلك في سيرة ابن عامر ان شاء الله

وسيّر ابن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ثم مضى الى مرو الروذ فقاتله اهلها ثم صالحوه وسيّر سرية فاستولت على رستاق بغ فعظم الامر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الصغانيان (من تركستان الشرقية) فقاتلهم الاحنف قتالاً شديداً حتى هزمهم وفل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ثم سار الى بلخ وهي مدينة (عاصمة) طخارستان فافتتحها ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر جيحون في تركستان الغربية وحاول فتحها فلم يتيسر له ذلك فعاد الى بلخ وسيأتي الكلام على ذلك مفصلا في سيرة الاحنف ان شاء الله

واما مجاشع بن مسعود السلمي الذي سار لفتح كرمان فانه فتح هميد ثم اتى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها اياماً ثم افتتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في كرمان فاستخضع اهلها ودوّخ مدنها وهرب كثير من أهل كرمان فلحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب اراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنيّ في مواضع منها وأدُّوا العشر عنها

وامّا الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان فانه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان التي مرّ ذكرها) فأتى حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بان غرز عنزة (١) وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم أتى روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها ثم أتى

---

(١) العنزة بفتحتين اطول من العصا وأقصر من الرمح وفيها زج كزج الرمح

ناشروذ ثم شرواذ ثم زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب الى وادي سناروز ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد الى ابن عامر بعد ان استخلف عليها عاملاً فاخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان فسار اليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي الف درهم (مليونين) وغلب عبدالرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون فلما انتهى الى بلد الداون حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده واخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وانما اردت أن أعلمك انه لا يضر ولا ينفع . وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غَزنَة ثم عاد الى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أُمَيْر بن أحمر وانصرف فعادوا الى العصيان

ولما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لاحد ما فتح عليك . فقال لا جرم لاجعلنَّ شكري لله على ان اخرج محرماً من موقفي هذا : فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم الى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين الفاً لمحاربة المسلمين فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى . قال أرى ان تخلي البلاد فاني أميرها ومعي عهد من ابن عامر اذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد وأقبل الى ابن عامر فلامه ابن عامر : قال جاءني

بعهد منك :

امَّا ابن خازم فسار لملاقات قارن باربعة آلاف فلما قرب منه أمر الجند ان يدرج كل رجل منهم على زج رمحه قطناً مغموساً بالدهن أو النفط فلما أمسى أمرهم ان يشعلوا النيران في اطراف الرماح وانتهت مقدمته الى قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الاعداء على دهش وكانوا آمنين من البيات ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع هالهم ذلك ثم غشيهم ابن خازم بجنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب الى ابن عامر بالخبر فرضي وأقره على خراسان فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل وأقبل الى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمي وكان معه في دار سِنْبيل

هذا ما احببت ايراده من فتح فارس وخراسان واماَّ طبرستان فقد كان فتحها على يدي سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) وذلك ان سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم وكان ابن عامر خرج من البصرة قاصداً خراسان فلما وصل سعيد وجده قد نزل ابرَشْهر فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض وأتى جُرْجان فصالحوه على مائتي الف ثم أتى طَمِيسه وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر اي بحر قزوين فقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى صلى صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد احد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه وحاصرهم

فسألوا الامان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالاً . ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها فربما أعطوا الاتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال وما زالت هذه البلاد (اي جرجان وطبرستان) على شيء من الاستقلال يأبى أهلها الخضوع التام للدولة الاسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الامويين حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

(مقتل يزدجر)

كانت جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ألجأت يزدجر للفرار الى حلوان ثم اصفهان وكانت كلما تقدمت في البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال في كرمان ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثانية عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزدجر وأرسل في أثره هرم بن حيان فاتبعه الى كرمان فهرب منها الى خراسان ثم لحق بمرد الروذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فامدوه فسار بهم الى سجستان وقيل الى جرجان فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ الى مرو الشاهجان فمنعه صاحبها من الدخول وكتب الى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزدجر ومصالحة العرب عليه وان يعطيه كل يوم الف درهم فجاء نيزك الى يزدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله فاحس يزدجر بالدسيسة ففر بنفسه وآوى الى ارحاء على نهر المُرْغاب وهو نهر يسيح في مرو الروذ ثم يغيض في زمال الصحراء ثم يظهر في مرو الشاهجان فقتله صاحب الرحى والقى شلوه في الماء: ويقول (سديو) في تاريخه انَّ الذي أمدَّ يزدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تأيُّتسْنغ وانه هو الذى سلط عليه بعد ذلك

من قتله فقتل على شاطئ نهر المُرغاب وانقضت بقتله ايام الدولة الساسانية التي استمرت دولتها زاهية واعلامها على تلك الممالك خافقة نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة والملك بيد الله يؤتيه من يشاء

باب

« أهم الاخبار والحوادث في عصره »

(سقوط خاتم النبي في بئر أريس)

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة نقش عليه ثلاثة أسطر محمد . ورسول . و الله . ولما توفي تختم به أبو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه فجعل مالاً عظيماً لمن جاء به واغتم لذلك غماً شديداً فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في اصبعه حتى قتل وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه وكان فقد هذا الخاتم مما أوخذ عليه عثمان رضي الله عنه لما بدأت المطاعن عليه

﴿ الطعن على العمال ﴾

(خبر الوليد بن عقبة)

كان الوليد بن عُقْبة (١) عاملاً لعمر (رض) على عرب الجزيرة فلما كان بين سعد بن أبي وقاص وبين عبد الله بن مسعود ما كان مما سبق ذكره في سيرة سعد عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة فقدم الكوفة وسار في الناس سيرة حسنة فكان أحب الناس في الناس

---

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لامه وأمهما أروى بنت عامر بن كريز

وأرفقهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب حتى نقم منه بعض الناس أموراً منها اتهامه بشرب الخمر وأفاضوا في الطعن عليه حتى استقدمه عثمان (رض) وأقام عليه الحد. وملخص الخبر على ما جاء في تاريخ الطبري ان شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه فنذر (١) بهم فخرج عليهم بالسيف فلما رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شريح الخزاعي من سطح داره فصاح بهم واقبل اليهم الناس فاخذوهم وفيهم زهير بن جندب الازدي ومورّع بن أبي مورّع الاسدي وشبيل بن أبيّ الازدي وغيرهم فشهد عليهم أبو شريح وابنه فكتب الوليد بهم الى عثمان فكتب اليه في قتلهم فقتلهم على باب القصر في الرحبة فقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي من أبيات

لا تأكلوا ابداً جيرانكم سرفاً أهل الدعارة في ملك ابن عفان

ولهذا نقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يترقبون به العثرات وكان شاعر من بني تغلب اسمه أبو زبيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم في آخر قدمة قدمها وحسن اسلامه فاستدخله الوليد فأتى آت أبا زينب وأبا مورّع وجندباً وهم يحقدون عليه مذ قتل ابناءهم فقال لهم هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد؟ فثاروا في ذلك وقالوا لاناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأبا زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقتحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد فلم يفجأ الا بهم فنحى شيئاً فادخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه فاذا

(١) نذر بهم أي علم بهم فحذرهم

طبق عليه تفاريق عنب وانما نحاه استحياء ان يروا طبقه ليس عليه الاّ تفاريق عنب فقاموا فخرجوا واقبل بعضهم على بعض يتلاومون وسمع الناس بذلك فاقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون اقوام غضب الله لعملهم . فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه الى ابن مسعود فقالوا . الوليد يعتكف على الخمر وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس . فقال ابن مسعود . من استتر عنّا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد الى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال ايُرضى من مثلك بان يجيب قوماً موتورين (اي لهم عليه ثار) بما أجبتَ عليَّ . أيُّ شيءٍ استتر به . انما يقال هذا للمريب. فتلاحيا « تلاوما » وافترقا على تغاضب ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ثم أُتي للوليد برجل يدّعي السحر ووجب عليه الحد فجاء جندب فضربه قبل ان يأمر به الامير بشيء فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فحبس ثم أُطلق بأمر عثمان وغضب لجندب اصحابه فخرجوا الى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون في الاسلام وتخرجون بغير اذن أرجعوا : فردهم فلما رجعوا الى الكوفة لم يبق موتور في نفسه الاّ اتاهم فاجتمعوا على رأي فأصدروه (اي تآمروا فيما بينهم على ان يكيدوا للوليد فكادوا له) ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الازديّ وأبو مورّع الاسدي فسلاّ خاتمه ثم خرجا الى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فسألهما عثمان كيف رأيتما قالا كنّا من

غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر : فقال ما يقيء الخمر الاّ شاربها فبعث اليه : فحلف له الوليد وأخبره خبرهم : فقال نقيم الحدود ويبؤ شاهد الزور بالنار فاصبر يا أُخيّ : وأمر سعيد بن العاص بجلده وكانت عليه خميصة فنزعها عنه عليّ بن أبي طالب ثم ان عثمان (رض) ولى مكانه سعيد بن العاص :

وفي رواية انّ الوليد سكر وصلى الصبح باهل الكوفة أربعاً وقال : أزيدكم : فقال بن مسعود مازلنا معك في الزيادة منذ اليوم : وشهدوا عليه عند عثمان فامر علياً بجلده فامر عليّ عبد الله بن جعفر بجلده

وروى الطبري ان الناس كانوا في الوليد فرقتين العامة معه والخاصة عليه وفي رواية له ايضاً انّ الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الاحرار والماليك وكان يُسْمَعُ الولائد وعليهن الحداد يقلن :

ياويلنا قد عزُل الوليدُ وجاءنا مُجُوِّعاً سعيدُ

ينقص في الصاع ولا يزيد فَجُوِّع الاماءَ والعبيدُ

وفي رواية له عن الشعبي ان كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد انْ ردَّ على كل مملوك في الكوفة من فضول الاموال ثلاثة في كل شهر يتسعون بها من غير انْ ينقص مواليهم من أرزاقهم

من نظر الى هذه الروايات بنظر الناقد البصير لا يرى فيها دليلاً يؤيد صحة التهمة بل يرى منها النافية ومنها المثبتة ولقد يضطرب الذهن دون التثبت من حقيقة حادثة الوليد اذ أيّ مجنون بلْه العاقل يجلس في منزل ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الخمر وهو يعلم انه بين قوم موتورين يترقبون به الفرص ويتتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر، وعلم منهم ارادة

الغدر، على انه سواء صحت هذه التهمة او لم تصح فالذي يظهر من مجمل تلك الروايات ان هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تذرعاً للوثوب على الخلافة وايقاظ الفتنة النائمة وحسبك دليلاً على هذا انّ سعيد ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليد لقي من أهل الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل ما لقي الوليد الذي يزعمون انه كان يعكف على الخمر كما سترى بعدُ

لو كان اهل الكوفة على حق في الطعن علي العمال لظلم أصابهم أو استبداد ظهر من أمرائهم لعدّ عملهم حسنة من حسنات الحرية التي كانت تتمتع بها الأمة يومئذ والعدل الذي لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق . ولكن لمّا لم يكن الامر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلنون فالتاريخ والعدل يشهدان بسوأ خدتهم كما سنبسط كل شيء في محله ان شاء الله

﴿ ولاية سعيد بن العاص الكوفة ﴾

كان سعيد بن العاص مقيماً مع معاوية بالشام وكان نشأ يتيماً في حجر عثمان فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس فقيل له انه بدمشق وانه مريض : فارسل الى معاوية ان ارسل اليّ سعيداً في منقل (محفة) فبعث به اليه وهو دَنِف فما بلغ المدينة حتى أفاق فقال له يا ابن اخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً هل لك من زوجة : قال لا : فقال عمر لعثمان ما منعك من هذا الغلام ان تكون زوجته قال قد عرضت عليه فأبى : فزوجه عمر ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس وقد كان عمومته ذوي بلاء في الاسلام وسابقة حسنة وقُدْمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص ماوراه الطبري عن سعيد وذكر صاحب الاغاني في خبر أبي قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد ما يدل على انه كان من الكرم وعلو النفس على جانب عظيم فذكر انه مات في قصره خارج المدينة وعليه من الدين ثلاثمائة الف فاوصى لابنه بقوله : فاذا واريتني فانطلق الى معاوية فانعني له وانظر في ديني واعلم انه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض عليه قصري هذا فاني اتخذته للنزهة وليس بمال : فلما نعاه ابنه الى معاوية سأله عن دينه ليقضيه فأخبره بوصيته فأخذ معاوية قصره بدينه وهو ثلاثمائة الف درهم ولما أرادوا وفاء الديون وجدوا اكثرها هبات كتب بها على نفسه صكوكاً كي لا يرد سائلاً سأله شيئاً فوفوها عنه . وهذا منتهى ما يروى عن كرم النفس وشرف الطباع وانما اوردت هذا الخبر ليكون دليلاً على سيرة بعض عمال عثمان رضي الله عنه

هذا ولما ولي سعيد على الكوفة وذلك سنة (٣٠ ه) خرج وخرج معه الاشتر وأبو خُشَّة الغفاري وجُندب بن عبد الله وابو مُصْعَب بن جثّامة وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا فلما بلغ سعيد الكوفة صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال

والله لقد بعثت اليكم واني لكاره ولكني لم أجد بداً اذ أُمرت ان أئتمر الا انّ الفتنة قد أطلعت خَطْمها وعينيها والله لاضربنّ وجهها حتى أقمعها (أزيلها) أو تعييني واني لرائد نفسي اليوم ثم نزل

وسأل عن اهل الكوفة فأقيم على حال أهلها فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه . أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلِبَ أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ،

وأعراب لحقت،حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها

فكتب اليه عثمان (رض) اما بعد فقضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الاّ ان يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء واحفظ لكلٍّ منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس (اي بحقوقهم ومراتبهم) بها يصاب العدل

فارسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الايام والقادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبئ عن الجسد فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخَلّة ذي الخلّة) اي الحاجة) . وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) فى سَمَره ففشت القالة والاذاعة وانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة الى بعضهم وجعلوا يعيبون التفضيل و يعدونه جفوة فكان اذا لحق بهم لاحق من ناشيء او أعرابي او محرَّر (معتوق) استحلى كلامهم فكانوا في زيادة وأولئك في نقصان حتى غلب الشر فكتب سعيد الى عثمان بذلك .فنادى منادي عثمان الصلاة جامعة فاجتمعوا فأخبرهم بالذى كتب اليه سعيد وقال : يا أهل المدينة ان الناس يتخضّون بالفتنة واني والله لا تخلصنّ لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم اه

وانما اراد عثمان بهذا الاستبدال اما ان يجعل من شهد الفتوح في العراق واهل السابقة والايام يقيمون في تلك الديار ليكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الاعراب ومنهم ظهر الشر وبهم استعان أهل الفتنة واما ليفرق الروادف الذين هم تبع في العطاء لاهل السابقة (١) عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأي هذا من عثمان رضى الله عنه لو لم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلا بد من ظهورها

﴿ حادثة أبي ذر والقول ﴾

(بجرمة اكتناز المال)

كان ابوذر من المشهورين بالتقى والصلاح شديد التمسك في الاعتقاد جريئاً في قول الحق وكان مقيماً بالشام مع معاوية وكان يعتقد ان كل اموال الفيء هي من حقوق المسلمين وليس للامام او من ينوب منا به ان يحتجن(٢) شيئاً منها بل ينبغي ان تقسم على الناس شيئاً فشيئاً كما كان ذلك على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والظاهر ان معاوية كان يتوسل الى ادخار المال لصرفه في وجوه المصالح العامة التي تقتضيها حالة الدولة وتدرجها في مدارج الحضارة بقوله: المال مال الله. ومعناه يضعه الامام حيث يشاء. فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذي ينشدونه اماً للتشويش على عثمان رضي الله عنه والتأليب على عماله لمقاصد سياسية واماً لمطلق الافساد

(١) راجع تفصيل ذلك فيما كتبناه عن العطاء والجيش فى الجزء الثاني من سيرة عمر بن الخطاب (رض)

(٢) احتجن المال ضمه واحتواه

بين المسلمين تشفياً وانتقاماً. فانطلق من هؤلاء ابن السوداء او ابن سبأ اليهودي الى الشام واندس على ابي ذرّ وامثاله من الصحابة يوسوس لهم بما يوسوس فلم تنطلي حيلته على غير أبي ذرّ واليك ماروواه الطبري بهذا الصدد عن يزيد الفقعسي قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر : الا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله الا ان كل شيء لله كانه يريد ان يحتجنه دون المسلمين ويمحوا اسم المسلمين : فأتى أبو ذر معاوية وقال ما يدعوك الى ان تسمي مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والامر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فاني لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء . فقال له من انت أظنك والله يهودياً . فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى به معاوية فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء : بشّرَ الذين يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولاَ ينفقُونها في سبيلِ الله بمكاوٍ منْ نارٍ تكوَى بها جباههمْ وجنوبهم وظهورُهم : فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الاغنياء (١) وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية الى عثمان ان أباذر قد أعضل بي وقد كان من امره كيت وكيت

(١) هذا القول يشبه ما يقول به الاشتراكيون فى هذا العصر فى اوربا من وجوب توزيع الثروة وقد بسطت الكلام عليه فى رسالة (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فلتراجع

فكتب اليه عثمان ان الفتنة قد اخرجت خَطْمها وعينيها فلم يبق الا ان تثبت فلا تنكأ القرح (١) وجهّز اباذر اليّ وابعث معه دليلاً وزوده وارفُق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فانما تمسك ما استمسكت :

فبعث اليه بابي ذر ومعه دليل فلما قدم المدينة ورأى المجالس في اصل سَلْع قال . بشر اهل المدينة بغارة شعواء (٢) وحرب مذكار (٣) ودخل على عثمان فقال يا اباذر ما لاهل الشام يشكون ذَرَبك (٤) فاخبره انه لا ينبغي ان يقال مال الله ولا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً . فقال يا أبا ذر عليّ ان اقضي ماعليّ وآخذ ماعلى الرعية ولا أجبرهم على الزهد وان ادعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار . قال او تستبدل الا شراً منها قال امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اخرج منها اذا بلغ البنأ سَلْعاً . قال فانفُذ لما امرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الرَّبَذَة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمةً من الابل وأعطاه مملوكين وارسل اليه ان تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابياً ففعل

وروى الطبري ايضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الربذة الى المدينة مخافة الاعرابية وكان يحب الوحدة والخلوة فدخل على عثمان وعنده كعب الاحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ان لا يقتصر عليها حتى يحسن الى

(١) قوله فقد أعضل بي أي أعياني وقوله أخرجت خطمها أي مقدم أنفها وقوله فلا تنكأ القرح أي لا تدميه والقرح هو الجرح

(٢) أي متفرقة (٣) أي ذات أهوال لا يقدم عليها الا ذكور الرجال

(٤) أي حدة لسانك

الجيران والاخوان ويصل القرابات . فقال كعب الاحبار من أدى الفريضة فقد قضى ماعليه : فقال له أبو ذر يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا والله لتسمعنّ مني او لادخل عليك ورفع محجنه فضربه فشجه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لابي ذر) يا أبا ذر اتق الله واكففْ يدك ولسانك اه

واعلم ان قول أبي ذر بوجوب بذل المعروف والاحسان الى الناس على الوجه الذي يقوله ناشئ عن استمساكه الشديد بالدين وما اشرب به قلبه من فضائل الاسلام وتعاليمه التي ترمى الى ذلك الغرض الجليل لتجمل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء الا انه كان يتغالى بهذا المشرب تعالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها الى المزيد من كل شيء على ان القصد والتوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا أعز الامم جانباً وأسعدها حالاً اذ خلق التعاون على البر اذا نشأ بنشوء الامة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدور تنمو بنمو الحياة القومية . ومن العجيب ان لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه الملكة في نفوس الأمة التي نزل كتابها بالحث عليه . والتخلق به . وقام من سلفها من ينبه العقول الغافلة عنه منذ نبت الاسلام . واجتمع على كلمته اولئك الاقوام ، وعسانا نلم بشيء من هذا البحث فيما يلي من هذا الكتاب ان شاء الله

هذا وقد جاء في حكاية شخوص أبي ذر الى الربذة روايات أخرى غير ما تقدم تحاشينا ايرادها كما تحاشاه الطبري وابن الاثير وغيرهما من محققي المؤرخين علماً منهم بضعف تلك الروايات . ولا جرم ان كل ناقد بصير اذا

رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما لارتياح الضمير اليها بالاضافة الى عصر الخلفاء الراشدين الذي هو خير العصور الاسلامية بشهادة التاريخ نفسه

واما أبو ذر رضي الله عنه فقد توفى في الربذة سنة (٣٣ هـ) اي بعد حادثته هذه وشخوصه الى الربذة بثلاث سنين

(باب)

« آثاره فى الخلافة »

من أعظم آثار عثمان رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء جمعه الناس على مصحف واحد بعد ان تعددت القرآآت واختلف فيها أهل الامصار . وفضله في ذلك كفضل أبي بكر رضي الله عنه في جمع القرآن وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الاثير وابن عساكر ان حذيفة ابن اليمان لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة آزربيجان والباب قال حذيفة لسعيد اني قد سمعت في سفري هذا امراً لئن تُرِكَ الناس عليه ليختلفُنّ في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً قال وما ذاك قال رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت اناساً من اهل حمص يزعمون لاناس من اهل الكوفة انهم اصوب قراءةً منهم وان المقداد اخذها من رسول الله (ص) ويقول الكوفيون مثل ذلك وانهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا نحن أصوب منكم قراءة ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك . فلما رجع الى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس مما سمع في غزاته تلك وحذرهم ما يخاف فساعده على ذلك اصحاب رسول الله (ص) ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له اقوام ممن قرأ على عبد الله بن مسعود وما تنكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد ؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى

ويسمونها لباب الفؤاد وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم. فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وابناؤهم وقالوا لهم انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتي امير المؤمنين لاشكون اليه ذلك ولاشيرن عليه ان يحول بينهم وبين ذلك حتى يرجعوا الى جماعة المسلمين والذي عليه أصحاب رسول الله (ص) بالمدينة فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد بن العاص وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة الى عثمان حتى قدم عليه فاخبره بالذي حدث وقال انا النذير العريان فادركوا هذه الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذي رأى وسمع وبالذي عليه حال الناس فأعظموا ذلك ورأوا جميعاً مثل الذي رأى فارسل عثمان الى حفصة بنت عمر ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف التي كتبت في ايام أبي بكر على الوجه الذي ذكرنا في سيرته وأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . وفي رواية لابن عساكر عن مصعب بن سعيد ان عثمان خطب يومئذ في الناس وعزم على كل رجل عنده شيء من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من اكتب الناس قالوا كاتب رسول الله (ص) زيد بن ثابت . قال فأي الناس اعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليمل

سعيد وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس : قال وسمعت بعض اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول : قد أحسن وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما احرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعته انا: فجزا الله عثمان عن الامة خير الجزاء فقد أحسن وبر فيما صنع وكان له فضل في رد الناس الى قراءة واحدة كفضل أبي بكر في جمع القرآن

﴿ زيادته في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول ﴾

في سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الاثمان في بيت المال فصيّحوا (١) بعثمان فأمر بهم الى الحبس وقال أتدرون ماجرأكم علي؟ ما جرأكم الا حلمي قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به. ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجوا. وفي سنة (٢٩ هـ) زاد في مسجد رسول الله (ص) ووسعه وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الاول وكان الجص يحمل اليه من بطن نخل وبناه بالحجارة المنقوشة وجعل عُمُدَه من حجارة فيها رصاص وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه مائة وخمسين ذراعاً وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب

﴿ جملة مآثر له ﴾

من مآثره الجميلة انْ رَزَق المماليك دون ان ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليهم كما مر الخبر عن ذلك في الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته في الاعطيات للناس . ومن مآثره ترتيب الطعام في شهر رمضان لاهل المدينة واقامته دور الضيافات في الكوفة كما روى ذلك

(١) صيح صوّت باقصى طاقته

الطبري : ومن مآثره اقطاعه الارضين التي جلا أهلها عنها للعرب لكي يعتملوا فيها ويعمروها كما مرّ بك الخبر عن مثل ذلك في فتح كرمان وقد كان عمر رضي الله عنه لا يأذن باعتمال العرب في الارضين كما علمت من سيرته وأذن لهم عثمان رضى الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب في البلاد وجلا من جلا من أهلها ورأى ضرورة احياء ما تركوه من الارضين وان يقوم العرب على عمرانها ضناً بها ان تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس

ومن مآثره اتخاذه دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبي صالح مولى العباس قال . ارسلني العباس الى عثمان ادعوه فأتيته في دار القضاء الى آخر الحديث فاذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ في الاسلام داراً للقضاء وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد كما هو مشهور

﴿ أولياته ﴾

نقل السيوطي عن الاوائل للعسكري انّ عثمان أول من اقطع القطائع وأول من حمى الحمى واول من خفض صوته بالتكبير وأول من خلّق (نقش) المسجد . واول من امر بالآذان الاول في الجمعة. وأول من رزق المؤذنين واول من ارتج عليه (من الخلفاء) في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . واول من فوض الى الناس اخراج زكاتهم . وأول من ولي الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . واول من اتخذ المقصورة في المسجد(المشهور ان أول من اتخذها معاوية)وأول ماوقع الاختلاف في زمانه بين الامة فخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطئ بعضهم بعضاً ‪:‬ هذا مانقله

السيوطي من أوائل العسكري وزاد عليه انه اول من هاجر الى الله بأهله واول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة اهـ

باب

« أخلاقه ومناقبه »

(سياسته وعدله)

كان عثمان رضي الله عنه لين الجانب رؤف القلب محسناً الى الرعية ومن أبطرته النعمة وغره حلم الامير . ولم يكن له زاجر من نفسه . ورقيب عليه من خلقه . ربما انقلب الى الاساءة في مقابل الاحسان كما وقع ذلك لعثمان (رض) فيمن أحسن اليهم كمحمد بن أبي حذيفة وامثاله من الذين حرّضوا عليه، وأساؤا اليه ، لذا كانت سياسة اللين والاناة التي اتبعها عثمان محمودة في نفسها مذمومة في نتائجها والعرب وان كانوا يومئذ ذوي اخلاق عالية يندر وجودها في غيرهم من الامم كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والاقدام الا انه كان ينقصهم النظر في العواقب، وعدم التجارب، لبعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ويذري بهم الاستغراقُ في البداوة وفقدُهم لاصول التربية الصحيحة وشرههم الى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة وكل هذا من الامور التي تبعث على حب الشقاق وهدم أركان الالفة وتسرع بخطى الناس الى مواقع الفتن لهذا فالقوم يومئذ قل ان تنجع فيهم سياسة كلها لين بل الانجع فيهم والاولى في تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم . وتستنير بنور الاسلام عقولهم . ومن تأمل فيما جاء به الاسلام من الزواجر القامعة . والقوارع الزاجرة . والوعيد الشديد . علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة في استصلاح القوم وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا

المنهج في سياسة العرب فمضت أيامهما والأمة في شاغل من الرهبة واشتغال بالفتح ليس فيها من يجرأ على شق عصا المسلمين او مناهضة الخليفة في شأن من شؤون الدولة الاّ ماكان من نصيحة يؤدونها أو رأي صالح يبدونه أو كلمة حق يقولونها بسائق الحرية التي ألفوها والواجب الذي يدعوهم الدين اليه فلما ولي عثمان وانكشف لهم من لينه جانب الضعف ناهضه قويّهم واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم حتى اذا أراد ان يبسط على بعضهم يد القوة . ويأخذ منهم على الشكائم . نفروا منه . وتحولوا بكليتهم عنه . فكان احسانه اليهم ولينه معهم سبب اساءتهم اليه . واقترافهم في مذاهب الاختلاف عنه . يدلك عليه ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن سالم بن عبد الله قال

لما ولى عثمان حج سنواته كلها الى آخر حجة حجها وحج بازواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمته وأمر الناس (١) فكتب في الامصار ان توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم وكتب الى الناس والامصار ان أئتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فاني مع الضعيف على القويّ مادام مظلوماً ان شاء الله . فكان الناس كذلك فجرّ ذلك الى ان اتخذه اقوام وسيلة الى تفريق الامة اه (اي بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) وربما يعجب القارئ ان يجر مثل هذا الحلم والتناهي في الرأفة والعدل الى ما كان من الفتن والجرأة على التوثب على الخليفة لكن ما بسطناه من اخلاق القوم

---

(١) الناس تطلق على الواحد فاكثر فقوله امر الناس أي امر واحداً : وفي رواية الطبري فامِنَ الناس وكتب الى الامصار الخ الحديث

يكفي للدلالة على ان عثمان جرّ على نفسه ماجرّ بسياسة اللين التي لا تصلح لقوم شأنهم ماذكرناه لا سيما اذا اضفنا الى هذا من سياسة عثمان رضي الله عنه أمرين عظيمين (الأول) اطلاقه سراح المهاجرين من المدينة وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثاني) استبداله بعض العمال بمن ليسوا في مقدرة من اختارهم عمر للاعمال كسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأشباههما (فاما الامر الاول) فقد ذكروا ان عمر كان حجر على اعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الاّ باذن وأجل (١) وروى ابن عساكر عن محمد وطلحة قالا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان أخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام وكان مغموراً في الناس وصاروا اوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس لها ذلك اه

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذي جرّه على نفسه عثمان بمثل هذه السياسة التي وان كانت في نفسها عدلاً وحسن صنع ومنة على قريش كمنته في بذل جانب اللين والاحسان لعامة المسلمين الاّ انها جاءت قبل اوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة كما سترى ذلك في غير

(١) روى الطبري عن الشعبي قال لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عليهم وقال ان أخوف ما أخاف على هذه الامة انتشاركم في البلاد . فان كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس في المدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألاّ ترى الدنيا ولا تراك .

هذا المحل ان شاء الله

واما الامر الثاني وهو استبداله من هو أقوى من العمال بمن هو هو أضعف فقد كان سببه استضعاف اعدائه له واغترارهم بحبه للانصاف اذا طلب أحد من الناس ان ينصفهم من احد عماله فكانوا يكيدون لعماله المكائد لكي يستعفوه ممن لا يريدونه منهم وكان من اكثر عماله يقظة وأشدهم أخذاً برقاب أهل الفساد وأسدهم سياسة في الرعية عمرو بن العاص فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان وجمع امارتي الخراج والحرب لعبد الله بن سعد ابن أبي سرح وقد كان عبد الله أميراً على الحرب في خلافة عثمان وأميراً على الصعيد الاعلى في خلافة عمر وتوفي عمر وهو أمير على الصعيد ولم يكن ابن أبي سرح بالضعيف ولا الجبان الا أنه كان لهم من سابقته في اهدار رسول الله (ص) دمه وقرابتــه من عثمان وسيلة يتوسلون بها في كل وقت الى مناهضة مثله ومحاجة عثمان بولايته وقد كان ذلك كذلك كما سترى بعدُ. واما تسرع عثمان (رض) في عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس اولئك الناس فقد رواه ابن عساكر عن يزيد الفقعسي قال

لما خرج بن السوداء الى مصر اعمر فيهم (اي لزمهم) فأقام فنزل على كنانة بن بشر مرة وعلى سودان بن حمران مرة وانقطع الى الغافقي فشجعه الغافقي فتكلم واطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم واشباه لهم فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون الى شيء مما يجيبون الى الوصية (اي وصية علي) فقال عليكم نابُ العرب وحجرهم ولسنا من رجاله فأروه انكم تزرعون ولا تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسأل من هو أضعف منه ونخلو بما نريد ونظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكان أسرعهم الى ذلك وأعلاهم فيه محمد بن أبي حذيفة وهو ابن خال معاوية وكان يتيما في حجر عثمان . فلما ولى استأذنه في الهجرة الى بعض الامصار فخرج الى مصر وكان الذي دعاه الى ذلك انه سأله العمل . فقال (اي عثمان) لست هناك فقعلوا ما أمرهم به بن السوداء ثم انهم خرجوا أو من شاء الله منهم وشكوا عمراً واستعفوا منه . فكان كلما نهنه (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم وقال انما هو أمير . انبعث آخرون بشيء آخر وكلهم يطلب عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فقال لهم عثمان اما عمرو فسننزعه عنكم لما زعمتم أنه أفسد واما الحرب فسنقره عليها ونولي من سألتم . فولى عبد الله بن سعد خراجهم خراج مصر وترك عمراً على صلاتها فمشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة واشباههم فيما بين عمرو وعبد الله ابن سعد واغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه وتكاتبا على قدر ما أبلغوا كلٌ واحد منهما . فكتب عبد الله بن سعد (اي لعثمان) ان خراجي لا يستقيم ما دام عمرو على الصلاة فخرجوا فصدقوه واستعفوا من عمرو وسألوا عبد الله فكتب عثمان الى عمرو انه لا خير لك في صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبد الله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبد الله ماشأنك استحيل رأيك : فقال . يا أمير المؤمنين دعني فوالله ما ادري من اين أُتيت وما اتهم عبد الله بن سعد وان كنت لاهل عملي كالوالدة وما قدر العارفُ والشاكر على معونتي اه

وقد تقدم في سيرة عمر وسياسته مع عماله انه كان لا يعزل عاملاً عن شكاة الاّ بعد ان يرسل محمد بن مسلمة لتحقيق وجوه الشكوى ويستقدم الشاكي والمشكو منه الى المدينة ليقف بنفسه على جلية الامر كما انه لم يول

الاعمال احداً من ذوي قرباه لذا لم يجعل لأحد من الناس سبيلاً عليه ولا على عماله الاّ بالحق بخلاف عثمان فانه لما لم يسلك في سياسته مع العمال هذا الطريق الاسدّ والنهج الاوضح واطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى أوجد للقوم سبيلاً اليه فقلبوا له ظهر المجن وملأوا عليه الارض بالفتن كما سيأتي الكلام عليه في محله ان شاء الله

واماّ عدله فما يروى عنه ما أخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال: اشترى عثمان من رجل أرضاً فابطأ عليه فقال ما منعك من قبض مالك . قال انك غبنتني فما ألقى من الناس احداً الا وهو يلومني قال أذلك يمنعك ؟ قال نعم . قال فاختر بين أرضك ومالك ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً او بائعاً. وقاضياً ومقتضياً)

ومنه ما اخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان اصفران فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن اسعارهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على انه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

(أدبه مع نفسه ومع الرسول)

اخرج ابن عساكر عن ابن عيينة انه قال. قال عثمان بن عفان ماتغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا اسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقوله ولا مسست الخ تناه

في الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والاحترام ليده الشريفة التي مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان مع ما عرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له وبذل ماله في سبيل مرضاته فرضي الله عنه وارضاه

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

نقل في الرياض النضرة في فضائل العشرة من رواية ابن السمان عن أبي الفرات قال. كان لعثمان عبد فقال له اني كنت عركت اذنك فاقتص مني. فاخذ باذنه ثم قال عثمان. اشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة

وهذه مكانة من كرم الاخلاق وخفض الجناح والتقوى واعطاء الحق لا يبلغها الا اولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا باخلاق نبيهم عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

من اخباره في التأديب ما اخرجه ابن عساكر عن أبي الزناد انه ذكر ان رجلاً من ثقيف جلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس في خلوته فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه اياه وقال . لا نعود الى مجلسك ابداً الاّ ومعنا ثالث

وروى الطبري ان رجلاً استخف بالعباس في منازعة كانت بينهما فضربه عثمان فقيل له في ذلك . فقال نعم أيُفخِّم رسول الله (ص) عمّه وأُرخّص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله (ص) من فعل ذلك ومن رضي به منه

﴿ تواضعه ﴾

كانت اخلاق عثمان رضي الله عنه كلها فضائل اتشح بردائها وأخذ

نفسه بها ولو لم يأت عليه الكبر فيضعفه وتضطرب سياسته من اجل ذلك في اواخر خلافته فيكون من الطعن عليه ما كان لما شاب سيرته شائبة ولكانت كسيرة صاحبيه واما ما عدا تلك الحوادث التي حدثت له ومهدت لبعضهم سبيل الانكار عليه فهو في المكانة العليا من الاخلاق البارة والشيم الجميلة وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فما جاء من اخبار تواضعه ما اخرجه ابن عساكر في تاريخه عن الحسن قال . رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجيء الرجل فيجلس اليه ثم يجيء الرجل فيجلس اليه ويجيء الرجل فيجلس اليه كأنه أحدهم . وروى عن الحسن ايضاً انه سئل عن القائلة في المسجد فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصا بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين

واخرج عن علي بن مسعدة عن عبد الله الرومي قال كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتني جدتي ان عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله اذا قام من الليل الا ان يجده يقظان فيدعو فيناولوه الوضوء وكان يصوم الدهر

﴿ حياؤه ﴾

كان عثمان (رض) مشهوراً بشدة الحياء وهو خلق جميل وأدب نفسي يزين المرء اذا توسطه ولم يفرط فيه ولعلّ من جملة ما أطمع الناس في عثمان شدة حيائه وحلمه كما أشرنا الى ذلك في سياسته ولا عجب في ذلك فان من الناس من اذا استحييت منه لم يستح منك وجرّأه حياؤك عليك . ومما جاء من اخباره في الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبي جُمَيع الهُجَيمي قال

ذكر عند الحسن حياء عثمان وانا اسمع قال (اي الحسن) كان عثمان ليكون في جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء ان يرفع صلبه

﴿ شفقته على الرعية ﴾

نقل في الرياض النضرة عن سليمان بن موسى ان عثمان بن عفان دعي الى قوم كانوا على أمرٍ قبيح فخرج اليهم فوجدهم تفرقوا ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله اذ لم يصادفهم واعتق رقبةً

واعلم ان الصحابة وأخصهم الخلفاء الاربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداءً بالنبي عليه الصلاة والسلام وسنفرد للكلام على هذا الامر باباً مخصوصاً في هذا الكتاب ان شاء الله

﴿ كرمه ﴾

كرم عثمان معروف وقد سبق في هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العسرة من ماله بما لم يسبق لاحد قبله ولما ولي الخلافة زاد في أعطيات الناس ورزق المماليك كما قدمنا وأغدق على ذوي رحمه ووصلهم وأغناهم وكان هذا مما أُنكر عليه ونقم منه لاجله وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه في البذل والتوسع في المعيشة والتنعم بالرزق ولم يكن ميالاً للتقشف وشظف العيش لذلك فكما كان يحب ان يوسع على نفسه يحب ان يوسع على أهله وعشيرته وليس في هذا ما يقدح في عفته او دينه اذ الدين يأمر بصلة ذوي الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش وطريقة أبي بكر وعمر قبله في الزهد والتقشف التي أخذا بها أنفسهما ليست بالامر المستطاع لكل مسلم وانما هي تورّع واتباع لطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد وهي محموده في نفسها للخلفاء

وليست بواجبة بل الواجب هو القصد وعدم السرف والعفة عن الفضول وقد كان عثمان (رض) عفيف النفس بالضرورة لان الكرم يكون مع العفة لا مع الشره وهو من اكرم الناس ولم ينحصر كرمه في ذوي قرابته بل تعداه الى غيرهم ايضاً ومما يروى عن كرمه غير ما تقدم ذكره ما اخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد بن يربوع بن عنكشة المخزومي قال انطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا فاذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنة او بعض لبنة فقمت انظر اليه اتعجب من جماله ففتح عينيه فقال من انت يا غلام . فاخبرته فنادى غلاماً قريباً منه فقال لي ادعِه فدعوته فامره بشيء وقال اقعد . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم فنزع ثوبي وألبسني الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجعت الى أبي فاخبرته فقال يابني من فعل هذا بك فقلت لا أدري الاّ انه رجل في المسجد نائم لم أرَ قط أحسن منه . قال ذلك امير المؤمنين عثمان

وروى ابن عساكر عن أبي اسحق السرّاج قال . قال لي أبو اسحق القرشي يوماً من اكرم الناس بعد رسول الله (ص) ؟ قلت عثمان بن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت لاني رأيت الكرم في شيئين . في المال والروح . فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله (ص) ثم جاد بروحه على أقاربه . قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون الفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ما قال)

﴿ صلاحه وتقواه ﴾

كان كثير التقوى والقنوت كثير الصلاة كثير قراءة القرآن شديد

الولع به والاستظهار له وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أم مَنْ هو قانت اناء الليل) الآية قال نزلت في عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن اسرائل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان لو انّ قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا اني أكره ان يأتي عليّ يوم لا انظر في المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة ان عثمان كثيراً ما رؤي في المقام يصلي من اول الليل الى بزوغ الفجر

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هيج الناس ما كان جعل رجل يسأل عن أفاضل اصحاب رسول الله (ص) فجعل لا يسأل احداً الاّ ودله على سعد بن مالك (اي ابن ابي وقاص) فجلس اياماً لا يسأله عن شئ حتى استأنس به فذكر الحديث . قال اخبرني عن عثمان: قال كنا اذ نحن مع رسول الله (ص) كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقةً في سبيل الله اه

﴿ باب كتبه وخطبه ﴾

« كتبه »

لما استخلف عثمان (رض) كتب كتباً غراء الى عماله وولاته والعامة يوصيهم فيهابالقيام على الحق وحسن السيرة وقد اورد هذه الكتب الطبري في تاريخه وهذه صورتها

١

﴿ كتابه الى عماله ﴾

اما بعدفان الله امر الأئمة ان يكونوا رعاةً ، ولم يتقدّم اليهم انْ يكونوا جُباةً ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاةً ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكنّ

ائمتكم ان يصيروا جباةً ، ولا يكونوا رعاةً ، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء، والامانة والوفاء،ألا وانّ أعدل السيرة انْ تنظروا في امور المسلمين فتُعطُوهم الذي لهم .وتأخذوا بما عليهم . ثم تثنّوا بالذمة (اي اهل الذمة) فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدوّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء اه

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون في كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة والوفاء للعدوّ المحارب وقد رأيت من هذا شيئاً كثيراً في سيرة عمر (رض) وليت شعري هل للمسلمين ان يعقلوا . وللمسيحيين أهل الذمة والاجانب منهم ان يعدلوا .

٢

﴿ كتابه الى أمراء الاجناد في الثغور ﴾

اما بعد فانكم حماةُ المسلمين وذادتهم (١) وقد وضع لكم عمر ما لم يغبْ عنّا بل كان عن ملإٍ منّا . ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه :

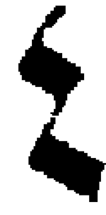
٣

﴿ كتابه الى عمال الخراج ﴾

اما بعد فانّ الله خلق الخلق بالحقّ . فلا يقبل الا الحقّ . خذوا الحق وأعطوا الحق . والامانةَ الامانةَ قوموا عليها . ولا تكونوا اول من يُسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم .

(١) اي المدافعون عنهم

ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم :



﴿ كتابه الى العامة ﴾

اما بعد فانكم انمّا بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتّباع فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم فان امرَ هذه الدنيا صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاثٍ فيكم تكامُل النّعَم (١) وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله (ص) قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا :

٥

﴿ وكتب الى عماله ايضاً ﴾

امّا بعد استعينوا على الناس وكلّ ماينوبكم بالصبر والصلاة وأمرَ الله أقيموه ولا تدهنوا فيه واياكم والعجلةَ فيما سوى ذلك وارضوا من الشرّ بايسرهِ فانّ قليلَ الشرّ كثير . واعلموا ان الذى ألّف بين القلوب هو الذي يفرقها ويباعد بعضَها من بعضٍ . سيروا سيرةَ قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر

٦

﴿ وكتب اليهم ايضاً ﴾

انّ الله ألّف بين قلوب المسلمين على طاعتهِ وقال سبحانه (لو انفقتَ مافي الارضِ جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيتهِ . ولا تعجلوا على احدٍ بحدٍ قبل استيجابه فان الله تعالى قال (لستَ عليهم بمُسيْطرٍ

---

(١) النعم ضد البؤس

الا من تولى وكفر) من كفر داويناه بدوائه ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره ان شاء الله : ابن عساكر :

٧

﴿ وكتب ايام الفتنة الى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) الى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم : اما بعد فاني اذكركم الله الذي أنعم عليكم. وعلمكم الاسلام . وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر . وأراكم من البينات . ونصركم على الاعداء . ووسع عليكم من الرزق . وأسبغ عليكم نعمته فان الله عز وجل يقول (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) وقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . . الى . . يهتدون) ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير . . الى . . المفلحون) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا . . الى عظيم) وقال (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه . . الى . سمعنا وأطعنا) وقال (يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ . . الى . . حكيم) وقال(ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً . . الى . . أليم) وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) وقال (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم . . الى . يفعلون) ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . . الى . . تختلفون) ولا تتخذوا ايمانكم دخلاً بينكم . . الى . . أليم) ولا تشتروا بعهد الله الى تعلمون) ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال (ولا تشتروا بآيات الله : الآية) وقال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم الى تأويلاً) وقال وعد

اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ وعملوا الصالحاتِ ليَستخلِفنّهمْ في الارضِ .. الى .. الفاسقينَ) انّ الذينَ يبايعونكَ .. الى .. عظيماً) ابن عساكر :



﴿ وكتب مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) : اما بعد : فان الله قد رضي لكم السّمْعَ والطاعةَ وكره لكم المعصية والفُرْقةَ والاختلاف وقد انبأكم فعل الذين منْ قبلكم وتقدّم اليكم فيه لتكونَ له الحجة عليكم ان عصيتُموه . فاقبلوا نصيحةَ الله واحذروا عقابهُ فانكم لن تجدوا أمةً هلكت الاّ من بعد ان تختلف ولا يكون لها امام يجمعها . ومتى ما تفعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً قال تعالى (انّ الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شيعاً..الى ..يفعلون) وانى اوصيكم بما اوصاكم الله به وأحذركم عذابَهُ وانّ القرآن نزل لنعتبرَ بهِ وننتهي اليه (اولا ترون الى شعيْب قال لقومه ياقومي لا يجرِمنّكم شِقاقي الى .. ببعيد) وياقومي استغفروا ربّكم .. الى .. ودود) ابن عساكر :



﴿ وكتب كتاباً آخر مثله ايضاً ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) اما بعد فانّ اقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث أظهروا للناس انما يدعونَ الى كتاب الله والحقِ ولا يريدون الدنيا ولا منازعةً فيها فلما عرض عليهم الحق اذا الناس في ذلك شتّى منهم آخذٌ للحق ونازع عنه حين يُعطاه . ومنهم تارك للحق رَغْبةً في الأمرِ يريدون ان يبتزّوه بغير الحق. وقد طال عمري وراث (ابطأ) عليهم أملهم في الامرة واستعجلوا القدرَ . وانى جمعتهم والمهاجرين والانصار فنشدتهم فأدّوا الذي

علموا فكان أوّل ما شهدوا به ان يُقتل من دعا الى نفسهِ او الى أحدٍ : وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (اي الطعانون) وما اجابهم فيه الخ ..) ابن عساكر (١)

١٠

وكتب كتاباً ايام الحصار بعثه مع نافع بن طُرَيْف الى اهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) منْ عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى منْ حضر الحجّ من المسلمين : امّا بعد : فاني كتبتُ اليكم كتابي هذا وأنا محصورٌ أشربُ من بِئْر القصر ولا آكل من الطعام ما يكفيني خيفة ان تنفدَ ذخيرتي فاموت جوعاً انا ومن معي . لا أُدعى الى توبة أقبلها . ولا تُسمع مني حجةٌ أقولها فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي الاّ قَدِم عليّ فأخذ الحقّ فيّ ومنعني من الظلم والباطل (عن الامامة والسياسية)

١١

ومن كتبه التي كتبها للامراء وأهل الامصار يستغيثهم بها كتابه الى معاوية وأهل الشام وهذه صورته

امّا بعد : فاني في قوم طالَ فيهم مُقامي واستعجلوا القَدَرَ فيّ وقد

---

(١) هذا الكتاب والكتابان اللذان قبله اوردهم ابن عساكر متفرقين وأوردهم الطبري في كتاب واحد مع اختلاف قليل في اللفظ وذكر في آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطعانين فيه وما أجابهم عنه مما لم أر حاجة لايراده اذ اوردنا من سيرة عثمان واخبار الفتنة ماهو بمعناه فمن اراد الكتاب برمته فليراجعه في المجلد السادس من تاريخ الطبري

خيَّروني بين انْ يحملوني على شارفٍ (١) من الابل الدحيل (٢) وبين انْ انزع لهم رداءَ الله الذي كساني . وبين أنْ أقيدهم ممن قتلتُ . ومن كان على سلطانٍ يخطئُ ويصيبُ . فياغوثاه ثم يا غوثاه . ولا أمير عليكم دوني . فالعجل العجل يامعاويةوأ درك ثم أدرك . وما أراك تدرك (الامامة..)

١٢

(ومثله ما كتبه لاهل الامصار)

(اما بعد) فانَّ الله بعث محمداً (ص) بالحقّ بشيراً ونذيراً . وبلَّغ عن الله ما أمرَهُ ثم مضى وقد قضى الذي عليه . وخلَّفَ فينا كتابهُ فيه حلالُهُ وحرامهُ . وبيان الامور التي قدَّر فامضاها على ما أحبَّ العبادُ وكرهوا . فكان الخليفة أبو بكر . ثم عمر . ثم دخلتُ في الشورى في غير علمٍ ولا مسألةٍ عن ملاءٍ منَ الأمة . ثم اجتمع أهل الشورى عن ملاءٍ منهم ومنَ الناس عن غير طلب ولا محبة مني . فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون . تابعاً غير مستتبعٍ متَّبعاً غير مبتدعٍ . مقتدٍ غير متكلّفٍ فلما انتهت الامور . وانتكث الشرّ بأهلهِ . بدت ضغائن واهواء على غير اجترامٍ ولا ترةٍ فيما مضى الاّ امضاء الكتاب . فطلبوا امراً وأعلنوا غيرهُ بغير حجةٍ ولا عذرٍ . فعابوا عليّ اشياء عن ملاءٍ من أهل المدينة لا يصلح غيرها . فصبَّرتُ لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله جرْأةً حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرَمهِ وارضِ الهجرةِ . وثابت اليهم الاعرابُ فهم كالاحزاب ايام الاحزاب . أو من غزانا بأُحُدٍ الى ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق

(١) الشارف الناقة المسنة (٢) الدحيل هكذا بالاصل ولم اجد لها معنى فالتحرر

بنا فليلحق اه (عن التمهيد والبيان)

خطبه

(أوّل خطبة له)

قد تقدم معنا في الكلام على استخلاف عثمان (رض) ذكر الخلاف في اول خطبة لعثمان وانّ من المؤرخين من يقول انه أرتج عليه ومنهم من يقول انه خطب وقد أورد هذه الخطبة الطبري في تاريخه من رواية سيف عمن رواها قال

لما بايع اهل الشورى عثمان خرج وهو أشدّهم كآبةً فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فحمد الله واثنى عليه وقال

انكم في دار قُلعةٍ (١) وفي بقية اعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه. فلقد أُتيتم، صُبّحتم أو مُسّيتم، الا وانّ الدنيا طُويت على الغرور فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا ولا يغُرنّكم بالله الغَرُور. اعتبروا بمن مضى. ثم جدّوا ولا تغفلوا فانه لا يُغفل عنكم. أين ابناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها (٢) وعمروها ومُتّعوا بها طويلاً. ألم تلفظهم؟ (٣) ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها. واطلبوا الآخرةَ فانّ الله قد ضرب لها مثلاً فقال عزّ وجلّ (واضرِبْ لهم مثَلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزَلناهُ مِنَ السماءِ .. الى قوله.. أملا)

٢

وفي رواية أخري للطبري ان أول خطبة خطبها عثمان هي هذه

امّا بعد فاني قد حُمّلتُ وقد قبلتُ ألا واني متّبع ولستُ بمبتدع. ألا وانّ لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيّهِ صلى الله عليه وسلم ثلاثاً :

(١) أي عارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ الشيء من فمه : رماه :

اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم : وسنَّ سـنةَ أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملإٍ : والكفَّ عنكم الاَّ فيما استوجبتم. ألا وانّ الدنيا خَضرة قد شهّيت الى الناس ومال اليها كثير منهم فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقةٍ . واعلموا انها غير تاركةٍ الاَّ من تركها : اه

٣

وخطب أيضاً فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

ايها الناسُ اتقُوا الله فأنّ تقوى الله غُنْم وانّ أكيَسَ الناس من دان نفسه (١) وعمل لما بعد الموت. واكتسبَ من نور الله نوراً لظُلمةِ القبور وليَخشَ عبدٌ انْ يحشرَهُ اللهُ أعْمَى وقد كان بصيراً . وقد يكفي الحكيمَ جوامعُ الكلامِ . والأصمُّ ينادي من مكانٍ بعيد. واعلموا أنَّ من كان الله معه لم يخف شيئاً . ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده . اه عن ابن عساكر

٤

﴿ وخطب مرة فقال ﴾

انَّ الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (٢) واني والله لا اكون أول من فتح بابها. ولا أدار رحاها الا واني زامٌّ نفسي بزمام وملجمُها بلجام فاقودُها بزمامها وأكبعها «امنعها» بلجامها ومناولكم طرف الحبل فمن اتبعني حملته على الأمر الذي يعرف ومن لم يتبعني ففي الله خلفٌ منه ، وعزاءٌ عنه ، ألا وانّ لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً . سائقٌ يسوقُها على أمر الله وشاهدٌ يشهد عليها بعملها . فمن كان يريد اللهَ بشيءٍ فَلْيُبشر ، ومن كان انما

(١) أي العاقل من قهر نفسه بمنعها عن الشهوات استعداداً لما بعد الموت

(٢) اي يبلغني عنهم امور شرور وفساد كما في لسان العرب

يريد الدنيا فقد خسر اه (ابن عساكر)

٥

﴿ وخطب وهو محصور فقال ﴾

ايها الناس ان عمر بن الخطاب صيّر الامر شورى في ستة توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راض فاختاروني وأجمعوا عليّ ولم آلوا عن العمل بالحقّ وما توفيقي الاّ بالله. وما أعلم انّ لي ذنباً أكثر من طول ولايتي عليكم ولعلّ بعضكم انْ يقول ليس كأبي بكر وعمر . أجلْ أجلْ لست كهما والاشياء اشباهٌ قريبة بعضُها من بعضٍ وقد زعمتم أنكم تخلعوني فلا دون ان تعرّوني (١) بأمر لا يحلّ لي الاّ خلعها من عنقي . واماّ العتبى فلكم ونعمت العتبى اه (مفتاح الافكار)

٦

﴿ وخطب وهي آخر خطبه ﴾

اماّ بعد ان الله عزّ وجلّ انما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرةَ ولم يُعْطِكُمُوها لتركنوا اليها . انّ الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تُبطرنّكم الفانية ولا تشغلنّكم عن الباقية فآثروا ما يبقى على ما يفنى. فانّ الدنيا منقطعةٌ وانّ المصيرَ الى الله. اتقوا الله جلّ وعزّ فان تقواه جنّة (٢) من بأسه. ووسيلة عنده واحْذَروا من الله الغيَرَ . والزموا جماعتكم لا تصيروا احزاباً (واذكروا نعمةَ اللهِ عليكُم اذ كنتم اعداءً فألّفَ بين قلوبِكُم فأصبحتُم بنعمتِهِ اخواناً اه (رواها الطبري وابن عساكر)

---

(١) عرّه لطخه بشر يريد انهم لا سبيل لهم الى خلعه الا بسبب صحيح يستوجب الخلع ويحل له ترك الخلافة (٢) الجنة الترس والوقاية

باب

« اخبار الفتنة ومقتل عثمان »

{ مبادئ الفتنة }

أجمع الرواة وأهل الاخبار ان عثمان { رض } قضى الشطر الاكبر من خلافته وهو أحبّ الى الناس من عمر { رض } لشدته ورأفة عثمان ولينه واقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء ايديهم من المغانم لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالاموال الكثيرة فانحرفت عنه من اجل ذلك القلوب ونظرت اليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الامصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوّة والاثرة على الملك الى اليوم

أخرج ابن عساكر عن الحسن انه قال ادركت عثمان على ما نقموا عليه قلّ ما يأتي على الناس يوم الا ويقتسمون فيه خيراً فيقال لهم يا معشر المسلمين اغدوا على اعطياتكم . فيأخذونها وافرةً . ثم يقال لهم اغدوا على ارزاقكم . فيأخذونها وافرةً . ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل . الاعطيات جارية والارزاق دارة والعدوّ منفي وذات البين حسن والخير كثير . وما مؤمنٌ يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان . ألفته ونصيحتهُ ومودتهُ . قد عهد اليهم انها ستكون أثرة فاذا كانت انْ تصبروا . قال رسول الله « ص » لأسيد بن حُضَير : ستلقون بعدي أثرة . قال فما تأمرنا . قال انْ تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله : قال الحسن لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بامر رسول الله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق

والخير الكثير . قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلوا والاخرى كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام ما على الارض مؤمن يخاف ان يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم فوالله ما زال مسلولاً الى يوم القيامة اه

اما مبادئ الفتنة فقد قال ابن جرير الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس وأعان على نفسه بافعاله وباستيلاء بني أمية عليه وكان ابتداء الجراءة عليه ان إبلاً من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي العاص فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان . وقيل انه خطب يوماً وبيده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فاخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته . فلما تكاثرت احداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم الى من بالآفاق بذلك وبأن يقدموا لخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان

وقد كان اول ما تكلم به في الخارج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر انْ عابا عثمان في غزوة ذات الصواري التي غزياها مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في البحر سنة احدى وثلاثين وأظهروا عيبه وما خالف به أبا بكر وعمر وانه استعمل عبدالله بن سعد رجلاً أباح دمه رسول الله ونزل القرآن بكفره ونزع أصحاب رسول الله عن الاعمال وولاها مثل عبد الله بن سعد وسعيد بن العاص الى غير ذلك من الكلام الذي ساء عبد الله فعزلهما عن المسلمين في مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجيش الى مصر وأخذ ابن أبي حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان

والذي يؤخذ من سياق اخبار الفتنة التي أوردها الطبري وغيره من المؤرخين ولم يصرح به أحدمنهم وانما هو يستخرج من ثنايا الاخبار انّ بذار الفتنة بذرت في انحاء المملكة وعواصمها الكبرى كمصر والبصرة والكوفة بدعوة سرية قام ببثها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء(وكان يهودياً من حمير واسلم على عهد عثمان) بايعاز جمعية سرية(١) تريد بهذا أحد أمرين اما تفريق المسلمين في الدين او تفريقهم في السياسة وذلك لان الدعوة التي قام بها ابن سبأ مشتركة بين الامرين : الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الاولى وجوب الخلافة لعلي دون غيره والوثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ومن مقتضى الثانية الاعتقاد في النبي صلى الله عليه وسلم انه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته ان هذا الرجل لما اسلم نزل في البصرة على حكيم بن جبلة العبدي واجتمع اليه نفر فأخذ يغريهم بالدعوة التي قام بها فقبلوا منه وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها ايضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم واشباههم فقال لهم : العجب ممن يصدق انّ عيسى يرجع

---

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية في الاسلام وانها طالما قلبت كيان الوجود السياسي وقامت بها دول نرجئه الى سيرة علي بن ابي طالب عند الكلام على الخوارج والشيعة ليرى القارئ ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكانهم من الحياة العالية ايام شبابهم وكيف صاروا الآن الى ارذل العمر وماتت فيهم كل مشاعر الحياة

ويكذب انّ محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة (١) فقبلت منه. ثم قال لهم بعد ذلك انه كان لكل نبي وصي وعليّ وصي محمد فمن أظلم ممن لم يَجزْ وصيّةَ رسول الله ووثب على وصيّه . وانّ عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الامر وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعاته وكاتب من استفسد في الامصار وكاتبوه ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم حتى تم لهم الامر كما سترى بعد

وأنت ترى ان الدعوة في قسمها الاول اي القول بالوصاية سياسية وفي قسمها الثاني اي القول بالرجعة دينية فمصدرها اما ان يكون من جماعة سرّية من غير أهل الاسلام يريدون ادخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق كلمتهم: واما انهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من استفحال الصبغة الاموية في الدولة كما سترى بعدُ: هذا ان كان الجماعة من قريش وان كانوا من غيرهم فانما يريدون التذرع باسباب الرياسة بتقربهم من عليّ او غيره وقد توسل اولئك الاحزاب السياسيون بالدين لانه أقرب الى التسلط على الاذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيء بعد من امور السياسة والاجتماع . ولا يظنن القارئ انّ قيام الدعوة باسم عليّ رضي الله عنه تستلزم انه الداعي لها كلاّ فان هناك اموراً تدل على براعة القائمين بهذا الغرض بتوجيه الافكار الى عليّ لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التي يعرفها يومئذ كل المسلمين

---

(١) الظاهر ان الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك في علي لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ في عليّ وبنيه وقد نقل ابن حزم في الملل والنحل ان ابن سبأ قال لما قتل علي (رض) لو اتيتمونا بدماغه ألف مرة ماصدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً

وحسبك من براءته من هذا الامر الكتب التي جاءت باسمه الى أهل العراق وباسم غيره ايضاً وظهر انها مفتعلة لم يكن لعلي بها علم كما سترى بعدُ وانما هي مكائد تدبر واكثر القوم عنها غافلون يضاف اليها نزوع العرب الى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه عن طريقة صاحبيه في بعض الامور الاجتهادية انحرافاً مهد سبيل الطعن عليه واوجد قلوباً واعيةً حتى من كبار الصحابة لما يقال فيه. ولمّا هالهم اجماع أهل الامصار على الشكوى منه والطعن عليه خذلوه على ظن انه يخلع نفسه من الخلافة وتطفأ بذلك ثائرة القوم فلم يفعل حتى قُتل وهم لاعتزاله منصب الخلافة منتظرون ولقتله كارهون

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبي حذيفة وابن السوداء ومن على شاكلتهم في مصر قيام حمران بن أبان في البصرة لافساد القلوب على عثمان لانه كان حاقداً عليه اذ ضربه على زواجه بامرأة في العدة. واجتراء أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمة والتطلع الى الفتنة وقد تقدم انّ سعيد بن العاص لما ولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأهل القادسية فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الارحبي وعلقمة بن قيس النخعي وثابت بن قيس الهمداني وجُنْدُب ابن زهير الغامدي وعروة بن الجعد وصعصعة بن صوحان وابن الكوّاء وطُلَيحة بن خويلد في أشباه لهم وكانوا يفيضون في ايام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون الى الملاحاة والمشاتمة والضرب فاذا عزلهم حجاب سعيد نهروهم وضربوهم : وقيل انّ سعيد بن العاص قال يوماً انما هذا السواد (يريد سواد الكوفة اي اراضيها) بستان قريش : فقال له الاشتر : السواد الذي أفاء الله علينا باسيافنا تزعم انه بستان لك ولقومك :

وخاض القوم في ذلك فأغلظ لهـم عبد الرحمن الاسـدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه. فمنع سعيد بعدها السمر عنده فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان والسفهاء يغشونهم. فكتب سعيد وأهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم. فكتب ان يلحقوهم بمعاوية وكتب الى معاوية: انّ نفراً خلقوا للفتنة فقم عليهم وانههم وان آنست منهم رشداً فاقبل وان أعيوك فارددهم عليّ:

فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق وأقاموا عنده يحضرون مأيدته فقال لهم يوماً. انكم قوم من العرب لـكم اسنان (اعمار) وألسنة وقد ادركتم بالاسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم. وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلةً. انّ أئمتكم لكم جنّـة (وقاية) فلا تفترقوا عن جنتكم. وان أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون عنكم المؤنة والله لتنتهُنَّ أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم: فقال رجل منهم وهو صعصعة: امّا ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية. وامّا ما ذكرت من الجُنّة فانّ الجنة اذا اخترقت خلص الينا

فقال معاوية عرفتكم الآن وعلمت انّ الذي أغراكم على هـذا قلة العقول. وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً. أعظم عليك أمر الاسلام وتذكرني بالجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمركم. أفقهوا عني ولا أظنكم تفقهون. انّ قريشاً لم تعز في جاهلية ولا اسلام الاّ بالله تعالى لم تكن بأكثر العرب ولا أشدها ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم انساباً،

وأكلهم مروءة ولم يتمنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً الاّ بالله فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عربياً او عجمياً أو أسود أو أحمر الاّ وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته الاّ ما كان من قريش فانهم لم يُرِدْهم أحد من الناس بكيد الاّ جعل الله خده الاسفل حتى أراد الله ان يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك الاّ عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟ أفٍّ لك ولاصحابك . امّا انت ياصعصعة فانّ قريتك شرّ القرى أنتنها بيتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الاّ سبّ بها ثم كانوا ألأم العرب القاباً واصهاراً نزّاع الأمم وانتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأنت شرّ قومك حتى اذا ابرزك الاسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الذلة ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم انّ الشيطان عنكم غير غافل قد عرف بالشر فاغرى بكم الناس وهو صارعكم ولا تدركون بالشر امراً ابداً الاّ فتح الله عليكم شرًّا منه وأخزى : ثم قام وتركهم فتقاصرت اليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال اني قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ابداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة فان أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنّكم الانعام فان البطر لا يعتري الخيار . اذهبوا حيث شئتم فسأكتب الى أمير المؤمنين فيكم . وكتب معاوية الى عثمان

انه قدم عليّ اقوام ليست لهم عقول ولا اديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة انما همهم الفتنة واموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسو بالذين ينكون احداً الاّ مع غيرهم فانه سعيداً ومن عنده عنهم فانهم ليسو لأكثر من شغب ونكير :

فقيل انهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وهو بحمص فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان الى معاوية بردهم الى الكوفة فاطلقوا السنتهم فكتب سعيد يشكوهم فأمره عثمان باشخاصهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص وكان على حمص فقال لهم يا آلة (حزبة) الشيطان لا مرحباً بكم ولا اهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وانتم بعدُ في نشاط خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ثم مضى في تو بيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب الى الله أقلنا أقالك الله . حتى قال تاب الله عليكم وسرّح الاشتر الى عثمان تائباً : فقال له عثمان أحلك حيث تشاء . فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك اليك فرجع الى أصحابه

وقد نقل ابن أبي الحديد وابن الاثير من رواية المدايني زيادة في هذا الخبر وكلاماً طويلا جرى بين القوم وبين معاوية وانهم تطاولوا عليه ومسك أحدهم بلحيته وناقشوه في سيرته فألان لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه فغضب منهم وكتب الى عثمان بأمرهم فأمره باشخاصهم الى عبد الرحمن : ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حباً بالاختصار واكتفاءً بما تقدم من خبرهم معه

﴿كلمة في هؤلاء الناقمين على عثمان﴾

(وفي أهمية تاريخ الصحابة)

انّ من يطالع هذا الخبر من اسراء الاستبداد ، وأليفي الاستعباد ، يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة وأعجب منه عندهم ان يتجاوز عن القوم ولا ينالهم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ اذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة الاسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم الاّ القتل او قضاء الحياة في أعماق السجون ولكن شأن العرب وشأن الاسلام وحكومته يومئذ لايضاهيه شأن الأمم الاخرى وحكوماتها اذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة على حرية الفكر والقول وشرائع الاسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هي معينة لها داعية لتهذيبها وارتقائها فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحقّ وان يقوموا بالقسط ويشهدوا بالحقّ ولو على أنفسهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وفي هذا كله مايجيز لهم الانتقاد على الامراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول بشرط ان لايترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية كالقذف وكل مايمس بالشرف والعرض ويدعو الى اقامة الحد أو اية عقوبة من عقوبات التعزير لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الامصار الاسلامية يظهرون الطعن على عثمان وعماله باسم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس من يجرأ على معاقبتهم او الضرب على أيديهم من العُمّال لانه حقّ من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم النكير الاّ بعد ان ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضى عنه وهذ عين ما يشاهد الآن في الممالك الاوربية ذات الحكومات الشورية

من اطلاق ألسنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير وكثيراً مايلجئون الوزراء الى اعتزال مناصبهم اذا رأوا منهم مايستدعي ذلك فيعتزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين فى ذلك العهد مع امرائهم كما رأيت وترى العبرة فى عثمان رضى الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هي ولا نكران للحق أقل إثماً مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة فى هذا العصر وفى كل عصر ومع هذا فقد افضى الامر الى طرد عماله من الامصار ثم اجلاب الناس عليه بالخيل والرجل من كل مصر وقتله بين ظهراني اخوانه من المهاجرين والانصار. فليت شعري كيف نسي المسلمون تاريخ هذه النشأة التى نشأ عليها اسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم التى عمل بها مؤسسوا دولتهم فاستخذوا بعد ذلك للامراء، واستسلموا للقضاء، حتى صاروا اسراء الاستبداد وتعبدهم الملوك في كل الانحاء، وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من اسلامية ومسيحية ضروب الخسف. وأذاقتهم انواع الامتهان. وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التى كانت تأبي الهضيمة وتغضب للحق فترى الموت والحياة سيان فى سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها

لا جرم انَّ الامة الاسلامية قد أُنسيت ذلك لامرين (الاول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الاصول الثابتة منذ نشؤ الدولة كما سبق بيان هذا في صدر هذا الجزء (والثاني) تحريم العلماء بايعاز الامراء الخوض(١)

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوي وهو من قولهم خاض الماء أي تغلغل فيه فاذا كان مراد القائلين بحرمة الخوض في أخبار الصحابة هذا التغلغل فلا نسلم لهم بحرمته واذا كان مرادهم به المعنى المجازي كالخوض في الباطل ونحوه فهذا مالا ننكره عليهم بل هو مما نقوله ونسلم به وأنا أريد بالخوض هنا المعنى الاول فليتنبه له

في تاريخ الخلفاء الراشدين واخبار الصدر الاول التي كلها حياة . كلها عبر . كلها حرية . وليس في كل ما كان بين الصحابة من الامور العظام ، والفتن الجسام ، ما يدعو ديناً أو أدباً الى اجتناب الخوض في اخبارهم والنظر في تاريخهم تعظيماً لهم واحتراماً لجانبهم وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب اليه خُدّام الامراء من بعض العلماء اذ لوكان في اخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً او أدباً لاستلزم انها اعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم وهذا باطل بالبداهة والحقيقة هي انّ هذا التحريم لم يكن الاّ بايعاز الامراء الجبارين ، والزعماء المستبدين ، لان تاريخ الصدر الاول واخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم ، ومقاصد عالية تعلي شأن اولئك الرجال ، ووالله ليس في تاريخ من تواريخ الأُمم في بدء نشأتها وابان ظهورها ما في تاريخ الخلفاء الراشدين ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمى كلها الى غرض الحرية وتمحيص الحق مما قلّ ان يكون في أمة حديثة النشأة. ودولة جديدة التكوين . امّا انّ فريقاً منهم اخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بغى . وفريقاً بغي عليه . فهذا الحكم انما هو تابع للمقاصد والمقاصد كانت كلها متجهة الى تمحيص الحق والرغائب العالية فمن العبث ان يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد انه على صواب . ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فانّا مع اعتقادنا انّ عثمان رضي الله عنه خير من كثير غيره ممن أَتى بعده من الخلفاء ومع علمنا انه لم يأت من حب النفس او الاثرة بجزء مما يأتيه حتى أَشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الامويين او العباسيين او غيرهم فان اولئك الثائرين على عماله الناقمين منه مهما كان الدافع لهم الى ذلك العمل فان غايتهم التي يقصدون اليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين

ومنافع الأمة كما تعوّدوا ذلك من الخليفتين السابقين وان كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما لهذا لم يستطع ان يعد اليهم العمال يد السوء فهم اذا أوخذوا فانما يؤاخذون من جهة انهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة اليه وانهم غلوا في ذم سيرته تذرعاً لمحو الصبغة الاموية من الدولة غلوّاً يلامون عليه، ما دام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون اليه ،

واما قتلته فانهم أخزاهم الله ليسو بمؤآخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة كحذيفة بن اليمان واضرابه وهم مسؤلون عن عملهم دون غيرهم وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جناية كبرى كما سنشير اليه بعدُ ان شاء الله

اذا تقرر هذا فاعلم انّ اخبار الصحابة انما حرم بعضهم الخوض فيها لانها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة ونفوسهم بالعزة وهم بالضرورة قدوة الأمة والمنادون منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحقّ فوقوف الناس على أخبارهم والاخذ والرد فيما حدث بينهم يحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة الى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس لهذا ولمّا كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا الهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها فأوعزوا الى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباهها في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق الاّ اذا صح نسبة أكثر تلك الكتب الى الواقدي والاصمعي فانها تكون في عصر العباسيين وذلك ليتلهّى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق والتشبه بسلف الأمة ورجالها ورافعي

دعامة دولتها في مناهضة ارباب العتو والجبروت ومحي الاستبداد وآلهة الملك : هذا ما آراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب

﴿ ما أنكره الناس عليه ﴾

(واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه)

ذكر الطبري في تاريخه وابن قتيبة في الامامة والسياسة وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن خلدون في التاريخ الاحداث التي كانت على عهد عثمان رضى الله عنه وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه وزاد بعضهم على بعض ونقل بعضهم مالم ينقله البعض فرأيت ان استقصى هنا مانقلوه ليضعه القراء موضع المحاكمة والبحث

فنها اتمامه الصلاة في منى وعرفة مع انّ الامر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر . ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها اخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الربذة . ومنها سقوط خاتم النبي من يده في بئر أريس . ومنها افشاؤه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر . ومنها صلته لأهله وبنى عمه بالاموال واقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس واستئثاره برأيه ورأيهم وتركه المهاجرين والانصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم وانه أعطى مروان خمس غزوة افريقيا ووصل عبد الله بن خالد ابن أسيد باربعمائة الف درهم وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين وأعطى أبا سفيان ابن حرب مائتي الف درهم وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فاعطاه مائة الف من بيت المال . وحمى الحمى (المراعي) حول المدينة الا عن بني أمية

وردّ الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله الى المدينة وأعطاه مائة الف درهم . ومنها مجاوزته الخيزران الى السوط وانه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس. ومنها تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته. ومنها ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعاً من اضلاعه.

هذه هي الاحداث التي نقمها الناس على عثمان وآخذوه عليها وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأي كبار الصحابة على انّ ما صح منها وان كانت احداثاً الاّ انها لا تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه. ولعثمان رضى الله عنه اعذار اعتذرها عن بعض ما عزي اليه ونقمه القوم منه فمنها ما رواه الطبري في أخبار سنة (٢٩ ﻫ) انّ عثمان صلّى بمنى اربعاً (اي صلاة المقيم) فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال . هل لك في أخيك قد صلّى بالناس أربعاً. فصلّى عبد الرحمن باصحابه ركعتين ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له: ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين؟ قال بلى . قال أفلم تصلّ مع أبي بكر ثم عمر ركعتين؟ قال بلى . قال ألم تصلّ صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال بلى فاسمع مني يا أبا محمد اني أُخبرت انّ بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي انّ الصلاة للمقيم ركعتان هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة اهلاً فرأيت ان أُصلّي اربعاً لخوف ما أخاف على الناس. وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولي بالطائف مال. فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شيءٌ لك فيه عذر اما قولك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها اذا شئت وتقدم بها اذا شئت انما تسكن بسكناك . واما قولك ولي مال بالطائف فانّ بينك

وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف واما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا امامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الاسلام فيهم قليل ثم أبو بكر مثل ذلك ثم عمر فضرب الاسلام بجرانه فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين . فقال عثمان هذا رأي رأيته

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن ذباب قال . صلى عثمان بأهل منى اربع ركعات فلما انصرف (اي بوجهه) اليهم قال اني صلّيت بكم اربعاً اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أتى أهل المسافر في بلدة فهو من أهلها يصلي صلاة المقيم اربعاً واني تأهلت بها منذ قدمتها فلذلك صلّيت بكم اربعاً

فاذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لعبد الرحمن اعتذار صحيح لاسيما وانه صلى لدفع شبهة جفاة الاعراب في اعتباره مقيماً لزواجه في مكة فاذا صلى صلاة القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة في جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ففعل ما فعل من قبيل البلاغ والاحتياط

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر في اعتذاره عن الحمى الذي حماه عن ابي سعيد مولى أبي أسيد الانصاري قال : سمع عثمان بن عفان انّ وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فلما سمعوا به أقبلوا نحوه وكره ان يقدموا عليه المدينة فأتوه فقالوا له ادعُ بالمصحف فافتح السابعة . وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية (قل أرايتُمْ ما أنزلَ اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتُمْ منهُ حراماً وحلالاً . قل اللهُ اذنَ لكم أمْ على الله تفترُون) قالوا له قف أرأيت ما حميت من الحمى

أللهُ أذِنَ لك أم على الله تفتري: فقال امضه نزلت في كذا وكذا فاما الحمى فانّ عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى كما زادت إبل الصدقة : وزاد عليه في بعض الروايات : اني قد وليت واني لأكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي

وهذا الخبر يدل على انه حمى من المراعي حول المدينة زيادة عما كان حماه عمر فعدوها مخالفة لعمر ونقموها منه

وقد أجمع الرواة وأهل الاخبار أنّ ما نقموه من عثمان في تقريبه أهله منه وصلتهم بالاموال قد تأوّل فيه الصلِةَ التي أمر الله بها وقال انّ أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأخذت ما هو لي فقسمته في أهلي: ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه ان يستعيد ما أعطاه لمروان ولخالد بن أسيد فاستعاده منهما ورده لبيت المال

وفي حديث طويل رواه ابن عساكر في اعتذار عثمان عما أنكروه عليه قال فيه بعد اعتذاره عن الاشياء المتقدمة بمعنى ما تقدم : وقالوا اني رددت الحكم والحكم مكي سيره رسول الله الى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الاحداث ولم استعمل الاّ مجتمع محتمل مرضي (يريد به عبدالله ابن عامر) وهؤلاء أهل عمله (اي اهل البصرة وكانوا حضوراً) فسلوهم عنه وقد ولّى من قبلي أحدث منه وقيل في ذلك لرسول الله (ص) أشد مما قيل لي في استعماله أسامة بن زيد . وقالوا اني اعطيت ابن أبي سرح مما أفاء الله عليه واني انما نفلته خمس ما افاء الله عليه من الخمس فكان مائة الف قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر . فزعم الجند انهم

يكرهون ذلك فردّدته عليهم وليس ذلك لهم . الى آخر الحديث وقد مر ما هو بمعناه

هذه اعذار عثمان رضي الله عنه التي اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين عنه اذ كانوا يريدون منه سيرة أبي بكر وعمر وانْ يحذو حذوهما في التعفف والتقشف والسير على طريق النبوّة الذي لا يستطاع لكل الناس وقد جاهرت له بذلك أم سلمة احدى أمهات المؤمنين ونصحته بتوخي السبيل التي توخاها أبو بكر وعمر في كلام طويل أجابها عنه بما يأتي

يا أمّنا قد قلتِ فوعيتِ وأوصيتِ فاستوصيتِ . انّ هؤلاء النفر رِعاعٌ غثَرَة (١) تطأطأتُ لهم تطأطؤَ الماتح الدِلاء (٢) وتلدّدت (٣) لهم تلدّد المضطر . فأرانيهم الحقُّ اخواناً، وأراهموني الباطلُ شيطاناً ، أجرَرْتُ المرسون (٤) منهم رسنَه وأبلَغْتُ الراتعَ مَسقاهُ . فانفرقوا عليَّ فرقاً ثلاثاً فصامت صمتُهُ أنفذُ من صولِ غيرهِ : وساعٍ اعطاني شاهدَهُ ومنعني غائبَهُ : ومرخّص له في مدة رِينَتْ (٥) على قلبهِ . فأنا منهم بين ألسنٍ لِدَادٍ (٦) وقلوبٍ شِدَادٍ ، وسيوفٍ حِدَادٍ ، عذيري الله ألا ينهي منهم حليمٌ سفيهاً . ولا عالم جاهلاً . والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون، ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون

﴿ ظهور الفتنة ﴾

لمّا فشت الاذاعة في الامصار . وسرت روح الثورة في الصدور .

---

(١) سفلة (٢) اي الذي يتناول الماء من اعلى البئر (٣) تلفت يميناً وشمالاً (٤) امكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته واهملته يرعى كيف شاء (٥) اي أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه (٦) اي شديدة الخصومة

وامتلأت القلوب بالسخائم من عمال عثمان ، ومما يدسه دعاة الثورة في الاذهان ، وكثر الطعن والارجاف على الامراء . اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة اربع وثلاثين وكان قبلها قد ولّى على الاعمال امراء من قِبَله فولى الاشعث بن قيس على آزربيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همذان والسائب بن الاقرع على اصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجُرَير بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عُتَيْبة بن النَّهّاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو وخرجوا لاعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان واستخلف عمرو بن حُرَيْث وخلت الكوفة من الرؤساء فاغتنم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم فبادره القعقاع بن عمرو . فقال انما نستعفي من سعيد ابن العاص فتركه وكتب يزيد الى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص في القدوم فساروا اليه وسبقهم الاشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم « اي من العطاء » ورد أولى البلاء منكم الى الفين ويزعم انّ فيئكم بستان قريش : فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والافك المفترى ونادى يزيد في الناس من شاء ان يلحق بيزيد لردّ سعيد فليفعل فخرجوا وذوو الرأي يعزلونهم فلا يسمعون وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد وردّه . فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال انما كان يكفيكم ان تبعثوا واحداً اليّ والى عثمان رجلاً . وقال مولى له ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع فقتله

الاشتر: ورجع سعيد الى عثمان فأخبره بخبر القوم وانهم يختارون أبا موسى الاشعري فولاه الكوفة وكتب اليهم

اما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لاقرضنكم عرضي ولابذلنّ لكم صبري ولاستصلحنكم بجهدي. فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه الاّ سألتموه. ولا شيئاً كرهتموه لايُعصَى الله فيه الاّ ما استعفيتم منه. أنزل فيه عند ما أحببتم حتّى لايكون لكم عند الله حجةٌ ولنصبرنّ كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون

ولما انتهى اليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الاشعري وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا وكان جاء بعض الامراء من قرقيسيا وحلوان وغيرها لاجل استصلاح القوم فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من قرب الكوفة

وكانوا يسمون اليوم الذي ثاروا فيه لرد سعيد يوم الجرعة باسم المكان وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبري ونقلها غيره من المؤرخين ومؤداها انّ اهل الكوفة أجمع رأيهم ان يبعثوا الى عثمان ويعذلوه فيما نقم منه فاتفقوا على ارسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنبر: فأتاه وقال له انّ ناساً اجتمعوا ونظروا فى اعمالك فوجدوك ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه: فقال عثمان ألا تسمعون الى هذا الذي يزعم الناس انه قارئ ثم يجيئ يكلمني في المحقرات (أي الصغائر) و والله لايدري اين الله: فقال عامر بلى والله اني لادري انّ الله لبالمرصاد:

فأرسل عثمان الى معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وسعيد بن العاص

وعبدالله بن عامر وعمرو بن العاصي وكانوا بطانته دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم : انّ لكلّ امرئ وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ماقد رأيتم وطلبوا اليّ ان اعزل عمالي وان ارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف انّ لكل قوم قادةً متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية أشير عليك ان تأمر امراء الاجناد فيكفيك كلّ رجل منهم ماقِبَلهُ وا كفيك أنا أهل الشام . وقال عبدالله بن سعد انّ الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم. ثم قام عمرو بن العاص فقال يا اميرالمؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بني أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل : الى آخر ماقال وقد اوردنا قوله في سيرته في الجزء الثالث . وهذا الرأي هو انجع الآراء واحسمها لمادة الفتنة ولو تبعه عثمان رضى الله عنه واعتدل في ميله لبني أمية وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطانته وأهل شوراه كما كان الحال على عهد الخليفتين لما اجترأ احد على قتله ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة واذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجا من القتل وقضى بقية حياته محترم الجانب مكرماً من الناس لسابقته وسنه وتقواه . ولعلّه أراد ذلك فما مكنه بنو أمية مما يريد بعد ان صارت اليهم مقاليد الامور ولله في هذا شأن هو بالغه

رأى عثمان ان يشغل الناس عنه بالحروب والغزوات كما أشار عليه ابن عامر فردّ العمّال الى اعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم

فيها شغل : وهذا دواء وقتي لايستأصل ذلك الداء بل هو من قبيل وضع المخدّر على محل الألم لايلبث ان يسكن ساعة ثم يعود . ولمّا رجع الامراء وعاد سعيد الى الكوفة لقيه القوم بالجرعة فردّوه كما مرّ في الخبر الأوّل

استمر الناس ينالون من عثمان في المدينة وغيرها ويتكاتب بعضهم الى بعض وليس أحد من الصحابة ينهى الاّ نفر منهم كانوا يذبون عنه مثل زيد ابن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه فاجتمع الناس الى علي بن أبي طالب فكلموه في ذلك فدخل على عثمان: وقال : الناس ورائي وقد كلموني فيك . والله ما أدري ما أقول لك ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لاتعرفه . انك لتعلم ما أعلم ماسبقناك الى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خُصصنا بأمر دونك وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول الله رحماً ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم ينالاه وما سبقاك الى شيء فالله الله في نفسك فانك والله ماتبصر من عمي ، ولا تعلم من جهالة ، وانّ الطريق لواضح بيّن، وانّ اعلام الدين لقائمة ، اعلم ياعثمان انّ أفضل عباد الله امام عادل هدي وهدى فاقام سنةً معلومة ، وأمات بدعةً متروكةً ، فوالله انّ كلاً لبيّن ، وان السنن لقائمة لها اعلام ، وانّ البدع لقائمة لها اعلام ، وانّ شرّ الناس عندالله امام جائر ضلّ وأضلّ فأمات سنةً معلومةً ، وأحيا بدعةً متروكة ، واني أحذرك الله وسطواته ونقماته فان عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون امام هذه الامة الذي يُقتَل فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويتركها شيعاً لا يبصرون

الحقّ لعلوّ الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان : قد علمتُ والله ليقولنّ الذي قلت . أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولاعبت عليك . وما جئت منكراً ان وصلت رحماً وسددت خلّة (حاجة) وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي . أنشدك الله ياعليّ هل تعلم انّ المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم : قال فتعلم انّ عمر ولاه ؟ قال نعم :قال فلم تلومني ان وليت ابن عامر في رحمه وقرابتـه ؟ قال عليّ انّ عمر كان يطأ على صماخ (اذن) من ولى . ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة. وأنت لاتفعل . ضعفت ورققت على اقربائك . قال عثمان وهم اقرباؤك ايضاً : قال أجل انّ رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم:قال عثمان هل تعلم انّ عمر ولى معاوية فقد وليته ؟ فقال عليّ أنشدك الله هل تعلم ان معاوية كان أخوفَ لعمر من يرْفأَ غلام عمر ؟ قال نعم : قال عليّ فان معاوية يقتطع الامور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه :

ثم خرج علي من عنده وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال:

امّا بعد فانّ لكل شيءٍ آفةً ، ولكل أمرٍ عاهةً وانّ آفة هذه الامة وعاهة هـذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ماتحبون ويسترون عنكم ما تكرهون يقولون لكم ويقوّلون ، أمثال النعام يتبعون اول ناعق . أحب مواردهم اليهم البعيد ، لايشربون الاّ نغصاً (كدراً) ولا يردون الاّ عكراً ، ولا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الامور، الاّ والله فقد عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله . ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتـكم كتفي ، وكففت يدي

ولساني عنكم فاجترأتم علي ، أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً وأحرى ، ان قلت هلم أتي اليّ ، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابي ، واخرجتم مني خلقاً لم اكن أحسنه ، ومنطقاً لم انطق به ، فكفوا عني السنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم فاني كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه :

فقام مروان بن الحكم فقال ان شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف. نحن وانتم والله كما قال الشاعر

فرشنا لكم اعراضنا فنَبَتْ بكم مغارِسُكُم تبنون في دِمَنِ الثرى

فقال عثمان اسكت لاسكت دعني واصحابي ما منطقك في هذا ألم اتقدم اليك أن لا تنطق. فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر فاشتد قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه

﴿ اقبال من اقبل لحصار عثمان وقتله ﴾

رأيت مما تقدم الى أيّ حد بلغ تيار الفتنة وغليان السخائم في الصدور وتأجج نار الثورة في الاطراف وشيوع الطعن على عثمان وعماله في كل مصر من الامصار الكبيرة وانّ سببه استئثار بني أمية بعثمان وانقطاعهم اليه وركونه اليهم دون المهاجرين والانصار ثم تذرع دعاة الفتنة بهذا الى الانكار عليه ومؤاخذته على امور فيها ما يعتذر عنه واستنهاضهم الناس بهذا للجرأة عليه وطرد عماله وخلعه من منصب الخلافة وليس من يذب عنه وينتصر له الاّ نفر قليل من الصحابة وما عداهم من المهاجرين والانصار

كلهم ناقم منـه مغض عن نصرته ينتظر منه اما الرجوع الى سيرة أبي بكر وعمر واما التخلي عن منصب الخلافة ليكون الامر كما قال عمرو بن العاص بين الناس شرعاً سواء . وذلك لان الامة كما علمت جديدة النشأة ميالة بفطرتها الى الحرية والمساواة وقد اعتادت من أبي بكر وعمر العدل بين الناس في المعاملة وعـدم استئثارهما بشيء من امور الدولة او انقطاعهما بالرأي والمشورة الى فريق مخصوص من النـاس وهو ما تنزع اليه اخلاق القوم ويأمر به الاسلام لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأي والانقطاع الى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه وعلى كبار الأمـة ووجوه الصحابة بالامور هالهم ذلك وخافوا من ان تنقلب الدولة أموية بعد ان كانت شورية اسلامية ليس لقوم ان يستأثروا بشأن من شؤونها دون آخرين ومما لا ريب فيه انّ الدولة اذا اصطبغت بصبغة قومية وغلب على امورها قوم دون آخرين لا تلبث ان تتنازعها اطماع الغالبين بحـكم القوّة والعصبية التي تتخلل جسم الدولة ومن ثم ادرك الصحابة وبالخصوص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الامر وخافوا من اصطباغ الخلافة بالصبغة الاموية اذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاليد امورها هم بنو أمية فلما رأوا انّ الأمة تجاري رغائبهم وتشاركهم بالاحساس بمثل هـذا الخطر لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد في استجاشة الخواطر عليه كطلحة ابن عبيدالله ونفر غيره ممن كان يكاتبهم أهل الامصار كما سترى بعدُ ولـكن لم يبلغ منهم الامر مبلغ اهدار دمه او الممالئة على قتله معاذ الله وانمـا هم أرادوا الوصول الى خلعه فقط فغلب على رأيهم جفاة الاعراب لما عظمت الفتنة وأشتد صخب المتألبـين عليه لمـا أبى الاعتزال وترك منصب

الخلافة ومع هذا فقد كان عامة اهل المدينه أخف وطأة وألزم للصبر والاناة من أهل الامصار الذين ملأوها عليه بالفتنة شأن الأمم التي تجري منها قوّة الشباب مجرى الروح من الجسم فلا تبصر اذا اندفعت لأمر في ايّ طريق تسير

لهذا لما تواترت الاخبار وتوالت على أهل المدينة الاذاعات الفاشية في الامصار أرادوا التثبت من الامر والأخذ بالاحوط رأفة بعثمان رضي الله عنه فأتوه وسألوه عن علمه بما يجري في الامصار واخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنده علما وقال لهم أشيروا عليّ وانتم شهود المؤمنين: قالوا تبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر فارسل محمد بن مسلمة الى الكوفة. وأسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمّار بن ياسر الى مصر وغيرهم الى سواها. فرجعوا وقالوا ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين. هكذا نقل الطبري وابن الاثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزيدوا وظاهر انهم يريدون من عدم انكارهم لشيءٍ اي من سيرة العمال التي يتذرع بها الناقمون الى الثورة وهذا يؤيد ما قلناه من انّ ما نقموه من عثمان هو غير ما نسبوه الى عماله واليه من الاحداث التي أكثرها مما يمكن الاعتذار عنه وانّ استيلاء بني أمية على عثمان واستبداده واياهم بالامر هو العلة الحقيقية في تذمر المتذمرين ولو كان هناك شيءٌ مما يذيعه الناقمون من المظالم وسوء سيرة العمال لما خفي على اولئك الرسل وهم من خيرة الصحابة ولكان العلماء افضوا اليهم به ولم يكتموه وكذا العامة على أنّ تلك العلة الحقيقية ليست بالامر الهين ايضا كما علمت لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية والخطر على حياة الشورى والخطر على المترشحين لهذا

المنصب من المهاجرين يضاف الى هذه العلة ما يدسه دعاة الفتنة كعبدالله سبأ ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهما للناس وما يجهر به عمار ومحمد بن أبي بكر وابن جعفر من التشنيع على عثمان انتقاماً لانفسهم منه لامور سبقت له معهم (١) ورغبة في مصير الخلافة بعده الى عليّ رضي الله عنه يدلك عليه ما رواه بن عساكر عن عمرو بن محمد قال بعثت ليلى بنت عميس الى محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فقالت . انّ المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس فلا تأثما في أمر تسوقانه الى من لا يأثم فيه . فانّ هذا الامر الذي تحاولون اليوم لغيركم غداً فاتقوا ان يكون عليكم اليوم حسرةً عليكم غدا . فلجّا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ما صنع بنا عثمان وتقول ما صنع بكما الاّ ما ألزمكما الله ه

هذا ولما رجع الرسل من الامصار تأخر عمّار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه وكتب عثمان الى أهل الامصار كتاباً هذه صورته عن ابن عساكر

امّا بعد فاني آخذ العمّال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة

(١) روى الطبري عن سعيد بن المسيب انّ سائلا سأله ما الذي دعا محمد ابن أبي حذيفة الى الخروج على عثمان فقال كان يتيماً في حجر عثمان وكان عثمان والي ايتام اهل بيته ومحتمل كلهم فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولي فقال يا بني لو كنت رضي ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك • قال فأذن لي فلاخرج فلاطلب ما يقوتني • قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير عليه ان منعه الولاية • قيل (اي للشعبي) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب كلام فضربهما عثمان : واما محمد ابن أبي بكر فقد اخرج ابن عساكر والطبري انه لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فنقمها منه محمد وسيأتي خبره في غير هذا المحل ان شاء الله

منذ وليت على الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يرفع الي شيء علي او على احد من عمالي الا اعطيته . وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية الا متروك لهم. وقد رفع الي أهل المدينة ان اقواماً يُشتمون وآخرين يُضربون . فيا من ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم «موسم الحج» وليأخذ بحقه كيف كان مني أو من عمالي . او تصدقوا فان الله يحب المتصدقين

فلما قرئ هذا الكتاب في الامصار بكى الناس ودعوا لعثمان . وما أطوع الانسان ، لرب الاحسان، ولو ثبت على مثل هذا عثمان (رض)ولم يحفل باغراء مروان ومن على شاكلته ومضى في تألف الناس على وجهه لما تمكنت جذور الفتنة في البلاد ، وقعد له القوم بالمرصاد ،

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الامصار ان يوافوه في الموسم فقدموا عليه وهم عبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة اني والله لخائف ان تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب « يحاط » هذا الا بي . فقالوا له ألم يرجع اليك رسلك ويخبروك ان احداً لم يشافههم بشيء والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الامر اصلاً ولا يحل الاخذ بهذه الاذاعة : فقال اشيروا عليّ : فقال سعيد هذا امر مصنوع يلقى في السر فيتحدث به الناس . ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذي عليهم اذا أعطيتهم الذي لهم فانه خير من ان تدعهم : وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم الا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأي حسن الادب :

وقال عمرو بن العاص أرى انك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى ان تلزم طريقة صاحبيك فتشد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين :

فقال عثمان قد سمعت كل ما اشرتم به علي ولكل أمر باب يؤتى منه . انّ هذا الامر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وانّ بابه الذي يغلق عليه ليفتحنّ . فنكفكفه (١) باللين والمواتاة (٢) الاّ في حدود الله فانْ فتح فلا يكون لاحد عليّ حجة . وقد علم الله اني لم آل (٣) الناس خيراً وانّ رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها . سكنوا الناس وهبُو لهم حقوقهم فاذا تُعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان الى المدينة وعاد معه القوم دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : أنتم أصحاب رسول الله (ص) وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لا يطمع فيه أحد غيركم اخترتم صاحبكم (يعني عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع اني ارجو ان يكون أكرم على الله ان يُبْلغه ذلك وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم فوالله ان طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً ألاّ ادباراً :

ولا يخفى على اللبيب انّ معاوية يعرض بالقوم ويشير الى ما في نفوسهم من الطمع بالخلافة وانهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها اليهم بالضرورة لهذا انتهره عليّ رضي الله عنه وقال له: اسكت لا أم لك:

(١) ندفعه (٢) حسن الموافقة (٣) لم أفتر ولم أقصر

فقال دع أمي فانها ليست بشرّ أمهاتكم قد أسلمت وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم وأجبني عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن اخي أنا أخبركم عني وعما وليت . انّ صاحبيَّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً وانّ رسول الله (ص) كان يعطي قرابته وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه فان رأيتم ذلك خطأ فردوه فامري لامركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنت . قد أعطيت عبدالله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين وقال له معاوية اخرج معي الى الشام فانهم (اي اهل الشام) على الطاعة قبل ان يهجم عليك مالاقبلَ لك به : فقال عثمان لا ابيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عنقي . قال فان بعثت اليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة ان نابت : قال اضيق على جيران رسول الله : فقال والله لَتُغْتَالَنَّ ولتُغْزَيَنَّ فقال حسبي الله ونعم الوكيل

﴿ وصية معاوية للمهاجرين بعثمان ﴾

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر فمرّ على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : انكم قد علمتم ان هذا الامر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منهم أحد الاّ وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الامور دونه ولا يشهده ولا يوآمره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من اتبعه فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقُدْمة والاجتهاد . فان أخذوا بذلك وقاموا كان الامر أمرهم

والناس لهم تبع . وان صغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سُلبوا ذلك وردّه الله الى من جعل له الغَلَب وكان يرأسهم أولاً فليحذروا الغيرَ فان الله على البدل لقادر وله المشيئة في ملكه وأمره . اني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه (١) تكونوا أسعد منه بذلك : ثم ودعهم ومضى

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه وأوردها غيره مختصرة فاحببت نقلها عن ابن عساكر لانها أجمع وكل مافيها غرر تاريخية تبين ما كان عليه حال العرب قبل الاسلام وما صاروا اليه بعده وان التفاضل في في الاسلام ليس الاّ بالسابقة وان الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية انما صارت الى السابقين بسبقهم فاذا انتهت الى التغالب صارت الى من دخل الاسلام بعدهم لان في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد انبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغني الحيطة من الوقوع فيه مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشرأبت أعناق غير السابقين الى ما كان لهم بحكم الجامعة الاسلامية والاستحقاق وليت تلك الروح لم تكن كانت في عصر كان الناس فيه أحوج الى خلافة عثمان وعليّ واضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا باداب النبوة فكانوا أرأف بالامة وألزم لطريقة الشورى والعدل وكان يرجى لو استمرت جيلاً آخر نمو مبادئ الشورى في الدولة ونشوء الجيل القابل على حبها والتوجه الى وضع قواعدها على أصول ثابتة لاتقوى عليها ايدي المستبدين واطماع الطامعين على ان اولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله وصدقوا نصيحته اذ قال علي : ان كنت لأرى ان في هذا

(١) ارفقوا به

خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

هذا ولما دعا عثمان (رض) الامراء الى الموسم وخلت منهم البلاد اتّعد المنحرفون عن عثمان ان يثبوا في مغيب الامراء فلم يتهيأ لهم ذلك فلما رجع الامراء كتب بعض أهل المدينة الى المنحرفين عن عثمان في الامصار بالقدوم عليهم وكان الذين يكاتبون أهل مصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعمار بن ياسر وسراً أناس من الناس كما في رواية ابن عساكر من حديث طويل

فتكاتبوا من امصارهم في القدوم على المدينة فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة او قتيرة بن فلان السكوني وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والاشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبدالله بن الاصم العامري . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وذريح بن عبَّاد وبشر بن شُرَيح القيسي وابن المحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج ولما كانوا من المدينة على ثلاثة مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب وتقدم ناس من اهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فنزلوا الاعوص ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في عليّ وتركوا عامتهم بذي المروة . وقال زياد بن النضر وعبد الله بن الاصم من أهل الكوفة لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا انهم عسكروا لنا

فوالله ان كان حقاً لا يقوم لنا أمر . ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وامهات المؤمنين وأخبروهم انهم انما أتوا للحج وان يستعفوا من بعض العمال واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا الى أصحابهم فتشاوروا في ان يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق الى من هواهم فيه وقال كل فريق منهم ان بايعنا صاحبنا والا كذبناهم وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم

هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد وهو في الظاهر دهاء وتحيل على نيل المقصود الا ان الحقيقة ان ليس في القوم رجل على بصيرة من الأمر اذ لو فرض ان عثمان رضي الله عنه اصبح غير أهل للخلافة ووجب على الأمة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاةً للشرع أفلا يكون من المصلحة التي يتحراها اولئك الثائرون لانفسهم وللأمة ان لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق وان تتوجه القلوب الى مقصد واحد ووجهة واحدة حتى بذلك تتم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد مما كان فيه من الاضطراب في عهد عثمان وانما يتم لهم ذلك باتفاقهم جميعاً على من يخلف عثمان والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهي خلع عثمان وقلوبهم شتى فيمن يخلفه وكل فريق منهم يميل الى شخص بعينه فكأنهم مساقون الى حيث لا يعلمون . لذا فانهم مع صعوبة الامر الذي قاموا به وانه من المراكب الخشنة التي لا يركبها الا الاقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح لم يهتدوا الى طريق الخير والمصلحة التي يتوخاها أهل العقول في مثل هذه الحال فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم ايضا من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التي لما لم تكن في بدايتها قائمة على اساس الحكمة والتدبير انتهت بتغلب بني

أمية على الملك وتحول حال الدولة من الشورى الى الاستبداد ولله الامر

هـذا وبعد ان اتفق القوم على ما اتفقوا عليه أتى المصريون علياً وهو في عسكر عند احجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن الى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على عليّ أمرهم : فصاح بهم وطردهم وقال انّ جيش ذي المروة وذي خشب والاعوص ملعونون على لسان رسول الله (ص) وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك : فانصرفوا وافترقوا عن هذه الاماكن الى عسكرهم على بعد وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا الاّ والتكبير في نواحيها وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بامان من كفّ يده وصلى عثمان بالناس اياماً ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم عليّ وقال ما ردّكم بعد ذهابكم . قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم عليّ كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعا هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا . ثم منعوا الناس من الاجتماع معه وكتب عثمان الى الامصار يستنجدهم ويخبرهم ما الناس فيه فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول فبعث عبدالله بن سعد من مصر معاوية بن حُدَيج . وبعث ابو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو وبعث عبدالله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي . وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري وقيل انّ معاوية تربص به فقام في اهل الشام يزيد بن الاسد القسري فتبعه خلق كثير فسار بهم الى عثمان فلما وصل الى وادي القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش

التي اقبلت من الامصار لما انتهت الى الربذة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعا وكان قام في الامصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرضون على اعانة أهل المدينة وانجاد عثمان فأجابهم الى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل ان يصل أحد الى نجدته

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فوالله انّ اهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب: فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة وقام زيد بن ثابت فاقعده آخر وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وأُصيب عثمان بالحصباء فصُرِع وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة . ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل عليّ وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان . فقالوا لعليّ أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا. فقام مغضباً وعادوا الى منازلهم وصلّى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي وقيل أبو أيوب الانصاري وقيل سهل بن حُنيف حتى قُتل عثمان

وقد قيل في قتل عثمان انّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حُذَيفة كانا بمصر يحرّضان على عثمان فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد ابن أبي بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فلمّا كان عبد الله بأَيْلَة (العقبة) بلغه انّ ابن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً اليها فمُنِعَ منها فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قُتل عثمان وقيل انه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قريش والعرب بعدُ حتى مات

اما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان الى بيت علي ومتَّ (توسل) اليه بالقرابة في ان يركب اليهم ويردّهم لئلا تظهر الجرأة منهم: فقال له قد كلمتك في ذلك فاطعت أصحابك وعصيتني: يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد بن العاص: فعلى أي شيء اردهم • فقال علي ان أصير الى ما تراه وتشيره وان اعصى أصحابي وأطيعك • فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والانصار فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم عليّ ومحمد بن مسلمة فرجعوا الى مصر ورجع القوم الى المدينة ودخل عليّ على عثمان وأخبره برجوع المصريين وأشار عليه ان يُسْمع الناس ماعوّل عليه من النزع قبل أن يجيء غيرهم • ففعل وخطب خطبته التي ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: انا اول من اتعظ استغفرالله مما فعلت وأتوب اليه • فمثلي نزع وتاب فاذا نزلتُ فليأتني اشرافكم فليروا فيّ رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لاستننّ بسنة العبد ولاذلنّ ذل العبد وما عن الله مذهب الاّ اليه. فوالله لاعطينكم الرضى ولأُنَحِّيَنَّ مروان وذويه ولا احتجب عنكم: ثم بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم

أعطى الناس من نفسه الحقّ ووعد بان ينحي بني أمية عنه وهذا كل ما يطلبه منه الناس وكادت تطفأ نار الثورة وتزول اسباب الارجاف لكن بني أمية قد استحوذوا على عثمان، وملكوا منه الجنان، لكبر سنه وضعفه فلم يرقهم ماقال ووعد • فلمّا دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد فعذلوه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفُرافِصة زوجة عثمان وقالت لهم لا تزالون به حتّى يقتلوه • فلم يرجعوا الى قولها واستذلوه في اقراره بالخطبة والتوبة عند الخوف • واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً • فقال لمروان

كلمهم. فكلمهم وأغلظ لهم في القول وقال جئتم لنزع ملكنا من أيدينا والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا الى منازلكم فانا والله مانحن بمغلوبين على مافي أيدينا :

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدو في الداخل يثير عليه ثائرة النفوس. وبين عدو في الخارج يتربص به العثرات ويحس من بطانته بالخطر على الخلافة الشرعية والنزوع الى الاستئثار بالسلطة وحسبك من حقد القوم على بطانته من بني أمية ما ذكروه ان عثمان مر مرة بجبلة بن عمرو الساعدي وهو في نادي قومه وفي يده جامعة فسلم فرد القوم عليه. فقال جبلة لم تردون على رجل فعل كذا وكذا ثم قال لعثمان والله لاطرحن هذه الجامعة في عنقك او لتتركن بطانتك هذه الخبيثة. مروان. وابن عامر. وابن أبي سرح. فمنهم من نزل القرآن بذمه ومنهم من أباح رسول الله دمه ه

والعجيب ان بني أمية يرون الشر المقبل عليهم وعلى عثمان من التصاقهم به واقتطاعهم الامور دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون بعثمان وبانفسهم وبالمسلمين ويسلكون في هذا الامر مسلك الحكمة والاعتدال ويرقبون عن بعد حالة الفتنة حتى اذا تحققوا الخطر على عثمان دفعوا عنه بما في الامكان. وما نخال الفتنة تصل الى هذا الحد لو كان بنو أمية بعيدين عن عثمان.

هذا وبلغ خبر ما قال مروان علياً فنكر ذلك وقال لعبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث. أسمعت خطبته بالامس ومقالة مروان للناس اليوم ياالله وللناس ان قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي فان تكلمت فجاء مايريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول

وقام مغضباً الى عثمان فقال له : اما رضيت من مروان ورضي منك الاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه . وأيم الله اني لأراه يوردك ولا يصدرك . وما انا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك اذهبت شرفك . وغلبت على رأيك . ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول عليّ فعذلته في طاعة مروان وقالت انما تركك الناس لمكانه فارسل الى عليّ فاستصلحه . فبعث اليه فلم يأته فاتاه عثمان الى منزله يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال عليّ بعد ان قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . فخرج عثمان وهو يقول خذلتني وجرّأت الناس عليّ . فقال علي : والله اني اكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء اظنه لك رضى جاء مروان باخرى فسمعت قوله وتركت قولي : ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل الى ان منع عثمان الماء فغضب وامر بادخال الروايا على عثمان

والحق يقال ان عليّ بن ابي طالب مع تيقنه من مصير الخلافة اليه بعد عثمان فانه لم يأله نصحاً ولم يضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ومهما كان في نفس علي من جهة بني أُمية وعثمان ما فيها فانّ شيمه الجميلة وغلبة الفضيلة على رغائبه النفسية جعلته أقرب في مشربه السياسي الى الاعتدال وأرأف من بقية المهاجرين بعثمان وكان عثمان يعلم ذلك ويأنس بمشورة علي أكثر من غيره يدلك على هذا ما ذكروه في بعض الروايات انّ علياً كان عند حصر عثمان بخيبر فاشتد الطعن بعد خروجه على عثمان ورجا الزبير وطلحة ان يميلا اليهما قلوب الناس و يغلبا عليهم واغتنما غيبة علي . فكتب عثمان الى عليّ

امّا بعد فقد بلغ السيل الزُّبى ، وجاوز الحزام الطُّبيين ، وارتفع امرُ الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا انهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه

وانك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيف ولم يغلبك مثل مغلّب

وقد كان يقال أ كل السبع خير من افتراس الثعلب. فاقبل عليّ او لي

فان كنتُ مأ كولاً فكن انت آكلي والاّ فادركني ولمّا أُمرّقِ

ولما جاء علي الى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة وقدم عليه عثمان وقال له . اما بعد فان لي حق الاسلام . وحق الاخاء والقرابة والصهر . ولو لم يكن من ذلك شيءٌ وكنا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف ان ان ينتزع اخوا بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخبر ثم خرج الى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في خلوة من الناس . فقال له ياطلحة ما هذا الامر الذي وقعت فيه . فقال ياأبا الحسن بعد ماسّ الحزام الطبيين . فانصرف عليّ الى بيت المال وأعطى الناس فانصرفوا عن طلحة وسُرَّ بذلك عثمان . وجاء اليه طلحة تائباً. فقال والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فالله حسيبك ياطلحة

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان وهو انّ عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلاً ممن كانوا شكوه الى عثمان حتى قتله فركب المصريون الى المدينة وبسطوا الامر لكبار الصحابة فاجتمعوا على عثمان وألحوا عليه في انصاف القوم من عامله فقال لهم اختاروا رجلا أُولّهِ عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه وخرج معه عدد من المهاجرين والانصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر و بينما

هم على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويبتعد عنهم فقبضوا عليه وسألوه فقال انا غلام أمير المؤمنين وجهني الى عامل مصر وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان وقيل انه أبو الاعور السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب الى عامل مصر ففتحوه فاذا فيه: اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وابطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر اولم يصح فان المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الامر بقتل بعضهم او جلدهم رجعوا ورجع الكوفيون والبصريون واقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة وقام عليّ ومحمد بن مسلمة فأتيا عثمان وقالا له ما قال المصريون : فاقسم بالله ما كتبه ولا علم به : فقال محمد بن مسلمة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرف الشر فيهم . وذكر ابن عديس ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم فاذا قيل له في ذلك قال هذا كتاب امير المؤمنين ثم ذكروا له امر الكتاب فحلف انه ما كتبه ولا علم له به . وسألوه عمن كتبه فقال لا ادري . فقالوا كيف يكتب بمثل هذه الامور العظيمة وينقش عليها خاتمك وانت لا تعلم فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع وان كنت صادقاً فقد استحققت ان تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا ان نترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه فاخلع نفسك كما خلعك الله :

فأجابهم عثمان اني لا انزع قميصاً ألبسنيه الله ولكني اتوب وانزع :

قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا لكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك او نقتلك أو تلحق ارواحنا بالله تعالى وان منعك أصحابك نقاتلهم حتى نخلص اليك اه

﴿ سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة ﴾

هذا آخر سهم في المنزع وآخر الجد في امر الفتنة وقد رأى ذلك عثمان وأحس به وتوالت عليه النذر بحصوله فلم يتنح عن الخلافة وفضل القتل على ترك ذلك المنصب الرفيع لا حباً بالرياسة على ما يظهر اذ الرياسة المشوبة بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية الى ازهاق النفس لا تحب وليست مما يحرص عليه وانما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة اسباب (اما) لضعف الارادة الناشئ عن كبر السن (واما) خوفاً من ان يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الاحداث مع اعتقاده انه لم يستحل محرماً فيما فعل (واما) عملا برأي مروان واضرابه من الامويين الذين لا يرون لانفسهم حقاً بالتقدم في امور الملك والدولة الا اذا انتضي السيف واهريق الدم ما دام غيرهم من المهاجرين واهل السابقة في الاسلام موجودين واليهم ينتهي المسلمون في الاختيار والمشورة وتسليم ازمة الرياسة . ولا ارى لتمنع عثمان عن ترك الامر سبباً غير احد هذه الثلاثة اسباب والله بالحقيقة عليم

﴿ عود الى ما نحن بصدده ﴾

لما أبي عثمان ان يخلع نفسه جد القوم في حصاره ولو كان لهم رغبة في قتله من مبدأ الامر لقتلوه وخرج في اثناء الحصار اناس كثيرون عن

المدينة ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبي (١) وكتب للولاة يستمدهم وصار بينه و بين القوم اخذ ورد رأوا بعده ان يمنعوا عنه الماء وكل صلة له بالناس تضييقاً عليه لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم وكان ذلك التضييق باشارة من طلحة اذ ذكر الطبري ان القوم كانوا يوماً ببابه يتناجون فمنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا علّ ان يراجع. فمرّ طلحة فقام اليه ابن عديس فناجاه

(١) جاء في حديث رواه بن عساكر ان القوم لما دخلوا واستولوا على المدينة كتب عثمان الى الناس يستمدهم في امصارهم ويخبرهم الخبر فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال • ياأهل المدينة والله لايقيم بها احد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب فسار الى فسلطين وخرج معه ابناه محمد وعبد الله وخرج بعده حسان بن ثابت وتتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة انه دخل على عثمان وهو محصور فقال • انك امام العامة وقد نزل بك ماترى واني اعرض عليك خصالا ثلاثاً اختر احداهنّ : اما ان تخرج فتقاتلهم فان معك عدداً وقوة وانت على الحق وهم على الباطل : واما ان تخرق لك باباً سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وانت بها : واما ان تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان • اما ان اخرج فاقاتل فلن اكون اول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء • واما ان اخرج الى مكة فانهم لن يستحلوني بها فاني سمعت رسول الله تقول يُلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم فلن اكون اناه • واما ان الحق بالشام فانهم اهل الشام وفيهم معاوية فلن افارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اه

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضى الله عنه ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالقضاء اولى منه ان يوصف بالاستبداد والأثرة اذ المستبد لايبالي ان يلجأ الى القوة والحيلة ويستعمل نهاية الحزم في دفع الاذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه يترك الباحث في حيرة لايدري كيف يحكم وماذا يقول

ثم رجع ابن عديس فقال لاصحابه لاتتركوا احداً يدخل على عثمان ولايخرج من عنده : فقال عثمان وقد كان يرى ما وراء بابه . هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفني طلحة . فانه حمل عليّ هؤلاء وألبهم عليّ والله اني لارجو ان يكون منها صفراً وان يسفك دمه :

وكان القوم بلغهم مسير من سار اليهم من الامصار فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منعهم من ذلك الحسن والحسين ابنا عليّ ومحمد بن طلحة وابن الزبير وكثير من ابناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء وكانوا ربما قاتلوهم وقاتلهم معهم أبو هريرة وسعيد بن العاص ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقاً من عروقه واحتمل وهم يظنون انه مات كل هذا وعثمان لم يأمرهم بقتالهم بل كان ينهاهم عنه فلما طال عليهم الامر وخافوا وصول المدد ويئسوا من تسليم عثمان لهم بالامر ورأى محمد بن أبي بكر انّ الحسن أُصيب بجراح وخشي من انْ يراه بنو هاشم فيأتون ويكشفون الناس . فأمرهم باقتحام الدار من الدور المجاورة فاقتحموها عليه من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب وانتدبوا له رجلاً يقتله فدخل عليه البيت فقال له اخلعها وندعك فأبى ووعظه فخرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً فاستحيا وخرج ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر وطعنه عمرو بن الحمق عدة طعنات ودافعت عنه نائلة فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن حمران وغيره . وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذي جاءهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا وقال علي لابنيه

كيف قتل امير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله وفي رواية ان علياً كان غائباً عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضى الله عنه وأخزى قاتليه لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣٥ هـ) ودُفن من ليلته وقيل بل بقي في بيته ثلاثة ايام ثم جاء حكيم بن حرام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهم في دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة فدفنوه في حش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع وقد كان معاوية أمر في خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين

هذا ما اخترت ايراده من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله وقد تركت شيئاً كثيراً من اخباره أيام حصاره فليرجع اليها من شاء في المطولات كتاريخ الطبري وابن الاثير وابن عساكر وابن خلدون والامامة والسياسة لابن قتيبة وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وتاريخ الخلفاء للسيوطي والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان وهي الكتب التي نقلت عنها أخبار الفتنة

وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتى عشرة سنة الا بضعة أيام على قول من قال انه قتل سنة (٣٥ هـ) واما على قول من قال انه قتل سنة (٣٦ هـ) فأكثر والاول أصح

وقد كان لمحمد ابن أبي بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود في امر عثمان رضي الله عنه وربما اغتفر ذلك لطلحة لانه كبقية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون انّ الامر يبلغ الى قتله ومهما كان من بعضهم في هذه الفتنـة فان الدواعي السياسية ساقت بعضهم طوعاً

وبعضهم كرهاً الى الممالأة على عثمان رجاء اذعانه لما اجمعت عليه الافكار من لزوم اعتزاله للامر كما رأيت فيما سبق ولكن أبى رضي الله عنه ورحمه وغفر له الا الموت فاقدم عليه اولئك السفهاء وقتلوه بعد انذار كثير وجد ظاهر لا يخفى على مثل عثمان فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب في امر الدولة والخلافة ما ترك ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجد من القوم لما كان ما كان ولله الامر

واما محمد بن أبي بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبري من رواية سيف عن مبشر قال : سألت سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر مادعاه الى ركوب عثمان ؟ فقال الغضب والطمع . فقلت ما الغضب والطمع ؟ قال كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغرّه اقوام فطمع . وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن . فاجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد ان كان محمداً

﴿ شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان ﴾

« وبحث في دخائل الفتنة وكلمتي فيها وفي سبب استمساكه ببني أمية »

قد ذكروا الرواة والمؤرخون اشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ما ذكرناه لا يخلوا النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شيء من من دخائل الفتنة فلا ينبغي ان نخلي هذا الكتاب منها بعد ان وعدنا القراء في خاتمة الجزء الثالث بالتوسع في سيرة عثمان اجابة لرغائب كثير منهم خلافاً لما اشترطناه في فاتحة الكتاب من لزوم الاختصار في سيرته وسيرة عليّ رضي الله عنهما . فمن ذلك ما ذكروه عن المكاتبات السرية التي كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح . روى ابن قتيبة في الامامة

والسياسة عن حوَيْطب بن عبد العزَّى انه قال أرسل اليَّ عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدالي ان أتّهم نفسي لهؤلاء فأت علياً وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم فتولوه واصنعوا ماشئتم : فخرجت حتى جئت علياً فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لا يدخل عليه أحد ثم انصرفت فاتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه احد فاخبرته بما أرسلني به عثمان فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين هل جئت علياً ؟ قلت نعم فلم اخلص اليه . فقمنا جميعاً فاتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ما قال عثمان . فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هل جئتم علياً ؟ قلنا نعم فلم نخلص اليه . فارسل طلحة الى الاشتر فأتاه : فقال لي اخبره فأخبرته بما قال عثمان فقال طلحة وقد دمعت عيناه . قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين . فقام الاشتر وقال تبعثون الينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وها هو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو في الامامة والسياسة فليراجعه من أحب) أليس هذا كتابكم الينا فبكى طلحة فقال الاشتر لما حضرنا اقبلتم تعصرون اعينكم والله لانفارقه حتى نقتله وانصرف: وسكوت طلحة عن انكار هذا الكتاب يدل على صحته اذا صحت الرواية . واما المختلق فقد روى ابن عساكر والمدائني انّ المصريين لما عادوا جاؤا الى عليّ وقالوا له قم معنا الى عثمان . فقال والله لا اقوم معكم . قالوا فلم كتبت الينا ؟ قال والله ما كتبت اليكم كتاباً . فنظر بعضهم الى بعض وخرج عليّ من المدينة . وفي رواية الاعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه (١) موص

(١) الموص الغسل اللين

الاناء حتى تركتموه كالثوب الرحض (١) نقياً من الدنس ثم عدوتم فقتلتموه . فقال لها مروان هذا عملك كتبتِ الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه : فقالت والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا: قال فكانوا يرون انه كتب على لسان عليّ وعلى لسانها كما كتب ايضاً على لسان عثمان مع الاسود الى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة

ولا جرم ان لهذه الكتب أثراً كبيراً في اشعال نار الفتنة ولكن من هو مصدرها ومن هم المختلقون لها ؟ هذا ما لا يظهر الا للمنقب في سيرة عثمان الواقف على مقاصد الاحزاب الكثيرة التي كانت تسعى في اضرام نار الثورة فلبني أميـة حزب ولطلحة حزب وللزبير مثل ذلك ولعليّ مثله ايضاً وكان حزب عليّ أشدهم تشيعاً له وطمعاً في مصير الخلافة اليه ومنهم محمد بن أبي بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذي كان شديد الحب لعلي شديد التأليب على عثمان والتحريض عليه . نقل في العقد ان سعد بن أبي وقّاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من افاضل اصحاب محمد حتى لم يبق في عمرك الا ظمء الحمار (٢) فعلت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان) فقال عمار اىّ شيء أحب اليك مودة على دخل او هجر جميل ؟ قال هجر جميل . قال فلله عليّ ان لا أكلمك ابداً : وروى ابن حزم في الملل والنحل ان عماراً كان ممن يقول بالتفضيل اي تفضيل عليّ على الثلاثة : وناهيك بابن السوداء ومقالته في عليّ ايضاً ومن اخذ برأيه من جفاة الاعراب الذين قل ان يفهموا من الدين شيئاً ينهي ضمائرهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن

---

(١) المغسول (٢) اى يسير لانه ليس شيء اقصر ظمأ منه

السوداء الذي ينكرها عليّ نفسه ويبرأ الى الله منها وقد علمت مما قررناه فيما سبق ان تغير القلوب على عثمان بسبب استئثاره بامور الامة وانقطاع بني أمية اليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس في الانكار عليه توصلا لنزع الخلافة منه وابعاد الامويين عنه ولهم في ذلك شبه عذر مادام ليس لهم رأي في قتل عثمان فلما رأى منهم احزابهم الميل الى آرائهم في الانكار عليه أخذ كل حزب يمهد لصاحبه سبيل الوصول الى الخلافة بمثل الانكار الشديد وبث روح القيام على عثمان على الوجه الذي تقدم شرحه وربما تجاوز ببعضهم الامر الى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم ممن تكتب على لسانهم رغبة في استمرار الفتنة وتوكيداً لاهل الامصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان: لكن بسبب الصلة المعنوية التي كانت بين المرشحين للخلافة وبين احزابهم كان بعض كبار الصحابة لا يخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان ففي العقد من رواية العتبي عن رجل من ليث قال. لقيت الزبير قادماً فقلت أبا عبد الله ما بالك؟ قال مطلوب مغلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي: قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص فقلت يا أبا اسحاق من قتل عثمان قال قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه عليّ. قلت فما بال الزبير؟ قال اشار بيده وصمت بلسانه:

(وفي العقد ايضاً) قال حسان بن ثابت لعليّ انك تقول ما قتلت عثمان ولكن خذلته. ولم آمر به ولكن لم أنه عنه. فالخاذل شريك القاتل. والساكت شريك القاتل

وانت ترى من هذا انهم انما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء لان لاحزابهم والمقربين منهم دخلاً في قتل عثمان وقلّ ما تبرأ شيعتهم لاسيما

شيعة عليّ من الممالأة على قتل عثمان كما يتبرأ منه عليّ واخوانه . اخرج ابن عساكر عن الشعبي قال لقي مسروق الاشتر فقال مسروق للاشتر قتلتم عثمان ؛ قال نعم ، قال اما والله لقد قتلتموه صوّاماً قواماً . قال فانطلق الاشتر فاخبر عماراً . فأتي عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيّرنّ أبا ذر (يعني الى الربذة) وليحمين الحمى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له مسروق فوالله ما فعلتم واحدةً من ثنتين : ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به . وما صبرتم فهو خير للصابرين . قال فكانما ألقمه حجراً .

وهذا يدل ايضاً على انهم كانوا يعتقدون انهم غير مخطئين في قتل عثمان والناس في هذا في خلاف كبير كما سترى بعدُ واما عليّ واخوانه فانهم كانوا لا يرون قتله ولا يريدونه البتة وانما هم كانوا يرون وجوب عزله فقط فغلبوا على امرهم لكثرة ما كان يدسه الشيع والاحزاب على عثمان ومما يدلك على انهم غلبوا على امرهم ما رواه الطبري من ان عثمان ارسل الى عليّ وطلحة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار وعدم وجود الماء عنده فبادر عليّ اليه وانّب المحاصرين على منعه الماء وقال لهم بم تستحلون حصره وقتله فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب ومنعوا علياً عن الدنو منه فجاءت أم حبيبة زوج النبي على بغلة تحمل الماء فمنعوها وأهانوها وطلب مروان الى عائشة ان تبقى في المدينة وقد كانت عزمت على الشخوص الى مكة فأبت وخافت ان يصنع بها كما صنع بأم حبيبة وفرّت الى مكة وبلغ طلحة والزبير مالقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم : كل هذا لما غلبوا على امرهم وخرج الامر من يدهم

والظاهر من مجمل ما ذكروه من اخبار الفتنة انّ علياً كان أقدر

الناس على الدفع عن عثمان لو شاء لانَّ أكثر القائمين بها من شيعته وحزبه ورعا تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب انَّ لعلي يداً شديدة في التأليب على عثمان . والحقيقة ان الامر ليس على ظاهره اذ عليّ سيق الى ما سيق اليه القوم بحكم الضرورة والمتابعة فلما استعصى امر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الثائر ولم يواته حزبه على ما يريد والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلي هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان توصلا بزعمهم لتبرير عمل علي في القيام على عثمان ولقد دسوا على علي (رض) اخباراً كثيرة من هذا القبيل كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وانا معه) وغير هذا من الاخبار التي يأبى تصديقها العقل السليم بالاضافة الى ماعرف عن علي من حب الفضيلة وعلو النفس ولانها تنافي مارواه الثقاة من الاخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ولو اردنا ان نستقصي ما جاء من الروايات التي تدل على براءة علي خاصةً من قتل عثمان لاحتاج ذلك الى كتيب مخصوص فنجتزيء عنها بما يأتي

روى ابن عساكر عن طاوس عن ابن عباس قال قال علي ما أمرت ولا قتلت ولكني غلبت : وروي عن قيس بن عُباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول: اللهم اني ابرأ اليك من دم عثمان لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي وجاؤني للبيعة فقلت والله اني لاستحيي من الله ان ابايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله ألا استحيي ممن تستحيي منه الملائكة : واني لاستحيي من الله ان ابايع وعثمان قتيل في الارض لم يدفن بعدُ فانصرفوا . فلما دفن رجع الناس يسألونني البيعة فقلت اللهم اني لمشفق مما أقدم عليه . ثم جاءت عزمة فبايعت فلما قالوا امير المؤمنين فكانما صدع قلبي : واخرج

من طرق عن أبي جعفر الانصاري قال شهدت الدار يوم قتل عثمان فررت في المسجد فاذا رجل في ظلة النساء محتبي سيفه عليه عمامة سوداء فاذا عليّ قال ما صُنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر :

هذا قليل من كثير مما جاء في براءة عليّ من دم عثمان ولا نشك ايضاً ان اخوانه طلحة والزبير مثله في البرائة من هذا الاثم الاّ ان اشياعهم دفعوا الى هذه الفتنة بالعوامل الكثيرة التي كانت قائمة يومئذ وما كانوا ينكرون عليهم لاعتقادهم بان عثمان مخطئ في بعض الامور التي أتاها وان كان هولا يعتقد خطأه بشيء من ذلك لذا ترى كل ما جاء من الاخبار عن الفتنة مجمعة على رضاهم وتحريض بعضهم عليه وكان أشدّهم عليه طلحة بن عبيد الله وأهونهم الزبير(١) كما رأيت فيما تقدم وكان عثمان كما مر مع تحققه من انّ علياً

---

(١) اخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبي حبيبة قال لما حصر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف الى الزبير فقالوا يا ابا عبد الله نحن نأتيك ثم تصير الى ما تأمرنا به قال فارسلني الزبير الى عثمان فقال اقره السلام وقل يقول لك اخوك ان بني عمرو بن عوف جاؤوني ووعدوني ان يأتوني ثم يصيروا الى ما امرتهم به فان شئت ان آتيك فاكون رجلا من أهل الدار يصيبني ما يصيب أحدهم فعلت وان شئت انتظرت ميعاد بني عمرو فأدفع بهم عنك فعلت قال فدخلت عليه (يعني على عثمان) فوجدته على كرسي ذي ظهر ووجدت رياطاً مطروحة ومراكن مغلوة ووجدت في الدار الحسن بن علي وابن عمر وابا هريرة وسعيد بن العاص ومروان ابن الحكم وعبد الله بن الزبير . فأبلغت عثمان رسالة الزبير . فقال الله اكبر الحمد لله الذي عصم اخي قل له انك ان تأت الدار تكون رجلا من المهاجرين حرمتك حرمة رجل وعناؤك عناء رجل ولكن انتظر ميعاد بني عمرو بن عوف فعسى الله ان يدفع بك. قال فقام ابو هريرة فقال : ايها الناس لقد سمعت أذناي رسول الله يقول تكون بعدي فتن واحداث : فقلت واين النجاء منها يا رسول الله . قال الامير وحزبه : واشار الى عثمان . فقال القوم ائذن لنا فلنقاتل فقد امكنتنا

أرأفهم به وأخفهم وطأة عليه يعرف منه انحرافه عنه وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الامر (ما دون القتل) يدلك عليه ما نقله في العقد عن أبي رافع قال . قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً في المسجد فقلت . أبا الحسن انّ الناس يرون انك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم قال فأتيت عثمان فاخبرته فقال

وحرّق قيس عليّ البلا د حتّى اضطرمت أجذما

وقد كان كثير من الصحابة ممن شهد الفتنة اولم يشهدها منهم من سكت ومنهم من حرّض ومنهم من لم يدفع عن عثمان وكلهم راض من الثائرين عليه بما دون القتل حتى اذا قتل استعظموا ذلك وأكبروه وعدوه ظلما كما استعظمه علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . فقد اخرج ابن عساكر من طرق عن ابن عباس انه قال : لولم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفي رواية لابي الحسن المدائني نقلها في العقد قال كان بن عباس يقول ليغلبن معاوية واصحابُهُ علياً واصحابَهُ لان الله تعالى يقول (وَمنْ قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوَليّه سلطاناً) ويريد ابن عباس بالولي معاوية لانه المطالب بدم عثمان . وذكر الطبرى عن حذيفة بن اليمان انه لما قفل من غزاته في بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم العن قتلته

البصائر . فقال (اي عثمان) عزمت على احد كانت لي عليه طاعة ألاّ يقاتل . قال فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بني عمرو بن عوف فقتلوه اه وانما اوردنا هذا الحديث لما فيه من الادلة على ان الزبير كان أهون على عثمان من غيره وان قيل انه من المنكرين على عثمان

وشتامه . اللهم انّا كنّا نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلّماً الى الفتنة اللهم لاتمتهم الا بالسيوف . ومن حديث الزهري قال لما قتل مسلم بن عقبة اهل المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعلهم في عثمان ورب الكعبة

بقي ان يقال انّ عثمان رضى الله عنه هو الذي جرأ القوم على القيام عليه ثم قتله باصراره على ما أنكروه عليه اولاً ثم بعدم اعتزاله منصب الخلافة ثانياً بعد ان رأى مارأى من الشرّ في وجوه القوم : فامّا الامر الثاني فقد ذكرت فيما سبق رأيي في اصراره عليه . وامّا الامر الاول فاصراره على ما أُنكر عليه ينحصر على ما أُوى في تقريبه بني أمية منه واعطاء ذوي قرابته ولايات الامصار وما عدا هذا من الاحداث التي عدوها عليه فمنها ما تاب عنه ومنها مالا يؤآخذ عليه في الحقيقة ونفس الامر لانّ كلّه اوجلّه ممايعتذر عنه : اما افضاؤه الى بني أمية باموره دون غيرهم من أهل الشوري والسابقين واستئثارهم بالسلطة . واقتطاعهم الامور دونه . . فهو الامر الذي اهتزت له اعصاب المهاجرين ، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الاموية كما بسطنا هذا في محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة ما كان يؤنبه بعضهم في شأن بطانته من الامويين ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لاولئك النفر من أهله وعشيرته وانّ اكثر ما اهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالامر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين ، لاسيما لاولى السابقة منهم والمهاجرين ، فقد كان حريصاً على ان لايتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة فيهم وليس لهذا الاصرار على ما يظهرلنا من سبب الاّ احد امرين : امّا لأنّ قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم : وامّا انه أحس منذ عهد عمر للستة

ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم وتشيع يجرّ الى الاختلاف عليه والكيد له نخشى ان هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته ان يتوثب عليه عمال الامصار فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوي قرابته وولاّهم على الامصار فلما كثر الارجاف بهم والطعن عليهم ورغب اليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن اليهم واعتمد في الامور عليهم فكانت له ولهم أثرة انكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الانكار وتذرع الثائرون عليه بتلك الاحداث الى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الاثرة هي السبب الاول في استفحال امر الفتنة التي لما استعرت نارها ، واشتد أوارها ، اصبح اطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة، وقادة الناس، وربما ندموا حيئذ ذلك على ما تقدم، ولات ساعة مندم ، أخرج ابن عساكر عن الاوزاعي انه قال : قيل لعليّ بن أبي طالب أفقتُل عثمان منافقاً ؟ قال لا ولكنه ولي فاستأثر . وجزعنا فأسأنا . وكل سيرجع الى حكم عدل . فان تكن الفتنة أصابتنا او خبطتنا فيما شاء الله :

هذا واما الداعي الى قيام هذه الاحزاب في خلافة عثمان وسبب افتراق القوم وانقسامهم فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى الى ستة نفر رأى كل شخص نفسه انه أحق بها من غيره فتطلع اليها وصار له حزب يريده عليها ولما أخذها عثمان بقي في أنفسهم ما بقي ثم ما زالت تنمو هذه الرغبة في نفوسهم . وتعظم أحزابهم . حتى انفجر بركان الاحزاب، وطم ذلك العباب ، فافضى الى التغالب لعدم تقيد الامر بالشورى الصحيحة منذ اول خليفة كان كما بسطنا الكلام على هذا في فصل الخلافة والدين

هذا ما اخترت بيانه من اخبار الفتنة واسبابها ودخائلها وقد علقت على كل فصل منها مارأيته من تلك الاسباب بقدر ما انتهى اليه عقلي وبلغه بحثي واستقصائي واني استغفر الله مما أخطأ به ظني، وسبق اليه قلمي، لاني لم آت بشيء من عندي الا ما كان بطريق الحدس او الاستنتاج فاذا صح فهو المطلوب، والاّ فمردود علي خطأي لاني مؤرخ لاجد لي فيطلب مني البرهان، بأكثر مما توخيته من البيان، وانما ذلك مطلوب من علماء الدين الذين ينظرون الى الفتنة من جهة دينية فيقولون عمل هذا حلال وعمل هذا حرام واما انا فاني لم ارد في كل ما علقته علي اخبار الفتنة الاّ الوجهة السياسية والاجتماعية ولم احكم على شخص بخطأ او تصويب الا فيما يعود على مصالح الامة الدنيوية وحقوقها السياسية واماّ حقوق الله تعالى فهي بينه وبين خلقه يأخذ بها من يشاء ويعفو عمن يشاء وليس أضل عقولا من بعض الفرق الاسلامية التي حصرت النظر من اخبار الفتنة واشخاصها في الوجهة الدينية فقالت هـذا استحلّ وهذا حرّم وهذا يعاقب وهذا يثاب وفاتها انّ ما تعلق بحقوق الله فلله واماّ ما تعلق بالمسلمين فللمسلمين وليس لهم ان يحكموا على شخص يقول ربي الله الاّ بالخطأ اذا أخطأ وبالصواب اذا أصاب هذا فيما يتعلق بامور الامة الدنيوية وحياة الدولة السياسية . واماّ الحكم على هذا بالكفر وهذا بالايمان مع ثبوت انهم جميعاً من الموحدين فذلك محض افتراء وفضول اذ الحكم في هذا راجع الى الله سبحانه وتعالى وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور . وانّ مما أضاع تاريخ هذه الامة المملوء بالعبر لا سيما تاريخ الصدر الاول جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة في الحكم أنّ زيداً كفر وعمراً فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق كانه ليس لاعمال المسلمين عمل

لا تعلق له بالدين لانه لا حظ لهم من الحياة الدنيا قط

نعم انّ لمثل هذه الاحكام والمباحث اتصالاً بالامور الساسية والاعمال الدنيوية فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الاشخاص باعمالهم السياسية والاجتماعية ومن منهم المؤاخذ ومن منهم غير المؤاخذ ولكن أين من مؤرخينا من نظر الى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد انْ حال بينهم وبينهم الدين فتقيدوا بايراد الاخبار كما أخذوها وتجنبوا الخوض فيها والحكم بشيءٍ من عندهم عليها اللهم الا النذر اليسير من المؤرخين مع انّ الصحابة والرواة من التابعين ومن أتى بعدهم لم يضنوا بشيءٍ من مخبئات التاريخ واخبار الرجال بل غالوا في حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب مالا يذكر عن غيرهم ولم يجرأ على نقل مثله مؤرخ من مؤرخي الدول قبلهم وتجاوزوا وهذا ايضاً الى وضع الاخبار واختلاقها ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة والصالحين المحسنين منهم ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاتها وزعموا انّ من الادب ان لا يتكلم احد من الناس فيها حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث فيها وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ونوهوا بلزوم تمحيصها والتدقيق فيها

هذا واذ قد استوفينا الكلام على الفتنة واخبارها ومقدماتها فقد رأينا ان نقول كلمة في نتائج قتل عثمان رضى الله عنه وما تأتي عن حادثه العظيم من الامور في مستقبل الامة ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان واسبابه واعتذار المعتدلين من ارباب النحل عنه فنقول

انّ أول وهن دخل على الدولة الاسلاميـة هي الفتنة وأول ما فرق المسلمين هو قتل عثمان وسواء كان القيام على عثمان رضى الله عنه والنكير عليه بحق او بغـير حق فان الفتنة التي ثار ثائرها يومئذ امر متوقع الحصول في

الدول التي تقوم على اساس الحرية والأمم التي تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لارادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة فما بالك بتلك الأمة القريبة عهد بصاحب شريعتها صلى الله عليه وسلم الذي يقول « استقيموا لقريش مااستقاموا لكم فان لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم » (١) الا ان الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة من حيث ظنوا ان الخطر ببقائه فيها فقد رأوا بني أمية غلبوا على الخليفة فخافوا ان يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الاولى فثاروا ثورتهم على عثمان رضي الله عنه فطالبوه بالاعتزال ولم يكتفوا بطلب العدل بين اصناف الأمة فأبى فقتلوه ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال وأسلم لهم من الوقوع في خطر الفرقة والشقاق وأقرب لدفع غائلة الامويين التي كانوا يخشونها على الخلافة وعثمان حي فكانت وعثمان مقتول

قتل عثمان فافترقت الامة باديء بدء في امر قتله الى اربعة فرق ثم فصل منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما في رواية ابن عساكر عن ميمون بن مهران في حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق بعد ان بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوئام في عهد أبي بكر وعمر والسنين الاولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق انهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة علي (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فاما) شيعة عثمان فاهل الشام وأهل البصرة. وقال أهل الشام ليس أحد اولى بطلب دم عثمان من اسرة عثمان وقرابته ولا أقوى على ذلك من معاوية. وقال أهل البصرة

(١) اخرجه الامام احمد عن ثوبان وخضراءهم اي سوادهم

ليس احد أولى بطلب دم عثمان الاّ طلحة والزبير لانهما من أهل الشورى (وامّا)شيعة علي فهم أهل الكوفة (وامّا) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وامركم واحد ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وانتم مختلفون . فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً . وكان اولى بالعدل واصحابه . وبعضكم يقول كان عليّ اولى بالحق واصحابه : كلهم ثقة وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجيء امرهما الى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما (وامّا) من لزم الجماعة فمنهم سعد بن ابي وقّاص وأبو أيوب الانصاري.واسامة بن زيد . وحبيب ابن مسلمة الفهري . وصُهيب بن سنان . ومحمد بن مَسلمة في عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين قالوا جميعاً نتولّى (١) عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجوا لهم ونخاف عليهم (وامّا) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ثم خلطوا بعد ذلك وكفّروا كل من خالفهم .

وأنت ترى ان هذه الفرق لا تعد الاّ احزاباً سياسية او هي عين الاحزاب التي كانت في مبدأ الفتنة لكن هذه الاحزاب نمت بعد ذلك وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل في الدين بعد ان كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة ولتحقيق هل كان عثمان بعمله ظالماً يستوجب الخلع ام لا كما هي العادة في كل أمة ودولة اسلامية كانت او غيرها سنة الكون التابعة لمجرى الاحوال السياسية منذ عرف الاجتماع الى الآن وهذا الذي يدع العقول في حيرة من أمر هذه الامة والصاقها

كل شيء بالدين كما بسطناه لك في فصل سابق

هذا من جهة ما أنتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة واما من جهة ما كان من الخطر على الخلافة فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام طلحة والزبير لمغالبة علي ومنازعته سبيل القيام على علي بدعوى الطلب بدم عثمان وصدق ما انبأهم به معاوية من ذهاب الامر من يدهم اذا صاروا الى التغالب فطمح الى الخلافة ونهض الى منازعة عليّ في الامر ومغالبته على الامارة وكان ما كان من مصير الخلافة الى الأمويين بقوّة الغلب وهدمهم اساس الشورى والانتخاب واستئثارهم بالملك بقوة الارهاب وسطوة الغالبين فكان مصير الامر اليهم مبدأ انقلاب سياسي عظيم أتى على نظام الخلافة الشرعيه والحكومة الديموقراطية في الاسلام وبذر في بيوت الملك والخلافة بذور الحكم المطلق فانبتت في قصور الجبارين نبات العلقم الذي سمّوا به عقول الأمة واجسامها وأماتوا به شعورها بالظلم واحساسها بهذه الحياة الى هذا اليوم حيث صارت الى حال من الخنوع للامراء، والاستخذاء لارباب السطوة، والرضا بتحمل الظلم والهوان، لا يرضاها لنفسه الحيوان بلْه الانسان، وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على ممالك الاسلام واخذت المسلمين الصيحة من كل مكان فلم يرعهم من ذلك رائع البوار المتوقع اعتماداً على زعمائهم، واستسلاماً لامرائهم، الذين انغمسوا في حمأة الشهوات، وتربوا في سجون القصور، ووراء الجدران الشاهقة، فلم يعرفوا من سياسة الملك الاّ ارهاب الامة وقتل عواطف الرعية وارهاق المسلمين بالظلم والاستبداد وحرمانهم من كل علم نافع، ومن كل حق ناصع، من حقوق السيطرة التي خولهم اياها الاسلام حتى فقدت الأمة كل استعداد فطري وكل قوة ملية

تدفع بهما عن نفسها وتذود عن حوضها لحط عليها الجهل بكلكله، وتمكن منها العدوّ بقوّته وعلمه، وليس في امراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على احياء مجد الدولة وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الامم الغربية والحكومات الشورية الاوربية كما انه لم يبق في المسلمين معنى من معاني الحياة الملية والشعور الانساني يصوّر لهم شكل الحرية والعلم في صورة من الكمال والقوّة والمجد جعلت الشعوب المسيحية تترامى على الموت ويستهين ألوف منهم بالحياة ويخاطرون بالنفس والمال توصلاً اليها وتهافتاً عليها: وليت شعري هل من الحرص على الحياة ان يحيي الانسان ذليلاً مهاناً مهضوم الجانب مسلوب الحق كما يتوهم المسلمون فيستخذون لآلهة العروش من الامراء، مثل ذلك الاستخذاء، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الامراء الى دور تنبعث عنها أشعة العلم والعدل بعد ان كانت هياكل للظلم ومواقد لنيران الاستبداد ترسل شواظها على البسيط ليأكل الخضراء واليابسة ويأتي على المال والولد ويذهب بكل أصول المجد والقوّة والحياة: فاللهم انا نعوذ بك من الخذلان، ونسألك ان تلهم المسلم رشده ليطرح عنه رداء الهوان، ولباس الجبن والخوف الذي ألبسه اياه طواغيت الامة وعباد السلطة القاهرة والملك المطلق الذي لا يكون الا حيث يسود الجهل وتفقد كل بواعث الحياة.

﴿ باب ﴾

(ما رثي به عثمان)

اكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رثائه فمن ذلك مارثاه به حسان بن ثابت

أتركتم غزوَ الدُروب وراءكم وغزوتمونا عند قبرِ محمدِ
فَلَبئس هَدْيُ المسلمين هُديتمُ ولبئسَ أمرُ الفاجرِ المتعمّدِ

وله ايضاً في أبيات .

إن تمسِ دارُ بنِ أروى منهُ خاوِيةً باب صريعٌ وَباب مُحرقٌ خرِبُ
فقد يصادفُ باغي الخيرِ حاجتَهُ فيها ويهوى اليها الذكر والحسبُ
يا ايُّها الناس أبدوا ذات انفُسِكمْ لا يستوي الصدقُ عندالله والكذبُ
قوموا بحقِّ مليكِ الناسِ تعترفوا بغارةٍ عُصَبٍ مِنْ خلفِها عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يقدُمهُمْ مُستلئِماً قد بدا في وجهه الغضبُ

وله غير هذا أشعار كثيرة في رثاء عثمان . وممن رثاه ايضاً كعب بن مالك الانصاري وله في رثائه ابيات طويلة منها

يا للرجال لِلُبِّك المخطوفِ ولدمعك المترقرقِ المنزُوفِ
ويحٌ لأمرٍ قد أتاني رائعٍ هدَّ الجبالَ فانقضَتْ برجوفِ
قتلُ الخليفةِ كان أمراً مفظعاً قامت لذاك بليّةُ التخويف

وقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ألاَ انَّ خيرَ الناسِ بعد ثلاثةٍ قتيلُ التُجيبي الذي جاء منْ مصرِ

وقال الحُباب بن يزيد المجاشعي في أبيات

لعَمرُ أبيك فلا تجزَعنْ لقد ذهب الخيرُ الاّ قليلا
لقد سفِهَ الناسُ في دينِهمْ وخلّى ابن عفان شراً طويلاً
أعاذِلَ كلُّ امرئٍ هالكٌ فسيري الى الله سيراً جميلاً

﴿ خطبة ابنته عائشة بعد قتله ﴾

قالت بعد ان حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان انّا لله وانّا

اليه راجعون أُفْنِيَتْ نفسُهُ ، وطُلَّ دَمُهُ في حرم رسول الله (ص) ومُنِعَ مِنْ دفنهِ اللّهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عزّ وجلّ حاكماً . ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً . حتى يفيء الى الحقّ من سَدِرَ عنه . او تطيح هاماتٌ . وتُفْرَى غلاصِمُ . وتُخاض دماء . ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتُموه . يامن استحلّ حرمَ الله ورسولهِ واستباحَ حماه . لقد كَرِهَ عثمان ما أقدمتم عليه . ولقد نِقَمْتُم عليه أقلّ مما أتيتم اليه . فرَاجَعَ فلم تراجعوه ، واستقال فلم تُقيلُوه ،

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لأمر ربك حتى لحقتَ بهِ وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوُضُ الباطل واذكاء الشنآءن . وكوامنُ الاحقاد . وادراك الاحن والاوتار . وبذلك وشيكاً كان كيدُهمْ وتبغّيهم : وسعى بعضُهم ببعضٍ . فما أقالوا عاثراً . ولا استعتبوا مذنباً . حتى اتخذوا ذلك سبباً الى سفك الدماء . واباحة الحمى وجعلوا سبيلاً الى البأساء والعَنَتِ : فهل علنت كلتكم وظهرت حَسَكتكمُ إذ ابن الخطاب قائم على رؤسكم ماثلٌ في عَرَصاتِكم يُرعِدُ ويبرِق بارعابكم . يقمعكم غير حَذِرٍ من تراجعكم الامانيّ بينكم . وهلاّ نقمتم عليه عوداً وبدأً اذ ملك ويملك عليكم من ليس منكم بالخُلق اللين والجسم الفصيل (كذا في الاصل) يسعى عليكم وينصب لكم لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ، وحذراً من شدته ، ان يهتف بكم متَقَسوَراً ، او يصرخ بكم متعذوراً . إن قال صدّقتم قالتَهُ ، وان سأل بذلتم سألتَهُ . يحكم في رقابكم واموالكم كأنكم عجائز صلعٌ واماءٌ قصع ، فبدأ مفلتاً لابن ابي قحافة بارث نبيكم على بعد رحمِهِ وضيق يدِه ، وقلة عـدده ، فوقى الله شرها زعم لله رده ما أعرفه ما صنع . أولم

يختصم الانصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة . يتمايل بكم يميناً وشمالا ، قد خطب عقولكم، واستمهر وجلكم ممتحناً لكم. ومعترفاً اخطاركم، وهل تسمو هممكم الى منازعته . ولولا تيك لكان قسمه خسيساً ، وسعيه تعيساً ، لكن بدأ بالرأي وثنى بالقضاء. وثلث بالشورى. ثم غدا سامراً مُسلطاً دِرّتهُ على عاتقهِ فتطأطأتم له تطأطؤ الحِقّة . ووليتموه ادباركم حتى علا اكتافكم فلم يزل ينعق بكم في كلّ مرتَع . ويشدّد منكم على كل مخنَقٍ . لا ينبعث لكم هتافٌ . ولا يأتلقُ لكم شهاب . يهجم عليكم بالسراء ، ويتورط بالحوباء ، عرفتم اونكرتم لا تألمون ، ولا تستنطقون ، حتّى اذا عاد الامر فيكم ولكم واليكم في مُونقةٍ من العيش عرقها وشيج . وفرعها عميم . وظلها ظليل. تتناولون من كَثَبٍ ثمارَها أنّى شئتم رغداً . وَحلَبَتْ عليكم عِشارُ الارض درراً . واستمرأتم اكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خَصْب غدَق وامق شَرق. تنامون في الخفض وتستلينون الدعة . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها، واستحليتم غضارتها ونضرتها ، وظننتم انّ ذلك سيأتيكم من كَثَبٍ عفواً ، ويتحلب عليكم رسلاً ، فانتضيتم سيوفكم ، وكسرتم جفونكم، وقد أبَى الله ان تُشام سيوف جرّدت بغياً وظلماً . ونسيتم قول الله عزّ وجلّ (انّ الانسانَ خُلِقَ هَلُوعاً اذا مَسّهُ الشرُّ جزوعاً واذا مَسّهُ الخيرُ منوعاً) فلا يهنئكم الظفرُ . ولا يستوطن بكم الظلم . الا على رجلين ، ولا ترن القوس الا على سيتين، فاثبتوا على الفرز ارجلكم فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء كما اضل ادحيه الحسل . وسيعلم كيف تكون اذا كان الناس عباديد . وقد نازعتكم الرجال. واعترضت عليكم الامور . وساورتكم الحروب بالليوث. وقارعتكم الايام بالجيوش . وحمي عليكم الوطيس . فيوماً تدعون من لا يجيب ويوماً

تجيبون من لا يدعو • وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرى انهما في سبيل الله فيد مقبوضة • واخرى مقصورة • والرؤس تنزو عن الطلى والكواهل كما ينقف التنوم. فما أبعد نصر الله من الظالمين، واستغفر الله مع المستغفرين اهـ(١)

(١) تفسير الالفاظ الواردة في هذه الخطبة

قولها طل دمه اي سفك وهدر. وقولها حتى يفيء الخ اي حتى يرجع اليه من ضل أو تحير. وقولها أو تطيح هامات اي تطير رؤوس. وتفرى غلاصم اي تقطع حناجر واستوخم ما استمرأتموه اي ما استطبتموه ويقال للكلأ الطيب مريء غير وخيم. تراوض الباطل اي تجاذبه. واذكاء الشنآن من اذكى النار أسعرها والشنآن البغض. كوامن الاحقاد خفيها. ادراك الاحن والاوتار اي العداوة والثأر. وشيكا كان كيدهم اي سريعاً. وجعلوا سبيلاً الى البأساء والعنت اي الى الشدائد والفساد. علنت اي ظهرت. حسكتكم. الحسك نبات شائك وهو ايضاً العداوة والحقد. ماثل في عرصاتكم الماثل القائم والعرصات جمع عرصة وهي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. يقمعكم اى يضربكم بالمقمعة وهي عصا من خشب. متقسورا اى متعززا. متعذورا اي ناجحا. عجائز صلع اي عجزة عن الحرب. واماء قصع اى بطيئات. غدا سامرا مسلطا درته الخ تريد انه كان لشدته عليهم يسهر الليل وعصاه على كتفه لمراقبة الناس. والحقة الناقة الرباعية. ينعق بكم في كل مرتع اى يصيح بكم في كل مكان والمرتع موضع الرتع او الخصب. لا ينبعث لكم هتاف اى لا يخرج لكم صوت. ولا يأتلق لكم شهاب اى لا يلمع ولا يظهر. يتورط بالحوباء التورط الوقوع والحوباء النفس اى يقع بكم ضرباً وشتماً كيف شاء فلا تجسرون على التكلم. في موتقة من العيش عرقها وشيج الخ اى في مورقة متشابكة العروق وهو كناية عن السعة والراحة والتمتع بطيب العيش. تتناولون من كثب اى من قرب. وحلبت عليكم عشار الارض درراً العشار النوق المنتجة ولعله كناية عن اقبال الخير عليهم وخصب الارض لهم. غدق وامن شرق هكذا بالاصل ولا نفهم. ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها اى احببتم زينة الدنيا والحرج محركة مجتمع الشجر او الغيضة. ان تشام سيوف اى تسل. الفرز ما اطمأن من الارض. والمتيهة الارض المضلة. والخرقاء الواسعة. كما اضل ادحية الحسل (كذا) والعباديد الفرق. والرؤس تنزو عن الطلى اى تثب عن الاعناق. كما ينقف التنوم. النقف ضرب الشيء بالظفر والتنوم نوع من الشجر

﴿ خطبة زوجته نائلة بنت الفرافصة ﴾

(قالت بعد ان حمدت الله واثنيت عليه) عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم بعد الاعتذار وان اعطاكم العتبى (١) • معاشر المؤمنة واهل الملة لا تستنكروا مقامي،ولا تستكثروا كلامي ، فاني حرّى (٢) عبرى (٣) رزئت جليلا . وتذوّقت (٤) ثكلاً من عثمان بن عفان ثالث الاركان ، من اصحاب رسول الله (ص) في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الارشاد • فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك في فضله متأثم ، القوا اليه الازمة وخلوه والأمة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحدهم غير مدافَع ، وخيرتهم غير منازَع ، لا ينكر له حسن الغَناء ، ولا عنه سماح النعماء ، اذ وصل اجنحة المسلمين حين نهضوا ، الى رؤوس ائمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الامور ، اذ لم يكن فيهم له نظير ، فسلك بهم سبيل الهدى ، و بالنبي وصاحبيه اقتدى ، مخسئاً للشيطان الى مداحره ، مقصيا للعدوان الى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ، وتزايل عنه المصاليت ، (٥) حتى امتد له الدين • واتصل له السبيل المستقيم • ولحق الكفر بالاطراف ، قليل الالاف والاحلاف ، فتركه حين لا خير في الاسلام في افتتاح البلاد ، ولا راي لاهله في تجهيز البعوث ، فاقام يمدكم بالرأي • ويمنعكم بالادنى

---

(١) العتبى الرجوع عن الاساءة الى ما يرضي العاتب (٢) عطشى (٣) من العبرة وهو تردد البكاء في الصدر (٤) تذوقت اي زقت مرة بعد مرة والثكل فقدان الحبيب (٥) المصاليت رجل مصلت اذا كان ماضياً في الامور وهو من مصاليت الرجال

يصفح عن مسيئكم في اساءته • ويقبل من محسنكم باحسانه ويكافئكم بماله • ضعيف الانتصار منكم • قويّ • المعونة لكم • فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته • وأجرركم أرسانكم (١)، آمناً جرأتكم وعدوانكم، فأراهكموه الحق اخوانا • وأراكموه الباطل شيطانا، في عقب سيرة من رايتموه فظّاً، وعددتموه غليظاً • فهدكم منه بالقمع • وطاعتكم اياه على الجدع يعاملكم الجبه (كذا في الاصل) ويتخونكم بالضرب • وكان والله أعلم بادابكم ومصالحكم • فلله هو كان قد نظر في ضمائركم • وعرف اعلانكم وسرائركم • فحين فقدتم سطوته • وامنتم بطشته • رايتم ان الطرق قد انشعبت لكم • والسبل قد اتصلت بكم • ظننتم ان الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الاعداء، وشددتم شدّة السفهاء، على التقي النقي الخفيف بكتاب الله عزّ وجلّ لساناً، الثقيل عند الله ميزاناً، فسفكتم دمه، وانتهكتم حرمه، واستحللتم منه الحُرم الاربع • حرمةَ الاسلام • وحرمةَ الخلافة • وحرمة الشهر الحرام • وحرمة البلد الحرام • فليعلمنّ الذين سعوا في امره • ودبّوا (٢) في قتله • ومنعونا من دفنه اللهم انّ بئس للظالمين بدلاً وانهم شرّ مكاناً وأضعف جنداً . لتتعبدنكم الشبهات، ولتفرّقنّ بكم الطرقات، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان . وكيف لسخط الله من بعده . وأين كنتم كعثمان ذي النورين منفس الكرب زوج

---

(١) اى خلاكم كما تشاؤن والمعنى انها اخبرت عن مساحته وتركه التضييق عليهم (فهدكم منه بالقمع) هده ضعضعه واذله والقمع القهر والمعنى انه خوفكم منه بالقهر والغلبة وطاعتكم اياه على الجدع اي الهوان والصغار (٢) دبوا مشوا على هينتهم

ابنتي رسول الله (ص) وصاحب المربد (١) ورومة · هيهات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود ، ياهؤلاء انكم في فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الحران (٢) شوهاء العيان في كثير من الامر . قد توزع كل ذي حق حقه . وييئس من كل خير خير أهله . فلهوات الشر فاغرة (٣) وانياب السوء كاشرة . وعيون الباطل خُزْر (٤) واهلوه شزر (٥) ولئن نكرتم أمر عثمان . وبشعتم الدعة (٦) لتنكرنّ غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع منكم استعتاب ،

ثم اقبلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : اللهم اشهد اه :

باب

ما قيل في سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه

(ما قاله بعض الصحابة واهل السنة)

رأيت كيف ان الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين فنهض للطلب بدمه طلحة والزبير وعائشة واحزابهم ومعاوية وحزبه وانكر عليّ قتله ولعن قاتليه ونزيد هنا ما قاله بعض الصحابة ومنهم سعيد بن زيد أحد العشرة قال . لو ان أحداً انقض للذي صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً ان ينقض (اخرجه البخاري) وعن عبد الله بن سلام قال . لقد فتح الناس

---

(١) المربد موضع قرب المدينة ورومة بئر بالمدينة (٢) الحران مقدم العنق (٣) اللهات اللحمة المشرفة على الحلق وفاغرة من فغر فوه انفتح (٤) الخزر النظر بلحظ العين (٥) الشزر الشدة والصعوبة (٦) الدعة سعة العيش

على انفسهم بقتل عثمان باب فتنة لا يغلق عنهم الى قيام الساعة « اخرجه ابو عمر » وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (اخرجه الحاكم) وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلهم مجمعون على انّ عثمان قتل ظلماً وانّ الاحداث التي كانت على عهده لا تستوجب القتل هذا اذا صح ان كل ما أُنكر على عثمان رضي الله عنه احداث يؤاخذ عليها وللمتكلمين في براءة عثمان وتعدي قاتليه كلام طويل وتفصيل يرجع اليه ومنهم ابن حزم فقد اطال بهذا الصدد في الملل والنحل وخلاصة قوله اجماع اهل السنة على بغي المحاربين لعثمان وانه ليس في عمله ما يستوجب القتل وللجماعة غيره من العلماء كلام طويل في الاعتذار عن عثمان « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبري فقد فتح باباً مخصوصاً في كتابه «الرياض النضرة في فضائل العشرة» رد فيه على من قال بصحة الاحداث التي نسبت الى عثمان « ومنهم » محمد بن يحيي الاشعري المعروف بابن بكر فتح باباً مثله في كتابه « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان »(١) استوفى فيه الكلام على مانسب الى عثمان من الاحداث و بين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث فاحببت ان انقل هذا الفصل هنا برمته اتماماً للفائدة قال

اعلم رحمك الله انّ الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان وتعلقوا عليه باشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة قد ذكرنا اكثرها فيما مضى ونذكر الان منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الامكان فنقول (فان قيل) فان ابن مسعود أنكر على عثمان في أمر المصاحف وتحريقها : فالجواب : انّ ابن مسعود دونه في الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قرآتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد وكان قد ولى زيد بن

(١) هذان الكتابان موجودان بالكتبخانة الخديوية المصرية وهما بخط اليد

ثابت أمر المصاحف ولو كان ذلك متوجهاً الى عثمان لكان ذلك طعنا على من قبله من الصحابة وقد روي ان عليا قال : عن ملاء منا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكرا لكان علي قد غيره لما صار الامر اليه فلما لم يغيره علم ان عثمان كان مصيبا فيما فعل (فان قيل) انه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة وانه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ثم التفت فقال ازيدكم : فالجواب : انه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق فأنزل الله (ان جاءكم فاسق بنباء) الآية فليس يلحق عثمان الا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . و ولى عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون البحرين فشرب الخمر متأولاً فجلده عمر وقدامة بدري من اولى السابقة والفضل وكذلك عثمان و ولى علي المختار بن ابي عبيد المدائن فاتاه بصرة فقال هـذه من اجور المومسات : فقال علي (رض) قاتله الله لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو افسق من الوليد : فاخذ المختار المال ولحق بمعاوية . وكان علي يلقى من ولاته وعماله الامر الشديد فكان يقول وليت فلانا فاخذ المال ووليت فلانا فخانني الى غير ذلك ذكر هـذا ابو نعيم في كتاب الامة (فان قيل) فقد أنكر ابن مسعود وأبو ذر اتمام عثمان الصلاة بمنى وانه صلى اربعا : فالجواب: انه قد اعتذر عن ذلك وقال ذاك رأى رأيته ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه و وافقاه فقيل لهما في ذلك فقالا الخـلاف شر • وقد روي جماعة من الصحابة اتمام الصلاة في السفر منهم عائشة وسلمان واربعـة عشر من الصحابة • والذي حمل عثمان على اتمام الصلاة انه بلغه انقوما من الاعراب شهدوا الصلاة معه بمنى • فرجعوا الى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى • فلاجل ذلك صلاها اربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه • وكذلك فعل عمر في أمر الحج وان يجمعوا بين الحج والعمرة في أشهر الحج وخالفه ابنـه عبد الله وقال سنة رسول الله أحق ان تتبع وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليـه وسلم واقامته على الاحرام حتى دخـل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان انكارا لما تابعوه على رأيه (فان قيل) انه اعطى من مال الصدقة ووفرا قرباءه فالجواب : ان عثمان أعلم ممن أنكر عليه والامام اذا رأي المصلحة في فعل شيء فعله فلا يكون انكار من جهل المصلحة في ذلك حجة على من عرفها فانه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون

فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنايم خيبر في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الانصار لمارأى في ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا في الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم. وجهلوا مارآه النبي عليه السلام من المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان لان مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من انكار من انكر عليه الا ما الزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الذي اعطى رسول الله كان من الخمس قيل له لو كان من الخمس لما أنكرت الانصار ذلك ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أعطيتهم من مال الله الا تراه استمال قلوبهم بقوله : الا ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون برسول الله الى بيوتكم : قالو رضينا . والحديث مشهور (فان قيل) ان عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فان للامام ان يؤدب بعض رعيته بما يراه وان كان خطأ الا ترى ان النبي عليه السلام أقص من نفسه واقاد وكذلك أبوبكر وعمر أدبا رعيتهما باللطم والدرة وأقادا من أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه فوقع قميصه وقال تعالى : فاقتص : فعفا عنه . وجاء رجل الى أبي بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر انه استحملني (١) فحملته فبلغني انه باعه . ثم قال له دونك فاستقد فعفا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعداً فناوله عمر الدرة وقال له اقتص فعفا (فان قيل) عثمان لم يقد من نفسه قيل له كيف ذلك وقد بذل من نفسه مالم يبذله أحد خصوصاً يوم الدار فانه قال يا قوم ان وجدتم في كتاب الله ان تضعوا رجلي في قيد فضعوهما وقد ذكرنا ان عماراً تقازف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فان قيل) اعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق . قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف نقبل هذا وعثمان من اكثر الناس مالاً واكثرهم عطية ومعروفاً مع ان العصر لا يخلو من جهال يقولون ما لا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً فقال له رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبراً فقال له رجل اعدل يا محمد . فقال له (ويحك ومن يعدل اذا لم اعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من

---

(١) قوله استحملني اي طلب ان احمله على دابة

الجهال هذا فكيف بعثمان (رض) (فان قيل) انه ولى اقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وغيرهم: قيل: فمن اين لكم ان هؤلاء لم يعدلوا ولئن جاز لكم ادعاء الفسق في ولاة عثمان لجاز ذلك في ولاة عمر. فقد ولى المغيرة البصرة فرمى بما لا يثبت . وولى ابا هريرة البحرين فقالوا خان مال الله وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا . وولى عليّ الاشتر وامره ظاهر. وولى بن مخنف فاخذ المال وهرب . فلم خصصتم عثمان بالطعن مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد بن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكراً عليهم فيما طعنوا فيه وقالوا فيه وفي اسامة ابنه والحديث مشهور . وانما طعن الناس على عثمان للينه وحيائه وكثر في في ايامه من لم يصحب النبي عليه السلام ومن جهل فضل الصحابة (فان قيل) فقد نفي أبا ذر الى الربذة فرداً : قيل لم يكن ذلك نفياً وانما كان ذلك تخييراً له لانه كان كثير الخشونة لم يكن يداري من الناس ما يداري غيره فخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم وذلك انه كان بالشام فجرى بينه وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية هي في أهل الكتاب وقال أبو ذر هي فيهم وفينا فكتب معاوية الى عثمان في ذلك فكتب الى أبي ذر أن اقدم علي قال فقدمت عليه فانثال عليّ الناس كأنهم لم يعرفوني فشكا ذلك الى عثمان (رض) واستأذنه في الخروج من المدينة فخيره فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه فخاف الافتتان بهم هذا هو الصحيح. فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها. فان جعل اشخاص أبي ذر من الشام وحبسه بالمدينة طعناً على عثمان : قيل : الائمة اذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا الى حسمه وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لاجل أحاديث حدثوها الناس ومنعهم من الخروج ومنعهم من لبس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده فيرتكب بذلك ما ليس له مع ان للامام أن ينفي أقواماً اذا خاف الافتتان بهم . فقد روي أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشعرها فيه

هل من سبيل الى خمر فأشربها   أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

ونفى عليّ (رض) النعمان عن ملأ من الصحابة ونفى حسان أيضاً والله أعلم (فان قيل) ان جماعةً واتفقوا على حصره وقتله فقد روي أن حذيفة وعمارا قالا

قتلناه كافراً وان طلحة فيمن حضره وان علياً أعان على قتله وان الناس خذلوه وأسلموه الى غير ذلك من الامور : قيل: هذا لا يصح عن حذيفة (١) وانما المنقول عنه خلاف ذلك وانما هذا من كلام الرافضة وان نقل ذلك فلانه لا يخلو أحد من الصحابة من حاسد وممن يبغضه فكيف بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال والطعن على عثمان طعن على من تقدمه • وأما طلحة فانه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى • وأما علي فانه قال غير مرة • اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان • وقال والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله • ولما بلغه قتله قال • اللهم اني لم أرض بقتله ولم آمر به • وقال فيه كان عثمان : من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين : وسئلت عائشة عن عثمان فقالت : قتل مظلوماً لعن الله قاتله اقاد الله من ابن أبي بكر وساق الله الى أعز بني تميم هواناً واهراق الله دماء بني بديل وساق الله الى الاشتر سهماً من سهامه : فوالله ما من القوم أحد الا أصابته دعوتها • وأما ترك الصحابة الانكار على من حصره فلقد ناضحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر بالغ الى قتله وانما ظنوا أنها تكون معتبة • ومع ذلك فان عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال ولقد أنكروا وبالغوا في الانكار منهم علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة والزبير وابن عامر وحمل الحسن بن علي يومئذ جريحاً ولبس ابن الزبير الدرع مرتين رضي الله عنهم : وعن ابن عون لقد قتل عثمان وان في الدار لسبعمائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فانه انصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة صباحاً ومساء وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه هذا خلف • ومع هذا فينبغي الكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والامساك عما نسب اليهم من الرذائل وكذلك تباع الانبياء انما يذكر محاسنهم التي مدحوا عليها ويمسك عما سواه (فان قيل) ان عثمان حمى الحمى ومنع منه الناس قيل روي أن المصريين جاؤا الى عثمان فقالوا • ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة

---

(١) الصواب انه محمد بن أبي حذيفة وان صح ان الرافضة قالوا انه حذيفة فيكون ذلك افتئات ظاهر منهم وتحريف مقصود لان حذيفة من القائلين بتولي عثمان وممن لعن قاتليه كما رأيته فيما سبق من هذا الكتاب

يونس وقرأ هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا) الآية فقالوا له أرأيت ما حميت من الحمى الله أذن لك أم على الله تفتري : فقال هذه الآية نزلت في كذا وكذا وأما الحمى فقد حمى الائمة قبلي لا بل الصدقة فلما زادت ابل الصدقة زدت في الحمى فجعلوا لا يأخذونه بآية الا قال نزلت في كذا وكذا حتى أخذ عليهم ان لا يشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين الى بلادهم راضين فرأوا في الطريق غلاماً معه كتاب فرجعوا اليه فقال اني لم آمر به ولا شعرت به فحصروه باغين عليه ظالمين له وقد حمى النبي صلى الله عليه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين وقال البخاري • بلغنا ان النبي عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والربذة واستعمل على الحمى مولى له يدعى هنياً فلم يثبت على عثمان ذنب ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحريم وشق العصا وتفريق الجماعة ولكن الله اكرمه بالشهادة والحقه بالنبي عليه السلام وصاحبيه في الجنة حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلع القميص وحظي قاتلوه بالخزي واللعنة وانتهاك حرمة المدينة في الشهر الحرام (فان قيل) فقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر فتنة تكون بعده وقال في عثمان فاتبعوا هذا واصحابه فانهم على هدى فاخبرنا من اصحابه : قيل اصحابه اصحاب رسول الله المشهود لهم بالجنة المذكور بعضهم في التوراة والانجيل الذين من احبهم سعد ومن ابغضهم شقي مثل علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان في وقتهم فانهم كلهم كانوا على هدى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكلهم انكر قتله وكلهم استعظم ما جرى على عثمان وشهدوا على قتلته أنهم في النار وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبد الله ابن سبأ واصحابه الذين اشقاهم الله بقتله حسداً منهم له وبغياً عليه وارادة الفتنة وان يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم لما سبق عليهم من الشقاء في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب الاليم فاجتهد الصحابة في نصرته والذب عنه وبذلوا أنفسهم دونه فأمرهم بالكف عن القتال وقال اني أحب ان القى الله سالماً مظلوماً ولو أذن لهم لقاتلوا عنه قال . ابن سيرين كان معه في الدار جماعة من المهاجرين والانصار وابنائهم فقالوا يا امير المؤمنين خلّ بيننا و بينهم • فعزم عليهم ان يقاتلوا (فان قيل) فقد علموا انه مظلوم وقد أشرف على الهلاك فكان ينبغي عليهم أن يقاتلوا عنه و ينصرونه وان كان قد منعهم : قيل : انّ القوم كانوا أهل طاعة لامامهم وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل وقد فعلوا مايجب

عليهم من الانكار بقلوبهم وألسنتهم وعرضهم انصرته على حسب طاقتهم فلما منعهم من نصرته علموا انّ الواجب عليهم السمع والطاعة له ولا يسعهم مخالفته وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فان قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم وقد علم ان قتالهم عنه نهي عن المنكر واقامته حق يقيمونه : فالجواب : ان منعه اياهم يحتمل وجوها كلها محمودة : احدها : علمه بانه مقتول مظلوم لاشك فيه لان النبي عليه السلام قد أعلمه انه يقتل مظلوما وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به تحقق انه مقتول وان الذى قاله النبي عليه السلام له حق لا بد ان يكون ثم علم انه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد وكان عنده من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها فاذا رضي فليس هذا بصابر اذ وعده من نفسه الصبر : الوجه الثاني : انه كان قد علم ان في الصحابة قلة عدد وان الذين يريدون قتله كثير عددهم فلو اذن لهم بالقتال لم يأمن ان يتلف من اصحاب النبي عليه السلام بسببه فوقاهم بنفسه اشفاقاً منه عليهم لأنه راع عليهم والراعي يجب عليه ان يحفظ رعيته بكل ما امكنه ومع ذلك فقد علم انه مقتول فصانهم بنفسه : الوجه الثالث : انه لما علم انها فتنة وان الفتنة اذا سلّ فيها السيف لم يؤمن ان يقتل فيها من لا يستحق القتل فلم يختر لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة اشفاقاً عليهم من نقم تذهب فيها الاموال وتهتك فيها الحريم فصانهم عن جميع هذا: ووجه رابع : وهو انه يحتمل أن يكون صبر عن الانتصار لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لان المؤمنين شهداء الله في أرضه ومع ذلك فلم يحب أن يهراق بسببه دم مسلم ولا يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في امته بسفك دم رجل مسلم فكان عثمان بهذا الفعل موفقاً معذوراً رشيداً مجبوراً وكان الصحابة في عذر وشقي قاتله وخاذله والله اعلم اهـ

﴿ ما قاله المعتزلة ﴾

وللمعتزلة ايضاً كلام طويل في الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل شأنهم في مثل هذه المباحث وقد اورد ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلاً بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا اتماماً للفائدة قال ابن ابي الحديد عند شرحه لكلام قاله

علي" في شأن الاحداث لما اشار عليه اصحابه بمحاربة اهل الشام

ويجب ان نقول ههنا احداثه وما يقوله اصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى في كتاب الشافي في هـذا المعنى فنقول • ان قاضي القضاة قال في المعنى قبل الكلام في تفصيل هذه الاحداث كلاماً مجملاًمعناه ان كل من ثبتت عدالته ووجوب توليه اما على القطع واما على الظن فغير جائز ان يعدل فيه عن هذه الطريقة الابامر متيقن يقتضي العدول عنها •

ثم استطرد في هذه المقدمة الى لزوم تولي عثمان وتعظيمه وحمل ما نسب اليه من الاحداث على حسن النية لما لعثمان « رض » من المزايا التي توجب احسان الظن به وان ما نسب اليه من الامور كلها محتمل فاجدر بمثله ان تحمل اعماله على الوجه الصحيح في مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا المعنى الى ان قال

وقد طعن الطعانون فيه « يعني في عثمان » بامور متنوعة مختلفة ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاماً مجملا يبين بطلانها على الجملة ثم نتكلم على تفصيلها وذلك ان شيخنا ابا علي قد قال . لو كانت هذه الاحداث مما يوجب طعناً على الحقيقة لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله ان يطلب المسلمون رجلا ينصب للامامة وان يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته ، فانه لاخلاف انه متى ظهر من الامام ما يوجب خلعه ان الواجب على المسلمين اقامة امام سواه . فلما علمنا ان طلبهم لاقامة امام انما كان بعد قتله ولم يكن من قبل والتمكن قائم . علمنا بطلان ما أضيف اليه من الاحداث. وليس لاحد ان يقول انهم لم يتمكنوا من ذلك لان المتعالم من حالهم انهم حصروه ومنعوه من التمكن من نفسه ومن التصرف في سلطانه خصوصاً والخصوم يدعون ان الجميع كانوا على قول واحد في خلعه والبراءة منه . ومعلوم من حال هـذه الاحداث انها لم تحصل اجمع في الايام التي حوصر فيها بل كانت تحصل من قبل حالابعد حال فلو ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الانكار عليه ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة اولى بذلك من الواردين من البلاد لان اهل العلم والفضل بانكار ذلك احق من غـيرهم فقد كان يجب على طريقتهم ان تحصـل البراءة والخلع من اول الوقت الذي حصل منه ما اوجب

ذلك وان لا ينتظر حصول غيره من الاحداث لانه لو وجب انتظار ذلك لم ينتـه الى حد الا وينتظر غيره . ثم ذكر انّ امساكهم عن ذلك اذا تيقنوا الاحداث منـه يوجب نسبة الجميع الى الخطأ والضلال ولا يمكنهم ان يقولوا انّ علمهم بذلك انمـا حصل في الوقت الذي حصر ومنع لان من جملة الاحداث التي يذكرونها ما تقدم هذه الحال بل كلها او جلها تقدم هذا الوقت وانما يمكنهم ان يتعلقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ الى ابن أبي سرح بالقتل. وما اوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب ان يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر • وبعد فليس يخلو من ان يدّعوا ان طلب الخلع وقع من كل الأمة او من بعضهم فاذا ادعوا ذلك في بعض الأمة فقد علمنا ان الامامة اذا ثبتت بالاجماع لم يجز ابطالها بلا خلاف لان الخطأ جائز على بعض الأمة • واذا ادعوا في ذلك الاجماع لم يصح لان من جملة أهل الاجماع عثمان ومن كان ينصره ولا يمكن اخراجه من الاجماع بان يقال انه كان على باطل لان بالاجماع لم يتوصل الى ذلك ولم يثبت . على انّ الظاهر من حال الصحابة انها كانت بين فريقين : اما من ينصره : فقد روي عن زيد بن ثابت انه قال لعثمان ومن معه من الانصار. ائذن لنا بنصرك . وروي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة ابن شعبة. والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض الا انه لو ضيق عليهم الامر في الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك. قال ثم ذكر ما روي من انفاذ امير المؤمنين الحسن والحسين وانه لما قتل عثمان لامهما على وصول القوم اليه ظناً منه انهما قصرا وذكر ان اصحاب الحديث يروون عن النبي « ص » انه قال : سيكون فتنة واختلاف وانّ عثمان واصحابه يومئذ على الهدى : وما روي عن عائشة من قولها ، قتل والله مظلوماً • قال ولا يمتنع ان يتعلق باخبار الاحاديث في ذلك لانه ليس هناك امر ظاهر يدفعه . نحو دعواهم ان جميع الصحابة كانوا عليه . لان ذلك دعوى منهم وان كان فيه رواية من جهة الآحاد واذا تعارضت الروايات سقطت ووجب الرجوع الى ما يثبت من احواله السليمة ووجوب توليه ولا يجوز ان يعدل عن تعظيمه وصحة امامته بامور محتملة فلا شيء مما ذكروه الا ويحتمل الوجه الصحيح . قال ثم ذكر ان للامام ان يجتهد رأيه في الامور المنوطة به ويعمل فيه على غالب ظنه وقد يكون مصيباً وان افضت الى عاقبة مذمومة اهـ

هذا ما نقله ابن ابي الحديد عن قاضي القضاة اجمالاً فيما يتعلق بالدفع عن عثمان

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من أئمة الشيعة وليس من غرض كتابنا ايراد اعتراضه ومن اراد الاطلاع عليه فليراجعه في شرح نهج البلاغة

﴿ ما قاله ابن خلدون ﴾

(في سبب القيام على عثمان)

لما تكلم ابن خلدون على بدأ الانتقاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجني العرب وقيامهم على عثمان ولو أطال لابدع في المقال ولكن تقيد بما تقيد به المؤرخون واليك ما قاله في ذلك

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالامصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والانصار من قريش واهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، واما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والازد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان الاّ قليلاً منهم وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لانفسهم مع مايدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لامر النبوّة وتردد الوحي وتنزل الملائكة فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدوّ واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنفض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والانصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم منه ووافق ايام عثمان فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالامصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في اتباعهم وتنادوا بالظلم من الامراء في جهاتهم وانتهت الاخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل امرائه وبعث الى الامصار من يأتيه بصحيح الخبر :

ثم دخل في اخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة التي قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها الى بعض الاسباب

﴿ رأي لاحد العلماء في الفتنة ﴾

وسألت مرة صديقي العالم الفاضل السيد عبدالحميد افندي الزهراوي الحمصي رأيه في هذه الفتنة لما اعهده فيه من الاضطلاع وبعد النظر فاجابني حفظه الله ونفع بعلمه بالجواب الآتي يتكلم فيه على عموم الفتنة اي ما كان في عهد عثمان وبعده كلاماً اجمالياً جامعاً في مقدماته العالية لما يلزم محبي التاريخ الاطلاع عليه قال

﴿ ماجرى بين الصحابة ﴾

انّ الشيع التي قامت في أواخر الثلث الاول من القرن الاول قد غبي على أكثر المؤرخين امرها ولذلك دخل في سيرتهم شيء من الاضطراب حتى آل الامر الى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ وقول فريق آخر « لانخوض فيما جرى بين الصحابة » ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده المحمديّ مع انّ هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد في شيء . وعندي انه يضر الجهل بهذه الحادثة التي هي من الحلقات الأول لسلسلة تاريخ الاسلام . وقد سألتني ايها الصديق العزيز عن رأيي في هذا الأمر وانت اعرف به كأنك اردت ان تستعرض رأي غيرك مع رأيك الموفق . واني ذاكر في هذه الكلمات القليلة صفوة تاريخ صحيح مجمل:

لاجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يلزم ان نعرفهم في ايام حياته . ولأجل هذه المعرفة يلزم ان نعرفهم قبل بعثته وظهوره

﴿العرب قبل بعثة النبي (ص) ﴾ العرب قبل ظهور الرسول (ص) ينقسمون بحسب مواقعهم الى (١) سكان الحجاز ٠ و(٢) سكان ما عن يمينه مستقبلاً المشرق وهو اليمن ٠ و(٣) سكان ما عن شماله ٠ وهو الشام (اي الشمال) و(٤) سكان العراق العربي ٠ و(٥) سكان ما بين ذلك كله وهي بلاد نجد .

من ثمة لا يسوغ لباحث ان يحكم بأمر عام على العرب من حيث انهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النحلة والعادة والمحلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قحطان الشام والعراق واليمن كانوا بمـا آثروا شيئاً من زخارف

الحياة وبما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الاسواق الجامعة قد الفوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مطلقة . وقريب منهم قطان نجد . اما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك كما ان الحجاز أبعد الديار العربية عن الحواضر وأبعد الارض عن شره الملوك . وكان اليمن والحجاز سندين لسكان الشام والعراق اذا رأو فيها محن السلطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز يلتمسون فيهما ما يشتهون من بعض اسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذي كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب واسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة . وهو الوطن الذي اعتلى فيه ايما اعتلاء شأن الحرية التي تربي الرجال والنساء أفضل تربية . وان العاقل لا يستطيع ان لا يعجب بما كان في مكة شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرقية التي تجلى في سمائها انوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهائها وهو حسير. وهذا من الاسباب في ان قريشاً كانوا أرقى عرب الحجاز .

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا التي تعرف الانسان انه لم يخلق سدى، وتعرفه ما يجب ان يقدمه اليوم ليلقاه غداً ، ومن المعارف الدنيا التي يظهر بها مبلغ استعداد الانسان للعلم والعمل. فجبر الله تعالى لهم هذا النقص اذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعلمه من الحكمة والمعارف العليا ما تتزكى به النفوس ، وتسعد به الشعوب ، ويسهل معه تحصيل المعارف الدنيا ، وجعل الأمة العاملة هي العليا .

﴿ العرب في حياة الرسول (ص) بعد بعثته ﴾ كتب هذا الامر العظيم للرسول المجتبى من قبل الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقام ينشر بينهم هذه المعارف . بيد انهم لا قبل لهم بتلقيها لانها من أفق أعلى مما تنظر اليه افكارهم فأخذتهم الدهشة ونأوا بجانبهم وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بداله من القول

وينبغي للمرء ان لا يتعجب ولا يسارع بهجو قريش الذين كانوا أرقى العرب فان كل غريب مستنكر بادئ بدء . وقريش لم يعتادوا الخضوع الذي يشعر به معنى الدين وليس ما دعاهم اليه من تلك المعارف العليا بالذي يعقل بالبداهة بل لا بد فيها من النظر والتأمل . ولنا ان نلومهم على ما فعلوه من ايذاء الرسول بالقول والفعل . ولكن هذا العيب لم يسلم منه (ويا للاسف) طائفة من طوائف الماضين

والحاضرين . [انظر ما يتقوّله المقلدون اليوم في المصلحين]على ان قريشاً لم تخل من رجال حكماء ادركوا هذا الفضل الذي جاءهم به ذلك المصطفى الكريم. أفلم يكن اولئك الذين نصروا هذه الحكمة الجديدة باديء بدء من افاضل الحكماء . ألم تكن قريش قبيلتهم ، ألم يكن بطن مكة دارهم ، ألم تك تلك الارض ارض الحرية مهدهم وظئرهم وحاضنتهم ؟

كأنّ قريشاً تلك الفتاة القوية كانت في غفلة عما في رحمها من الارواح السامية فلما ظهرت لم تاق اليها بالاً حتى عاينت مراقيها البديعة في العالمين .

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية انشراح الصدر لنوال البشر كلهم « على قدر استعداد كل منهم » اسباب السعادة — على ضد رأي الذين يريدون حصرها في شعب مخصوص — ولذلك كانت دعوة هذا الرسول القرشي عامة لكل الشعوب فما لبث بعد ان دعا قومه حتى طفق يدعو مجاوريهم من القبائل ، ويراسل الملوك والاقيال،وكان اهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة . واليهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة اقام فيها يدعو المكيين ومن حولهم الى هذه الحكمة المباركة واشتد في اثنائها العداء بين انصار هذه الحكمة الجديدة التي اوحاها الله ، وبين انصار العادات القديمة التي سنها الآباء . فكانت الهجرة أسلم وأحكم ، وكانت هي باب ذلك الفوز العظيم .

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور الى طور . ثم صاح الحجاز بالعرب صيحة فاذاهم يتبدلون .

كان العرب قبائل متفرقة متعادية . يأكل القويّ الضعيف، ويهجم القريب على القريب ، فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم ، واتحدت وجهتهم ، ولانت منهم قسوة المتكبرين. واشتدت عزيمة المستضعفين ،وخضعوا جميعاً لاحكام امام واحد يروضهم بالعدل، ويروقهم بالفضل ، ينفذ فيهم امره وقضاؤه ويجل فيما بينهم ثناؤه يرضون عما رضى ، وينقمون عما نقم ، ان استنفرهم نفروا ، وان صرفهم انصرفوا ، ثم اذا شاء استصرخهم فاذا هم يلبون .

يعد هذا الذي ذكرناه تبدلاً عظيما في العرب . ولكن هل اصبح كل فرد من افرادهم متخلياً عن كل المساوي التي نهي عنها ، ومتحلياً بكل المحاسن التي أمر بها ؟ هل اصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده، او حسد كان قد خالط فؤاده ، او حقد اقتضاه مزاجه ،او تهور مضى عليه منهاجه ؟ هل خلق

لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد ، ورأي في كل الامور سديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ الاموال بالقمر ؟ الم يبق فيهم من زان ولا قاتل ، ولا سارق ، ولا غاصب ، ولا نمام ، ولا مغتاب ، ولا كذاب ، ولا مرتاب ولا ذي شهوة باطلة ، ولا ذي خصلة عاطلة ؟

سيحار في الجواب عن هذه السؤلات كثيرون لما يتبعها • اما الذين لا يرون العصمة لغير الانبياء فانهم لا يحارون وهم يقولون ان التبدل العظيم انما وقع في ثلاثة اشياء « ١ » في تحوّل الاكثرين عن سنن الآباء الى دعوة النبي من حيث الاجمال و « ٢ » في ترك الاكثرين للمنكرات الظاهرة من زنا ، وقتل نفس وشرب خمر ، وقمار . وسرقة ، وغصب مال . واتيانهم للمعروفات الظاهرة من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ، و « ٣ » في جمع الكلمة بعد التفرق . قلنا « الاكثرين » ولم نقل « الكل » لان تاريخ ذلك العصر على اصح الروايات يثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا الا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر ، ويقتلون النفس ، ويزنون ، ويسرقون ، الخوان كانوا قليلا . ودع عنك الذين كانوا يكذبون ، ويغتابون وينمون ، ويحسدون ، ويحقدون ، الخ

العرب بعد وفاة الرسول (ص) ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين اظهرهم • اما من بعده فيظهر ان القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوى ، ولم يتحلوا بالمحاسن قد صاروا كثرين . يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض اركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضي الله عنه ان يعتبرهم كالمرتدين ، ويحاربهم كما كانوا يحاربون الكافرين

فهذا يدعونا ان لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (اي كل من رأى النبي وآمن به) اذ لو فسرنا هذا التفسير لما صحّ لأحد ان يقول كما هو المشهور ان كل فرد من افراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبةً حقيقيةً يصلح ان يطلق عليها لغةً وعرفاً اسم الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي واضرابهم رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء وامثالهم هم الصحابة الحقيقيون ، وهؤلاء وامثالهم هم الثقات العدول • واما اولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه فيسلمون له و لم يكونو يلبثون عنده الا عشية او ضحاها فيقال لهم مسلمون لمحمد عليه السلام • ولا يصح على هذا

التفسير الحقيقي ان يقال انهم صحابته • كما لا يصح عقلاً ونقلاً ان يقال ان كل فرد من امثال هؤلاء عدل ثقة • وكذلك الصبيان الذين كان عمر احدهم في حياته صلى الله عليه وسلم سبعاً او تسعاً مثلا من السنين •

ثم انّ الذين نقول عنهم انهم عدول كما شهد لنا التاريخ لا يفرض علينا ان ننزههم كما ننزه الانبياء ورب العالمين • ولا يجب علينا ان نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لا يعرفون اصول الدين •

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون انه لا فرق بين ما يراه النبي صلى الله عليه وسلم وما يراه احد اصحابه • لانه اما ان يكون للنبي نص في الشيء فالامر ظاهر سوآء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص او خالفه لعدم العلم بالنص • وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز في حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم • واما ان لا يكون للنبي نص فيستوي الصحابة في نظر بعضهم • ولم يكونوا يساوون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احداً بل يستوون في نظر التابعين عليهم الرحمة •

ثم لا شك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ولكن حديث « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » قد صرح العلماء بأنه موضوع وقد صحّ ما معناه « انّ أمة النبي يردون عليه الحوض فيذاد ناس منهم فيقول يا ربّ أصحابي • فيقال له لا تدري ما أحدثوا بعدك »

﴿ الذي جرى بين الصحابة ﴾ اذا تمهد هذا فالاختلاف الذي جرى بين الصحابة لا شك بأن جرثومته من فئة لم تأخذ بنصيب واف من صحبة النبي • ولم تتضلع من التهذيب المحمدي • واني أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مثلهم كثيرين من غيرهم ولكني لا اثبت لغير الانبياء عصمة مطلقة كعصمتهم فأن هذا من اصول هذا الدين

هذا هو الأجمال ومنه يأخذ الاذكياء آراء مهمة عند ما يقرأون الحوادث التي جرت • ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبي في هذه المختصرة ان أضيف من اجله الى هذا الأجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ومبصرات اياها بعض الدقائق :

(١) ان القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش • وأكثر افرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن ان يصحبوه — ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعةً من نهار • ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم. وهكذا حاربوا مع من بعده •

(٢) ان القبائل البدوية كانت متمادية في الجاهلية • ولما تآخت في الاسلام كان عرق العداوة يضرب في بعضها احياناً • فكانت كل قبيلة تشايع رئيساً من رؤساء قريش وتمنّى له الدولة ابتغاء ان تميز لديه على اعدائها الاقدمين •

(٣) ان القبائل البدوية كان قد اضرّ بها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها ان تتضلع من نعيمها • وكانت تحين ان تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء اثر النبي صلى الله عليه وسلم الى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار ، وتوارث المناصب بالأنساب والحيل ، لا بالمواهب والعمل •

(٤) ان الأمم العجمية ــ من روم وفرس وسريان وعبرانيين وغيرهم ــ من لم يدخل في الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً ببث الدسائس ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة المحمدية على ايدي انصارها الحقيقيين • ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلبهم حب عادات سالفة لهم قومية او دينية • وما زالوا بعد امتزاجهم بالعرب حتى أدخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناحيهم •

(٥) بمجموع ما قدمنا الأشارة اليه اختل ــ بعض الاختلال ــ ذلك المحيط الذي كان بالامس أصح محيط على الأرض • ولم يكن اختلاله في ايام خلافة الصديق واوائل خلافة الفاروق رضي الله عنهما الا طفيفاً • واما في اواخر خلافة الفاروق فاشتدّ ذلك المرض الذي حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة في اواخر ايام علي رضي الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والملك • وهذا بعض ما كان يتمناه رجال من قريش والقبائل البدوية والأمم العجمية اهـ

هذا ما قيل في فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية اوردته في هذا الكتاب دون ان اعلق عليه شيئاً من الرأي اذ آرائي الخصوصية بسطتها كل رأي في محله من هذا الكتاب فعلى القارئ ان يأخذ مما قلت وقال غيري بما شاء اذا ظهر له انه الحق اذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام

﴿ صفة عثمان ﴾

في تاريخ ابن عساكر كان عثمان ليس بالطويل ولا بالقصير حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية عظيمها اسمر اللون عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين كثير الشعر وكان يصفر لحيته ويشد اسنانه بالذهب

﴿ باب ﴾

(ولده وعماله)

(ولده)

ولد عثمان بن عفان هم عبدالله الاكبر وأمه فاختة بنت غزوان : وعبدالله الاصغر أمه رقية بنت رسول الله وتوفى صغيرا : وعمرو : وأبان وخالد : وعمر : وسعيد : والوليد وأم سعيد : والمغيرة : وعبدالملك : وأم عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى أولاده وأشرفهم عقبا . وكذلك ابنه عبدالله الاكبر وله عقب كثير وممن اعقب من اولاده ايضا خالد وقد درج عقبه وله من الاحفاد من ولد عمرو وعبدالله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة في المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم

﴿ عماله ﴾

كان عماله على الامصار في السنة التي توفى فيها على مكة عبدالله بن الحضرمي وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي وعلى صنعاء يعلى بن منية وعلى الجند عبدالله بن ربيعة وعلى البصرة عبدالله بن عامر وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهري وعلى الاردن أبو الاعور السلمي وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني وعلى البحر عبد الله بن قيس

الفزاري وعلى الكوفة أبو موسى الاشعري على صلاتها وعلى خراجها جابر ابن فلان المزني وعلى حربها القعقاع بن عمرو وعلى قرقيسيا جرير بن عبدالله البجلي وعلى آزربيجان الاشعث بن قيس الكندي وعلى حلوان عُتَيْبة بن النهّاس وعلى الماه مالك بن حبيب وعلى همذان النُسير وعلى الري سعيد بن قيس وعلى اصبهان السائب بن الاقرع وعلى بيت المال عُقْبة بن عامر وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت واما عامل مصر فقد كان عبدالله بن سعد كما رأيت فيما مرّ وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد بن أبي حذيفة

ربما يتبادر الى ذهن القارئ من اسماء هؤلاء العمال ان ليس فيهم من قرابة عثمان الا معاوية وعبدالله بن عامر وعبدالله بن سعد مع ان الفتنة قامت لاجل ان عماله كلهم من ذوي قرابته فلكي يكون القارئ على بصيرة ننبهه الى تقسيم الولايات في عهد عمر بن الخطاب فيرى ان الولايات الكبرى هي مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة وما بقي فمضموم اليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة . والكوفة وارمينيا تابعة لقنسرين . وافريقيا تابعة لمصر . والشام تتبعها اقسامها . وكل هذه الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولاتها من ذوي قرابته والكوفة وان كان عليها أبو موسى الاشعري لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التنبيه

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب وانّ الأمة خطت يومئذ خطى قليلة الى الامام في شؤونها الاجتماعية ولم تخرج مع ما صار اليها من كنوز فارس والروم وملك الاكاسره والقياصرة عن

طريق القصد في المعيشة لحمل عمر لهم على التوسط في العيش وعدم الركون الى الراحة في ابان الفتح ومصادمة جيوش الامم وانه لذا كان لا يرضى للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعمال الارضين . ولما استكمل الفتح على عهد عثمان ونزع الناس بالضرورة الى طلب الراحة واخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من اهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع وكان عثمان (رض) ليس من الشدة عليهم والاخذ على شكائمهم بالمكانة التي كانت لعمر قبله طمحت الى ذلك نفوسهم، واتجهت لتجارات الشعوب الاخرى رغباتهم ، فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه في استثمار الارضين التي جلى عنها أصحابها من أهل الذمة فاقطعهم اياها فقاموا على حرثها واخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان وروى البلاذري في فتوح البلدان انّ عثمان لما ولى معاويه على الشام والجزيرة أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعمال الارضين التي لا حق فيها لاحد فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمدير اخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم . وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله : وفي هذا دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم الى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم الى الاستعمار واذ كان عثمان غنياً جداً (١) محباً للعمران ميالاً الى التأنق في المعيشة والتطاول

«١» ذكر المسعودي ان عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون

في البنيان وانفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس وخصوصاً على أهله وذوي قرباه فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه وكانوا في عصر عمر لا يجرأون على اقتناء الضياع والدور والاكثار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش وبنى لنفسه ولنسائه واولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره وشيد داره بالحجارة والكلس وجعل ابوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالعمد المرفوعة وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة وأظهر بهذا اثر النعمة التي أنعمها الله على العرب اتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى وجنحوا الى الحصول على المال والتنعم في المعيشة فابتنى سعيد بن العاص ومروان ابن الحكم القصور خارج المدينة وأخذ كبار الصحابة في ذلك بمذهبه فذكر المسعودي منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور وماتوا عن مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وداراً بمصر ومثلها بالاسكندرية والكوفة واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه وقال المسعودي بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين الف دينار والف فرس ومثلها من العبيد والاماء وخططاً بحيث ذكر من الامصار : وربما بلغت

ومائة الف دينار ومليون درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة الف دينار : وفي رواية لابن عساكر ان الثائرين انتهبوا ماله كله يوم قتل وكان ثلاثين الف الف درهم وخمسمائة الف درهم « اي ثلاثين مليون ونصف » ومائة وخمسين الف دينار وترك صدقات كان تصدق بها بين اريس وخيبر ووادى القرى قيمة مائتي الف دينار وفي هذه الرواية من الاغراق والمبالغة مالا يخفى ولعل رواية المسعودي اصح

ثروته على ما في قول بعضهم نحو نصف مليون واكثر هذه الثروة كانت من التجارة فانهم قالوا ان الزبير كان تاجراً مجدوداً (اى محظوظاً): قال المسعودي وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودي بدار الطلحتين) وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية شراة اكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر (الطوب) والجص والساج ، وكانت ثروته من التجارة ايضاً فقد ذكر ابن قتيبة في المعارف ان طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودي عن ثروة طلحة وان كان لا يخلو من اغراق ومبالغة الا انه يدل على ما صار اليه القوم من السعة والميل الى اقتناء المال: ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف(١) و زيد بن ثابت ويعلي بن أمية وانهم بنو الدور وشيدوا

---

(١) وذكر في اسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقال ان عامة ماله من التجارة وانه كان عظيم التجارة مجدوداً فيها حتى قدمت له مرة عير فيها سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق وكان كثير التصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشطر ماله وتصدق مرة باربعين الف دينار وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله وهذا يدلك على ان اكثر غنى الصحابة انما كان من التجارة ايام اليسر واقبال الدنيا على المسلمين وانهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من البذل وعفة النفس كما تدلك عليه اخبار عبد الرحمن وطلحة واشباههم من كبار الصحابة واغنيائهم الذين انما تحصلوا على الثروة بالعمل والجد والاتجار وانفقوها في طرق البر وسبيل الخير والمحمدة ولابي بكر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن واضرابهم من اغنياء الصحابة اخبار كثيرة في هذا الباب لا محل لذكرها هنا وكلها ادلة واضحة على وجوب السعي والعمل وان العمل لازم من لوازم الحياة قامر به الاسلام وان الغنى والمال ضرب من ضروب العزة التي وصف الله بها المؤمنين لذا اشتغل في اقتنائه الصحابة والتابعون فاخذوه من الطرق التي يأمر بها الشرع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون لا سيما في هذا العصر الذي اشتد فيه تزاحم الامم على

القصور وتركوا اموالاً وضياعاً كثيرة وان سعد بن ابي وقاص ابتنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات ومثله فعل المقداد بداره في الجرف على اميال من المدينة :

وفي كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال في عصر عثمان وجنوحهم الى التنعم بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار الشكر للنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات ولم يتدرج منه الناس الى المنكرات ومما لا ريب فيه انّ عصر الصحابة مهما انطلق أهله في مجال السعة والنعيم لا يتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلا بدّ من صرفه في وجوه التنعم بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات حتى لقد كان في المدينة من آثار الرفاهة وحب التلهي لما فاضت الدنيا على المسلمين ان ظهر فيها طيران الحمام والرمي على الجلاهقات «قوس البندق» فعدّوها منكراً أمر به عثمان فأزيل في الحال واستعمل على ذلك رجلاً من بني ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات :

استكمل الفتح في عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سياسة الممالك فساروا في الناس سيرة جميلة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاها الخلفاء، وتبعهم فيها الولاة والامراء، فازدهى

موارد الرزق وتفنن الاوربيون بضروب السعي والاحتيال على جلب الثروة حتى سدوا في وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء في السعي وتقاصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجاراة الاوربيين في فنون التجارة والصناعة وسبب ذلك كله الجهل بتاريخ سلفهم والاستسلام للاوهام الباطلة التي اوهنت عزائمهم وذهبت بملكة النشاط منهم ولا حول ولا قوة الا بالله

امر الدولة الجديدة . وعلت كلمة العدل، وكثر المال وامتد رواق العمران. وراجت التجارة وتصاعدت اثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشرى بنسبة كثرة النقد فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة الف درهم ونخلة بألف درهم كما نقل هـذا المحب الطبري في الرياض النضرة من رواية أبي عمر عن محمد بن سيرين . وهذا غاية ما تصل اليه الممالك في ترقي العمران . وتوفر اسباب الكسب . ونمو الثروة بين طبقات الناس

بينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يستمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الأمم ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون في العيش ويسيرون سيرهم الحثيث في الفتح ويرفعون لاخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الروم والفرس صائر اليهم وعثمان في مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم . اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم في لج من التخاصم ما بلغوا ساحله الا وهم احزاب متفرقة وشيع متباينة فكان عصر عثمان بهـذا عصراً جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة . والراحة والتعب . والغنى والطمع . والقوة والضعف . ومنه بدأت سلسلة الاحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الاسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية

ان الدول اذا قامت في أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناصر القومي ونشأت على اساس الوحدة في الاعتقاد والوحـدة في الفكر بين اصناف الأمة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الأخرى قل ان تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن او يظهر فيها من الاحزاب والشيع لهذا فان اضطراب

امور الدولة وتفرّق اغراض الأمة في عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة في ارجاء ممالكها القاصية والدانيـة ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة انها نتيجـة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الامر، ولا تمد الى الدولة يد الغدر، حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام عليّ والاحزاب الأخرى ثم مصير الخلافة الى بني أمية ولولا ما حبّب الى الناس من خلافة الراشدين، وما بهرهم من قوّة اولئك الفاتحين، لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ بالنار، واستفز الطيش الأشرار: لـكن الملك الذي يتحصن بالعدل والدولة التي تقوم على الاساس الذي ذكرنا لا يزعزعهما تفرق المالـكين الى احزاب. وشيع ولا يطمع في جانبهما الطامعون: والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون:

هذا ما اخترت ايراده من سيرة عثمان رضي الله عنه واسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان كما اسأل القراء المعذرة في تبسطي في اخبار الصحابة وتوسعي في وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة واسترسال قلمي من ذلك بما لم تألفه انظارهم من كتب مؤرخينا الذين عاهدوا أنفسهم على القاء الكلام عن اخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم في اخبارهم مع ان ما نقلوه من المطاعن وملأوا به صحفهم من اخبار الفتنة هي بمجردها أضر على الصحابة واشدّ جناية على التاريخ من التبسط في اخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت اليهم اذ في الوجه الثاني طريق للمؤرخ يسلكه في تبرئة المتهمين منهم بباطل والاعتذار عمن يظن انه اخطأ منهم ليدفع بهذا الشبه التي تكاثفت سحبها على النفوس من قراءة اخبار الفتنة التي ترمي كبار الصحابة بوصمة التحزب

على عثمان اذا حملت على ظاهرها كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها وتوسعوا في التنقيب عنها والتدقيق فيها وبسطوا للقراء ما ظهر لهم من اسبابها الخفية والجلية وكل ما يتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكانته من النفوس الضعيفة فتسيء الظن في رجال هم دعائم الاسلام وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين وبجدهم تأسست دولة المسلمين. وما ضر الصحابي منهم لو نقبنا عن سيرته ورأينا ما يوجب النقد في اخباره فاذا التمسنا له العذر فلم نجده قلنا انه مجتهد اخطأ في اجتهاده وليست العصمة الا لله وللرسل وما ادعاها لنفسه احد من الصحابة قط . وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لما نهى عن الاسراف في مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك بل قال : صدقت رجل اخطأ وامرأة أصابت : وكذلك عثمان فانه اعترف بخطائه على ملاء الناس اكثر من مرة كما رأيت فيما مرّ من سيرته: والشواهد على هذا كثيرة في اخبار الصحابة لا محل لايرادها هنا وفيما ذكر كفاية للعاقلين .

وها انا ابدأ بسيرة من اشتهر من الرجال في دولة عثمان رضى الله عنه وهما حبيب ابن مسلمة الفهري وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز

عبد الله بن عامر

﴿ باب ﴾

﴿ نسبه ومولده ونشأته ﴾

(نسبه)

هو عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قُصَيّ القرشي العبشمي وهو ابن خال عثمان بن عفان . أم عثمان أروى بنت كريز وأمها وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي (ص) وأم عبد الله دجاجة بنت اسماء بن الصلت السلمية

(مولده ونشأته)

ولد عبد الله بن عامر في مكة بعد الهجرة باربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساكر وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساكر وقد أجمع علماء قريش ان رسول الله أُتي بعبد الله بن عامر في فتح مكة فجعل ينفث عليه وجعل عبد الله يبتلع ريق النبي (ص) فقال انه لمسقا وفي لسان العرب انه صلى الله عليه وسلم قال له : ارجو ان تكون سقاء : اي لا تعطش . وفي رواية لابن عساكر انه لما جيء به لرسول الله (ص) قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقا : فلم يزل عبد الله شريفا سخياً كريماً كثير المال والولد

فعبد الله بن عامر ولد مكياً ونشأ مسلما مدنياً وقد كان يعد في الطبقة الاولى من أهل المدينة كما في رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حداثة سنه فوليها وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين فقام باعباء الولاية أحسن قيام وقاد الجيوش اعظم قياد وأكمله ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية وصار الى المسلمين ملك الاكاسرة نخفقت اعلامهم على اقاصي بلاد فارس الشرقية والغربية وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من

رجال الفتح الذين خلدوا لتلك الامة فخراً لا تطاول اليه الاعناق ولا يدانيهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار بن عامر في هذا الكتاب وكما ترى من تتمة خبره فى فتح تلك البلاد مما يأتي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(ولايته على البصرة وفتوحاته)

ذكرنا فيما تقدم ان عثمان (رض) عزل عن البصرة أبا موسى الاشعري وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨هـ) وقيل سنة (٢٩) فقال أبوموسى يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات يجمع له الجندان وزاد في رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم في سيرة عثمان وان يغزوا البلاد التي انتقضت وهي فارس وخراسان فسار بالناس الى فارس والتقى بالثائرين في اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار الى اطراف ولاية فارس فدوخها وأخضع السائرين فيها ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده في اطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيل الخبر عن ذلك وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فافتتح امامه الطبسين وهما بابا خراسان وسار الى قُهستان وأبرَشهر فلقيه قوم يسمون الهياطلة فقاتلهم الاحنف فهزمهم وخرج اليه أهل قهستان فقاتلهم حتى الجأهم الى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة الف درهم ثم قصد ابن عامر البلاد التي من اعمال نيسابور كبشت وخواف واسفرأين وارغيان ثم قصد نيسابور بعد ان استولى على كل اعمالها فامتنعت عليه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من ارباع

المدينة مرزبان يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الارباع الامان على ان يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلافتحوا الباب وتحصن مرزبان المدينة في حصنها ومعه جماعة وطلب الامان والصلح على جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على الف الف (مليون) درهم وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي . ثم أرسل ابن عامر قواده يضربون في اطراف البلاد. وقدم في أثناء ذلك بهمة والى أبيور علي ابن عامر فصالحه على اربعمائة الف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستمائة الف درهم . ووجه ابن عامر جيشاً الى هراة وقيل سار اليها بنفسه فقاتل أهلها فأعياهم فأتاه صاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس . أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين واصلاح ما تحت يديه من الارضين . وصالحه على هراة سهلها وجبلها على ان يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وان يقسم ذلك على الارضين عدلاً بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة . وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر اه

وهذا الكتاب يدل على حرص الامراء يومئذ على عمران البلاد لشرطهم على المرازبة اصلاح الارضين وقد مرّ مثله في سيرة عمر وما كان يشترطه الامراء في فتوحهم من اصلاح الطرق والجسور على أهل البلاد المفتتحة كما يدل ايضاً على انّ المسلمين كانوا يتركون المرازبة في البلاد التي تدخل تحت سلطانهم صلحاً شبه ولاة من قبل الخليفة او ولاة الثغور بدليل قوله في اول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله

وحسن النظر في امور البلاد لاسيما وانّ المسلمين كانوا يعهدون الى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها في احوالهم الشخصية على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ويتركون لغير المسلمين الخيار في ذلك بين الرجوع الى عوائدهم وبين الرجوع الى قضاة المسلمين وشرائعهم فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين بايصاء حكام البلاد والتشديد عليهم في القيام على العدل فيما وسد اليهم من امور الرعية.

هذا وهنا أمر آخر يجب التنبيه عليه وهو انّ اكثر البلاد التي أخذت صلحاً وترك أمرها لولاتها من الاعاجم لم يستقم أمرها للدولة بل كانت لاتلبث ان تخرج على سلطان المسلمين وينبذ أهلها طاعة الخليفة باغراء اولئك الزعماء فان اكثر البلاد النائية عن نظر ولاة الثغور البعيدة عن التأثر بسطوة الخلافة مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزبين كانت تنتابها الثورات الى اوائل عهد الامويين كما رأيت وسترى ولما استفحل الملك وتبسط العرب في الممالك وانتظمت لهم الامور واختلطوا مع الأمم في المعاملة والمصاهرة والدين وتولوا بانفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم في البلاد وسكنت اليهم الشعوب. والعجيب في هذا الامر ان ينزع القوم الى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة في عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملأُوا الارض بالعدل وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر وفي بلاد ترك لاهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ولما انقلب امر الخلافة الى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأُخذتهم الدول الاسلامية بالارهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا للدولة وخضعوا لولاتها كل

الخضوع . ولا تعليل لهذا الاّ ان الشرقيين أمم قد تأصل في عروقها دم العبودية فصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها الاستبداد ، ولا يُطَامِنُ من اشرافها الاستعباد ، فهي مع الظالم اطوع له من الظل ، وأذل لسطوته من الذل، كما يشاهد ذلك فيهم الى الآن في كل مكان ، فانك حيثما نظرت في المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصي الامم والظلم نشر عليهم بنوده ، وتجاوز الحكم المطلق فيهم حدوده ، حتى أودى بهم الى الهلاك . وبدولهم الى الزوال ، وبملكهم الى الاضمحلال، وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس . ولا عروق تنبض . ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم، وتستنقذهم من هوّة العدم ، والمغرب امامهم يسوق اليهم العبر سوقاً ويعلمهم كيف تكون حياة الأمم . وبماذا تسعد الشعوب . وتشاد الممالك . وكيف يقضي العلم على الظلم وأهليه ، والاستبداد وعاشقيه ، وبم يسود الانسان، وتعلو كلمة العدل في كل مكان ، وهم عن ذلك في شاغل من الخمول . واشتغال بالسفاسف . واعراض عن شؤون الحياة الطيبة . رضاءً بالعبودية لطواغيت الرياسة . واستسلاماً للقضاء . وما نهاية ذلك الاّ الفناء العاجل بازاء الأمم الغربية التي استفاض نور مدنيتها على الارض . واندفع تيارها على كل الممالك . فلا يقوم في وجهه الاّ قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بعاقبة الامور

هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين في ولاية ابن عامر من بلاد فارس الشرقية والغربية وانما اجتزأنا هنا بذكر ما فتحه ابن عامر بنفسه وفاءً بالوعد الذي تقدم لنا وبياناً لفضل هذا الرجل الصغير يومئذ سناً الكبير همةً ونفساً فلا حاجة للمزيد

﴿ ولايته الثانية على البصرة ﴾
(وشيء من اخباره فيها)

تلك ولاية عبد الله بن عامر الاولى وكانت في خلافة عثمان رضي الله عنه وقد وليها مرة ثانيةً على عهد معاوية وذلك انّ معاوية لما صفت له الخلافة أراد ان يولي عتْبة بن أبي سفيان على البصرة فكلمه ابن عامر وقال له انّ لي بالبصرة ودائع وأموالاً فان لم تولني عليها ذهبت . فولاه البصرة فقدمها سنة احدى وأربعين وجعل اليه معاوية خراسان وسجستان فاستعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين فسار قيس الى بلخ فنازلها فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حريصين على عمران البلاد وتسهيل السبل فتقدم الى عطاء بن السائب مولى بني ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة أنهر من انهر عمالة بلخ فبناها وسميت قناطر عطاء ثم انّ ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم نخاف قيس ابن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا امير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه لتضييعه الثغر واهماله امر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا فضربه وحبسه . واستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وأخذ بتدويخ البلاد التي نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلةً يجالد المشركين ويمنعهم عن سدّها حتى اصبح ولم يقدروا على سدّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة . ثم سار عبد الرحمن الى زران وبست

وخشك فظفر بأهلها وفتحها كلها . ثم سار الى زابلستان وهي غزنة واعمالها وقد كان اهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد الى كابل وقد نكث أهلها ففتحها .

﴿ شيء من اخباره في البصرة ﴾

هذه فتوح ابن عامر وولاته في ولايته الثانية على البصرة . واما غير ذلك من اخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قويت وشرهم قد استشر فخرج منهم على ابن عامر سهم بن غالب الهجيمي في سبعين رجلاً منهم الخطيم الباهلي فنزلوا بين الجسرين والبصرة فمر بهم عبادة بن قرص الليثي من الغزو ومعه ابنه وابن اخيه . فقال لهم الخوارج من انتم ؟ قالوا قوم مسلمون . قالوا كذبتم . قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله (ص) مني فاني كذبته وقاتلته ثم اتيته وأسلمت فقبل ذلك مني . قالوا انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه . فخرج اليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم وقتل منهم عدةً وانحاز بقيتهم الى اجمة (غيضة) وفيهم سهم والخطيم فعرض عليهم ابن عامر الامان فقبلوه فأمنهم فرجعوا . فكتب اليه معاوية يأمره بقتلهم فابى وكتب اليه اني قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده زياد في ولايته

واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رؤفاً بأهلها كريماً عليهم لين الجانب لا يأخذ على ايدي السفهاء منهم فسدت عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم لا سيما في بلد كثر فيه الخوارج الذين هم اعداء كل سلطان والمناهضون لكل امير يضاف الى هذا ما فطر عليه القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الامراء ومواجهتهم بقول الحق وأخذهم لهم بالهفوات

روى ابن عساكر عن ابي داود قال خرج عبد الله بن عامر الى الجمعة (أي صلاة الجمعة) عليه ثياب رقاق وابو بلال « هو مرداس بن أُدَيَّة من رؤس الخوارج » تحت المنبر وذلك في يوم الجمعة فقال ابو بلال. انظروا الى اميركم يلبس لبس الفساق . فقال ابو بكرة وهو تحت المنبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أهان سلطان الله في الارض اهانه الله)

لهذا وأشباهه فسدت عليه البصرة فشكى ذلك الى زياد بن أبيه . فقال له جرد السيف . فقال اني أكره انْ اصلحهم بفساد نفسي . وهذا منه منتهى العدل والتجافي عن الاستبداد بالناس والاخذ بالقوة الاّ انه نسب بذلك الى الضعف فعزله معاوية عن العمل وذلك ان ابن عامر أوفد وفداً من البصرة الى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن أبي أوفى اليَشْكُريّ المعروف بابن الكواء فسألهم معاوية عن اهل العراق وعن أهل البصرة خاصة. فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين انّ اهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم سلطانهم. ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه. فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر لكن لم يرَ مفاجأته بالعزل اما احتراماً له واعظاماً لشأنه واما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس اليه وحب قريش له فكتب اليه كما في رواية ابن عساكر يسأله ان يزوره فقدم عليه وكان يأتيه ويتغدى عنده ثم دخل اليه يوما يودعه راجعاً الى عمله :فقال له اني سائلك ثلاثاً : فقال هي لك وانا ابن أم حكيم : قال ترد عليّ عملي (أي ولاية البصرة) ولا تغضب : قال قد فعلت : قال وتهب لي مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لي دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحمٌ : فقال ابن عامر واني سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً فقل قد فعلت :

قال معاوية قد فعلت وانا ابن هند : قال ترد اليّ مالي بعرفة : قال قد رددت اليك مالك بعرفة : قال وتنكحني هند بنت معاوية. قال قد فعلت: قال ولا تحاسب لي عاملاً ولا تتبع أثري : قال قد فعلت :

هكذا نقلوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة وعدم تردده فيما طلبه ابن عامر منه مع انّ معاوية لا يفعل عبثاً وليس هو في حاجة لدور ابن عامر والسرّ في هذا انّ معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس وانه اصبح من رجال قريش النجباء ، وابنائهم العظماء ، وانه ممن يشار اليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والاحسان ، يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عن من ترى لهذا الامر (يعنى الخلافة) من بعدى : قال وأمّا فتاها حياءً وحلماً وسخاءً فابن عامر :

انّ بلوغ ابن عامر هذه المكانة من نفوس الأمة هو الذي دعا معاوية لان يتلطف بعزله ويطلب منه ماله في عرفة ودوره في مكة وذلك كي لا يقصد بعد عزله مكة وكي يذهب ذهاب دوره منها بأمله في السكنى فيها والاقامة في ربوعها حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من عش النازعين الى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ولذا رأى معاوية من الحزم ايضاً ان يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره وذا من جملة ما عرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واستلم قياد الرجال

﴿ باب ﴾
(ما ذا كان منه في الفتنة)

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الامصار عليه اهل الكوفة وأهل

مصر وأما أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه لان ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحببه الى الناس لهذا لما استُعفيَ عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه ان يقرَّ ابن عامر على البصرة ليتحبَّبه اليهم كما ذكر ذلك ابن عساكر ولما كثر الارجاف بالعمال واستعرت نار الفتنة دعا عثمان (رض) ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يغني عن الاعادة ثم لما حوصر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع ابن مسعود على جيش لانجاده حتى اذا كانوا بأداني الحجاز خرجت خارجة من أصحابه فلقوا رجلا . فقالوا ما الخبر . قال قتل عدوّ الله نعثل وهذه خصلة من شعره . فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله فكان اوّل مقتول في دم عثمان ثم رجع مجاشع الى البصرة . فلما رأى ذلك ابن عامر حمل ما في بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخص الى مكة فوافي بها طلحة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام . فقال لا بل ائتوا البصرة فأن لي بها صنائع وهي ارض الاموال وبها عدد الرجال والله لو شئت ما خرجت حتى اضرب بعض الناس ببعض . فقال طلحة هلاّ فعلت أأشفقت على مناكب تميم . ثم أجمع رأيهم على المسير الى البصرة فاقبل بهم اليها . هكذا روى ابن عساكر وروى الطبري في ذهاب ابن عامر الى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك وأنهم قالوا له قبحك الله . فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما اقام معاوية فنكتفي بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب . فلم يجدوا عنده جوابا مقبولاً

وانت ترى من هذا انّ ابن عامر كان محل الظن في ان يعمل عملاً كبيراً بعد قتل عثمان وتشتت رأى الأمة لانه كان من وجوه قريش وذوى

الكلمة العليا في الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحياد حتى وصل مكة فانضم الى طلحة والزبير لذا أنَّبه القوم على تركه البصرة مع قدرته على المقام فيها والاستقلال بعمل يدبره حتى استضعف جانبه لذلك كما يؤخذ من رواية الطبري عن مسيرامراء عليّ الى الامصار بعد البيعة له اذ جاء في تلك الرواية ما نصه

واما عثمان بن حُنيف (اي عامل البصرة) فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم . ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع اهل المدينة فنصنع كما صنعوا . اه

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب او تأنيب وانما يستغرب عدم الرأي والاستقلال ممن تظن فيه القدرة على العمل كما لايخفى على الناقدوكيفما كان الامر فان ابن عامر لم يستقل بعمل في الفتنة في بادىء الامر سواء كان لرغبته في الحياد أو لعدم الحزم فانضم الى طلحة وحزبه وعاد معهم الى البصرة وحضر وقعة الجمل ولو انفرد بنفسه في عمل لرأى اعوانا كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب اليه ولانه من وجوه قريش وأمجادهم كمايدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن جُوِيرِيَّة بن اسماء عمن سمعه يقول . قال عليّ بن أبي طالب يوم الجمل أتدرون من حاربت؟ حاربت أمجد الناس أو أنجد الناس : يعني ابن عامر : وأشجع الناس : يعني الزبير : وأدهى الناس : يعني طلحة .

قال ابن عساكر بعد ان اورد حديث اقبال القوم الى البصرة ومعهم ابن عامر : فلما كان من امر الجمل ما كان وُهزم الناس جاء عبدالله بن عامر الى

الزبير فأخذ بيده فقال . ابا عبد الله أنشدك الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خلّ بين الغارين يضطربان فانّ مع الخوف الشديد المطامع: فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدائي في خروج ابن عامر الى دمشق

اتاني من الانباء انّ ابنَ عامرٍ   أناخَ وألقَى في دِمَشْق المراسيا
يطيف بحمَّامي دمشق وقصره   فَعَيْشك انْ لم يأتِكَ القومُ راضيا

في ابيات

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ولم يسمع له بذكر في صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التي يظهر من قوله للزبير ما قال انه ندم على دخوله فيها وخشي على المسلمين من مغبتها .وهذا ما وقفت عليه من اخباره في الفتنة والله اعلم

﴿ باب ﴾
(مآثره ومناقبه)

كان عبدالله بن عامر عالي الهمة جليل المآثر ومن مآثره العظمى التي خلدت له في بطون التاريخ اعظم الفخر ، وأشرف الذكر ،فتحه خراسان كلها واطراف فارس وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهي غزنة واعمالها اي انه فتح قسماً من فارس الغربية المعروفة الآن بايران اوأعاد فتحه وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان فقضى على دولة الفرس وقُتِلَ في ولايته كسرى يزد جرد وانتهت ايام الدولة الساسانية في تلك المملكة الشاسعة الاكناف، المترامية الاطراف ، ورفع الاسلام على ربوعها اعلامه.

وسادت على اهلها كلمته الى اليوم

بعد ان انتظم لابن عامر أمر الفتح وخلّدلنفسه هـذه المنقبة سمت همتـه الى العمران ، ورمي بطرفه الى أقصى غاية في الاحسان ، فعول على جعل اراضي البصرة جنة تنبت الريحان ، وان يصل ما بين العراق والحجاز بالقرى العامره . والمياه النابعة . لتذهب وحشة البادية من النفوس . وتمهد طريق القوافل . ويأمن ابن السبيل . وتسهل مسالك التجارة . فأخذ باحتفار الانهر في سواد البصرة فاحتفر كما في رواية ابن قتيبة ثلاثة انهر : نهر البصرة الذي يمر في السوق: والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبدالله وهي أمه: ونهر الأبلّة : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النبَاج وهي قرية بالبادية فغرس فيها الغرس فكانت تدعى نباج ابن عامر : واتخذ القريتـين وغرس بها نخلاً وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر و بينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة: وحفر الحفير ثم حفر السمينة واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيـه : وكلها اماكن ومياه بين البصرة والحجاز ازهرت جوانبها وسالت بهمته وجدّه عيونها . وكان يرمي بطرفه لأبعد من هـذه الغاية لو استمر في ولاية البصرة . ويريد جعـل القرى والمحطات . بين البصرة ومكة كالسلسلة المتصلة الحلقات . فقد نقل ابن قتيبة ان ابن عامر كان يقول:لو تركتُ لخرجت المرأة في حداجتها (محفتها) على دابتها ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة : وروى ابن عساكر وابن الاثير وابن عبد البر انّ ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها العين وسقى الناس الماء فذلك جار الى اليوم . واتخذ في البصرة السوق اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً : فهو كما أراد بشق الانهار احياء الارضـين واستثمارها وترغيب الناس بالزراعة

وجنى خيرها أراد تمهيد السبل واقامة الاسواق ترويج التجارة وترغيب أهلها والقيام على شؤونها أداء لحق الرعية وقياماً بواجب الامارة والعدل هذه الهمة التي لامرتقي فوقها لهمة. والمنزلة التي لا متناول بعدها لذي احسان. فلقد بلغ ابن عامر باعماله غاية من الجد وتحري المصلحة والاتيان بكل ماهو نافع للأمة والدولة ليس وراءها متجاوز لعامل. فحقيق به المدح. وحريّ به الاقتداء. ولو سار كل عمال عثمان سيرته لاستحال على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع الى الايقاع به بسيرة العمال والطعن على الولاة فرحمه الله ورضي عنه.

﴿ كرمه ﴾

مناقب ابن عامر كثيرة وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر في الاستيعاب . كان عبد الله بن عامر سخياً كريماً حليماً ميمون النقيبة كثير المناقب : وقال ابن الاثير في أسد الغابة : كان أحد الاجواد الممدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولاجرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين الناس الكرم الذي تحلّى بحلاه ، وبلغ غاية مداه، فانه كان موطأ الاكناف. طويل اليد بالمعروف . رَحْب الصدر بالقاصد كثير الصلة خصوصاً لذوي قرابته من قريش . نقل ابن عساكر من رواية ابن اسحق قال . قدم ابن عامر على عثمان فقال له : صلْ قومك من قريش : ففعل وأرسل الى علي ابن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة. فلما جاءه به قال (أي علي) : الحمد لله انا نرى تُراث محمد يأكله غيرنا: فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر: قبّح الله رأيك أترسل الى علي بثلاثة آلاف درهم : قال كرهت ان أغرقَ ولم أدرِ

ما رأيك : قال فاغرق : فبعث اليه بعشرين الف درهم وما يتبعها . فراح علي الى المسجد فانتهى الى حلقة وهم يتذاكرون صِلات ابن عامر هذا الحي من قريش . فقال علي هو سيد فتيان قريش غير مُدَافَع : قال وتكلمت الانصار فقالت ابت الطلقاء الا عداوةً . فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أبا عبد الرحمن قِ عرضك ودارِ الانصار فألسنهم ما قد علمت : فأفشي فيهم الصلات والكسا فأثنوا عليه . فقال له عثمان انصرف الى عملك . فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقالِ عبد الله بن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة :

وروى الطبري عن سُحَيم بن حَفْص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان في الجاهلية فقال العباس بن ربيعة لعثمان . اكتب لي الى ابن عامر يسلفني مائة الف . فكتب فأعطاه مائة الف وصله بها وأقطعه داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال اراد ابن عمر شرا أهل بيت كان يعجبهم فأعطى بهم الف دينار فأبى عليه ذاك فاشتراهم عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها الا القليل من الاجواد وانّ اعتاق اهل بيت برمتهم من الرق وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الاجر ، وبلاعوض الاَّ حسن الذكر ، لَعَمَلٌ جليل محمود ، وأثرٌ كبير ممدود ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التي بلغت من الفضيلة والفضل مكاناً ليس وراءه غاية لمستزيد

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه عن عبدالله بن محمد القروي قال اشترى

عبدالله بن عامر من خالد بن عُقبَة بن أبي مُعَيط داره التي في السوق ليشرع بها داره على السوق بثمانين او سبعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله : ما هؤلاء : فقيل له يبكون دارهم . فقال يا غلام فأتهمْ فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً

وعن الاصمعي قال أُرتج على عبدالله بن عامر بالبصرة يوم اضحى فمكث ساعة ثم قال : لا أجمع عليكم عيّاً ولؤماً . من أخذ شاة من السوق فهي له وثمنها عليّ

وقيل لما ولي ابن عامر البصرة انحدر اليه صديقان له من أهل المدينة كان أحدهما عبد الله بن جابر الانصاري والآخر من ثقيف فاقبلا يسيران حتى اذا كانا بناحية البصرة قال الانصاري للثقفي هل لك في رأي رأيته . قال اعرضه . قال رأيت ان ننيخ رواحلنا ونتناول مطاهرنا ونمس ماء ثم نصلي ركعتين ونحمد الله على ما قضى من سفرنا . قال هذا الذي لا يرد . فتوضيا ثم صليا ركعتين فالتفت الانصاري الى الثقفي فقال . يا أخا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأيٍ هـذا قضيت سفري وأنصبت بدني وأنضيت راحلتي ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير هذا؟ قال نعم اني لمّا صلّيت هاتين الركعتين فكرت فاستحييت من ربي ان يراني طالباً رزقاً من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ثم ولى راجعاً الى المدينة ودخل الثقفي البصرة فمكث اياماً فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ألم أُخبَر أنّ ابن جابر خرج معك (١) نخبره خبره فبكى

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال في الاول منهما وكان لابن عامر رجل مقيم بالمدينة فكتب اليه بشخوص من شخص يريده ولا يقدم الرجل الا على جائزة معدة : وهذا سبب قوله للثقفي ألم أخبر الخ الخبر

ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها اشراً ولا بطراً ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة فعلم انّ الله الذي فعل ذلك فسأله من فضله. ثم أمر للثقفي باربعة آلاف درهم وكسوة وطُرَفٍ وأضعف ذلك كله للانصاري فخرج الثقفي وهو يقول

أُمامة ما حرْصُ الحريص بزائدٍ فتيلاً ولا زهد الضعيف بضائري
خرجنا جميعاً مِنْ مساقطِ روسنا على ثقةٍ منا بجودِ ابن عامر
فلما أنخنا الناعجاتِ ببابهِ تأخّر عني اليثربيُّ ابنُ جابر
وقال ستكفيني عطيّةُ قادرٍ على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر
وانّ الذي أعطى العراقَ ابْنَ عامرٍ لَرَبّي الذي أرجو لسدّ مفاقري

في ابيات

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ولما تعوّده منه قاصدوه من عدم المطل اذا أبطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسمة صدره ومؤكداً نواله ومن ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أُنس بن أُبي أُنس شيئاً وقد كان عوّده ذلك فمطله فقام اليه بمكة في الموسم فقال

ليت شعري عن خليلي ما الذي غالهُ في الودّ حتى ودَعَهْ
لا تَهِنّي بعدَ اذ أكرمتني وقَبيحٌ عادة منتزَعه
واذكر البلوَى التي أبليتني ومقالاً قلتهُ في المجمعَه
لا يكن برقُكَ برق خُلَّباً انّ خيرَ البرقِ ماالغيثُ معه

وفي ابن عامر يقول زياد الاعجم مادحاً له

أخٌ لك لا تراه الدهر الاّ على العلاّت بسّاماً جوادا
أخ لك ما مودّته بمزْقٍ اذا ما عاد فقرَ أخيه عادا

سألناهُ الجزيلَ فما تلكأ وأعطى فوق مُنْيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا فأحسنَ ثم عدتُ له فعادا
مراراً ما رجعت اليه الاَّ تبسّم ضاحكاً وثنى الوِسادا

باب

(وفاته)

روى ابن عساكر عن عمر ابن ميمون ان عبد الله بن عامر حين مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه اصحاب النبي (ص) وفيهم ابن عمر. قال ماترون في حالي فقالوا مانشك لك في النجاة قد كنت تقرى الضيف وتعطي المحتبط (١). وعن ميمون قال. بعث عبدالله بن عامر حين حضرته الوفاة الى مشيخة اهل المدينة وفيهم بن عمر فقال.اخبروني كيف كانت سيرتى.قالوا كنت تتصدّق وتعتق وتصل رحمك. قال وابن عمر ساكت. فقال ياأبا عبدالله ما يمنعك ان تتكلم. قال قد تكلم القوم.قال عزمت عليك لتكلمنّ. فقال ابن عمر اذا طابت المكسبة زكت النفقة وستقدم فترى.

قال ابن منده توفي النبي (ص) ولعبدالله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفي هو سنة تسع وخمسين وقال الحافظ أبو نعيم انه توفى سنة ستين: وفي اسد الغابة انه توفي سنة ثمان وخمسين واوصى لعبد الله بن الزبير وروى ابن عساكر ان عبد الله بن عامر توفى قبل معاوية بسنة فقال معاوية: يرحم الله أبا عبد الرحمن بمن نفاخر وبمن نباهي:

وان رجلاً تفاخر به قريش ويقول به معاوية مثل هذا القول لرجل

(١) قال أبو عبيد المحتبط الذي يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يدسلفت منه اليه ولا قرابة

كبير جدير بالاعظام حقيق بتخليد الذكر فرحمه الله ورضى عنه وكان ابن عامر كثير المال والولد فكان له النباج الذي يقال له نباج ابن عامر (مرذكره) وله الجحفة وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة وله آبار في الارض كثيرة كما ذكر ذلك ابن عساكر وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قُتل دون ماله فهو شهيد) (١) انتهى

حبيب بن مَسْلَمَةَ الفهري

﴿ باب ﴾

(نسبه ومولده ونشأته)

(نسبه)

هو حبيب بن مَسْلَمة بن مالك الاكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة ابن عمرو بن شيبان بن محارب بن فِهْر بن مالك بن النَضْر القرشي الفهري يكنى أبا عبد الرحمن ويقال له حبيب الدروب وحبيب الروم لكثرة دخوله اليهم ونيله منهم

(مولده ونشأته)

ذكر في اسد الغابة انّ حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقد كانت وفاة النبي (ص) في صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيكون مولد حبيب قبل الهجرة بسنتين فهو مكي المولد اسلامي النشأة . وقد اختلفوا في هل كانت له صحبة ام لا

---

(١) قال ابن عساكر في سبب روايته لهذا الحديث ان معاوية أراد ان يستصفي ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر والله لأقاتلنه دون مالي فقد سمعت رسول الله يقول .. الحديث

وأكثرهم يقول كان له صحبة الاّ انه لم يغزِ مع النبي (ص) وفي رواية لابن عساكر عن ابن أبي مليكة عن حبيب بن مسلمة الفهرى انه أتى النبي (ص) بالمدينة فأدركه أبوه فقال : يا نبي الله يدي ورجلي . فقال له النبي ارجع معه فانه يوشك ان يهلك . فهلك أبوه في تلك السنة . وفي رواية له ايضاً انه رجع الى المدينة وغزا مع النبي آخر غزوة وهي غزوة تبوك وهذه الرواية تؤيدقول من قال انّ له صحبة . وقد كان حبيب من اشرف قريش كما في رواية عن الزبير بن بكار ذكرها في أسد الغابة . بل كان من شجعانهم وسراتهم ورافعي راية مجدهم . والمبرزين في الحزم وحسن القيادة منهم . وهو على ما أرى في طبقة خالد بن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والاقدام والاثر الجميل في الفتح ذلك لانه شبّ منذ نعومة الاظفار على الحرب ، وألف من صغره الطعن والضرب ، فقضى معظم ايام حياته في الحروب . فكان له في تشييد دعائم الاسلام في البلاد القاصية، والممالك النائية ،جهاد طويل، وعمل في الفتح جليل ، لا سيما في الجزيرة وارمينيا والقوقاس كما ستري بعدُ : ومما يدل انه نشأ من صغر سنه على الحرب ما رواه ابن عساكر انّ حبيباً ذهب في خلافة أبي بكر الى الشام للجهاد فكان على كردوس من الكراديس في اليرموك . لذا لما ادمن الحرب من صغر سنه نشأ قائداً محنكاً من اعاظم قواد الفتح في عصره كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلي ان شاء الله

﴿ باب ﴾

(فتوحاته)

اختلف الرواة في هل انّ عمر بن الخطاب ولّى حبيباً في خلافته ام لا

والارجح انّ أبا عبيدة بن الجراح في عهد ولايته على الشام ولاه انطاكيه ثم لما فتح عياض بن غَنْم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ولما ولى عمر ابن الخطاب سراقة بن عمرو على غزو الباب وكتب الى حبيب فيمن كتب اليهم بامداد سراقة سار حبيب من الجزيرة الى ارمينيا ومنها الى القوقاس كما مرّ الخبر عن ذلك في الكلام على فتح ارمينيا والقوقاس وفتح هو وعبد الرحمن وسراقة وغيرهم من القواد بلاد ارمينيا ثم انتقضت ثانية فغزاها في خلافة عثمان حتى أتم فتحها كما رأيت . وقد وعدنا فيما مضى بايراد الخبر عن مسير حبيب الى ارمينيا وفتحه فيها وما كان له من البلاء الحسن في الحروب التي كانت للمسلمين في الجزيرة وارمينيا فنقول

كان حبيب بن مسلمة مع أبي عبيدة بن الجراح في حروبه في شمال سورية ولما فتح أبو عبيدة انطاكية الفتح الثاني بعد انتقاضها ولىّ عليها حبيب ابن مسلمة فتولاها وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن فقصد جبل اللكام وكان فيه قوم اشداء يسمون الجراجمة فلم يقاتلوه بل بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية ما داموا من اعوان المسلمين وجندهم ودخل معهم في هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الانباط وأهل القرى فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعوجون أخرى حتى غزاهم مسلمة ابن عبد الملك وأجلاهم عن جبل اللكام وان ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويبقوا على نصرانيتهم ولا تؤخذ منهم الجزية وان يجرى عليهم الرزق كبقية الجند فنزل بعضهم حمص وبعضهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها . ولعلّ الحي الموجود الى هذا العهد في مدينة

حماه المعروف بحارة الجراجمة ينسب الى اولئك القوم لانه نزل منهم فريق فيه

ثم لما سار عياض بن غنم الى فتح الجزيرة كان حبيب في جملة قواده ففتح سميساط وقرقيسيا وقري حولها ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ثم سار الى ارمينيا بأمر عمر ففتح منها ما فتح وذلك الفتح الاول الذي انتقضت بعده وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان وقد بسطنا كيفية مسيره اليها وانه لما انتهى اليه سلمان بن ربيعة الباهلي الذي كان أرسله عثمان رضي الله عنه مدداً له سار حبيب من غرب ارمينيا وسلمان من شرقيها وقد ذكرنا ما فتحه في طريقه سلمان واوردنا الخلاف بين المؤرخين في خبر ذلك الفتح وفي المكان الذي اجتمع فيه حبيب وسلمان وبقي ان نذكر ما فتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب كما بلغه سلمان من جهة الشرق

ذكرنا في سيرة عثمان انّ سلمان بعد ان فتح قاليقلا أجلبت عليه الروم بجموع عظيمة وانه بيّتهم قبل وصول المدد اليه فاجتاحهم وذكر في فتوح البلدان انّ حبيباً لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد اليه نزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم وكان عياض قد أمّنه على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على اتاوة فانفذه حبيب له ثم نزل منزلاً بين الهرك ودشت الورك فاتاه بطريق خلاط بما عليه من المال وأهدى له هدية لم يقبلها منه ونزل خلاط ثم سار الى الصيسانة فلقيه فيها صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرّجان فقاطعه على بلاده ووجه معه رجلاً وكتب له كتاب صلح وأمان ووجه الى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ثم أتى ازدساط واجتاز نهر الرس وأتى مرج ديبل وغلب على جميع تلك النواحي

حتى بلغ سراج طير وبفروند فاتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على اتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقِراهم (ضيافتهم) ومعاونتهم على اعدائهم: وهذه صورة كتاب صلح دبيل

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم. أني امنتكم على على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم. فأنتم آمنون. وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيدا: وختم حبيب بن مسلمة:

وأتاه بطريق البسفرّجان فصالحه على جميع بلاده. وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم وسار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم اليه هدية وسأله كتاب صلح وأمان فكتب حبيب اليه

اما بعد فان (نقلى) رسولكم قدم علي وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم انا أمة أكرمنا الله وفضلنا وكذلك فعل الله وله الحمدُ كثيراً وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام وذكرتم انكم احببتم سلمنا وقد قوّمت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فان قبلتموه ووفيتم به والاّ فأْذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون عن كثير من الضرائب التي كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ونقول ضرائب لان الهدايا التي كان يقدمها الولاة لارباب الدولة سواء كان في فارس اوغيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها يدلك عليه ما سبق ايراده

في اخبار الفتح من ذكر الهدايا التي كانت تقدم للامراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها الاّ اذا احتسبت من الخراج او الجزية ومانعرف في تاريخ الصحابة احداً قبل مثل هذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذي يصالح عليه العدوّ الاّ عبد الله بن عامر اذ قُدّم لاحد امرائه في خراسان هدية فسأل سببها فقيل له هذه عادة عندنا فأبى قبولها الاّ بعد استشارة الاحنف بن قيس الامير يومئذ من قبل ابن عامر فلما استشاره عنها أبي قبولها ايضاً وأمره ان يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمها القرشي وكان مضماً : اشارة الى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وانّ مثل هذه العفة من اولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غايةً من العدل وحسن السيرة لا يبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ومن دقق النظر في تاريخ تلك الامة يعجب ممن عاصرها من المؤرخين ومن بعدهم من اهل الملل الاخرى في عدم انصافهم لها واعراضهم عن ذكر اخلاقها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل لا الوجه الذي يقتضيه الغرض والتعصب الذميم

هذا ثم انّ حبيباً سار الى تفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لاهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على انفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على اقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت دينار . وليس لكم ان تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية . ولا لنا ان نفرق بينهم استكثاراً منها . ولنا نصيحتكم وضلعكم على اعداء الله ورسوله

(ص) ما استطعتم و قِرىَ المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا . وان انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم اداؤه الى ادنى فئة من المؤمنين الا ان يُحال دونهم . وان أنبتم وأقمتم الصلاة فأخوانا في الدين والاّ فالجزية عليكم . وان عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوّكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم . هذا لكم . وهذا عليكم . شهدالله وملائكته وكفى بالله شهيدا اه

ثم انّ حبيبا فتح كسفربيس وسمسخي وخنان والجردمان وكستسجى وشوشت وبازليت وقلرجيت وثرياليت وخاخيط وخوخيط وأرطهال وغيرها من بلاد ايبريا وأرمينيا الغربية منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الاسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزوين كما مر الخبر عن ذلك في سيرة عثمان (رض)

ولما فتح حبيب ما فتح من ارمينيا كتب الى عثمان بذلك فوافاه كتابه وقد نعي اليه سلمان فهمّ انْ يوليه جميع ارمينيا ثم رأى ان يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة لَغَنائه ونكايته في الروم فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فانقلب راجعاً الى الشام ونزل حمص ثم اخذه معاوية الى دمشق وكان يردد الغزو الى الروم وله في الحروب معهم بلاء حسن لما عرف عنه من الشجاعة والاقدام وحسن قيادة الجيوش فقضى كل ايام حياته في الجهاد . وتدويخ البلاد . فكان من خيرة قواد المسلمين . وابطال الفاتحين كما رأيت من اخباره في فتح الجزيرة وارمينيا فرحمه الله و رضي عنه

﴿ باب ﴾

(اخباره في الفتنة)

لما نزل بعثمان ما نزل كان حبيب بن مسلمة بالشام وأرسله معاوية لنجدته فلم يدركه بل قتل قبل وصوله الى المدينة

روى في التمهيد والبيان عن سعيد بن عبد الله الجمحي قال. قال حبيب ابن مسلمة رأيت فيما يرى النائم انّ بعيرا عربياً سميناً بينا هو قائم انتهى اليه اعراب مَذلَى (١) فأطافوا به نخفتهم عليه وصحت بهم فبادروه فعقروه ثم انتهبوه . فلما اصبحت أتاني اصحابي واني لأقُصّها عليهم اذ جاءني رسول معاوية فأتيته . فقال ياحبيب انّ عثمان قد تُرِكَ منزولا به ولاأدري الى ما يترامى هذا الامر فتجهز وأعجل . فرجعت الى أصحابي فاخبرتهم الخبر واستكتمتهم الرؤيا فبينا نحن في ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حُصِرَ . فأرسل الي (اي معاوية) واخبرني الخبر وأخرجني فخرجت فأقمت لاصحابي بالطريق حتى يلحقوني

وروى عن أبي حارثة وأبي عثمان قالا . لمّا أتى معاوية الخبر أرسل الى حبيب بن مسلمة الفهري فقال. انّ عثمان قد حُصِرَ فأشرعليّ برجل ينفذ لأمري ولا يقصّر. فقال ما اعرف ذلك غيري . قال أنت لها فأشر عليّ برجل أبعثه على مقدمتك لا يُتّهم رأيه ولا نصيحته أعجّله في سرَعان الناس. فقال أمِنْ جندى أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام. فقال ان أردته من جندي أشرت عليك وان كان من غيرهم فاني أكره انْ أغرك بمن لاعلم لي به . فقال فهاته من جندك قال يزيد بن شجعة (او مشجعة) الحميرى .

(١) اي خائفون غير مطمئنين

قال كما تحب . فانهم لفي ذلك اذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاهما ثم قال لهما . النجاء سيرا فأغيثا أمير المؤمنين وتعجل يايزيد . فان قدمت يا حبيب وعثمان حيّ فهو الخليفة والامر أمره فانفذ لما يأمرك وان وجدته قد قُتل فلا تدعن أحداً أشار اليه ولا أعان عليه الاّ قتلته وان أتاك شيء قبل ان تصل فأقم حتى أرى من رأي . وبعث يزيد بن شجعة فامضاه على المقـدمة في الف فارس على البغال يقودون الخيل معهم الأبل عليها الروايا (القرب) واتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس . وخرجوا جميعاً وأغذ يزيد السير فانتهى الى ما بين خيبر والسُقيا فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان ابن بشير بالخبر ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان (رض) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب :

وفي هذا الخبر ما يدل على اهتمام معاوية بامر عثمان واسراعه في انجاده منذ وصله الخبر خلافاً لما جاء في بعض الروايات من انه تباطأ في اغاثة عثمان (رض) والله اعلم

هذا وقد ذكر بعض الرواة ان حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه في حروبه وقال أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب : روينا انّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال لحبيب بن مسـلمة في بعض خرجاته بعد صفين . ياحبيب رب مسير لك في غير طاعة الله . فقال له حبيب . امّا الى ابيك فلا . فقال له الحسن بلى والله ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت في هواه ، فلئن كان قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في دينك ، فليتك اذ اسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) ولكنك كما قال

الله تعالى (كلاّ بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على انه مما يضعف هذه الرواية شهرة حبيب بالصلاح وحسن اعتقاده بعلي وعثمان وانه من فريق المعتدلين الذين قالوا نتولّى عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالايمان ونرجو لهم ونخاف عليهم كما روى ذلك ابن عساكر في حديث مرّ معنا ذكره في اخبار الفتنة ولو فرضنا صحة خبر أبي عمر الذي قال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلاً واضحاً على انّ كل فريق من المختلفين في الفتنة كان يرى نفسه على حق اذ لا يتأتى لمثل حبيب بن مسلمة على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح ان ينضم الى معاوية وهو يعتقد انه على غير حق ويقول للحسن ما قال واما انّ معاوية طالب دنيا وعليّ طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من احزابهما من الاعتقاد بفضل صاحبه وانه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقاتل عليها الا انّ هناك فرقاً بين علي ومعاوية في انّ الاول يطلبها بحق البيعة التي وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول (ص) ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين وأبقى على أصول الشورى الانتخابية . والثاني يطلبها بالقوّة والخلافة التي تؤخذ بالقوّة مصيرها الى الاستبداد ولكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وامثاله من وجوه المسلمين وصلحائهم بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولان القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة أو النبوة أو ألوهية في البعض الآخر كما حدث ذلك بعدُ بين المسلمين بل كانوا يرون انهم كلهم في الاسلام والصحبة سواء وان امتاز بعضهم عن بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة لذا كان مما يدلك على انّ حبيباً وامثاله لم يمالئوا معاوية الاّ لمحض الاعتقاد الحسن به لا لغرض آخر وانّ حبيباً كان

لا يزال يطالب معاوية بسنة أبي بكر وعمر حتى مات كما سترى بعدُ وهذا ما يدعونا الى ان نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع علي او معاوية وضلع في تلك الفتنة ولو جزمنا بان علياً كان أحق من معاوية اذ ان كل فريق من المتحاربين يومئذ كان يرى لصاحبه من الحق ما لم نرَه نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام اليه فحكمنا على فريق بانه على غير الحق حكم على الفريق الآخر كما بسطنا الكلام على هذا في اكثر من محل من هذا الكتاب وانما عدنا الى الاشارة اليه تنبيهاً للشيع الاسلامية التي لا يزال بعضها يغلو في مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلوًّا ينزلهم في منزلة الانبياء . ويغلو في وصم بعضهم بكل شنيعة غلوًّا ينزلهم في منزلة العامة والدهماء . وكلا الامرين تفريط وافراط يعيبان تاريخ الامة لاسيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين في بث دعوة الاسلام . وتدريخ الممالك والبلدان . وتأسيس بنيان الدولة التي نشرت على معظم الارض جناح السلطان . ما يوجب على كل فرد من افراد المسلمين عنده ذرة من العقل . وقليل من الانصاف . ان يقدرهم قدرهم . ولا يبخسهم من الثناء حقهم . ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الأمر منهم . اعلاءً لشأنهم . وتنويهاً بجليل عملهم . وجميل صحبتهم . وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار اعمالهم . واستصغار اقدارهم . من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى والله يتولى هدانا جميعاً . وهو خير المرشدين

باب

(شيء من سيرته)

أجمع الرواة على انّ أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسلمة ثناءً حسناً ويعتقدون فيه منتهى الصلاح لهذا كانوا يقولون كان مجاب الدعوة

ومما يدلك على صلاحه ما رواه بن عساكر انّ حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال. وهذا من نعيم من ما ينعم به أهل الدنيا ولو مكثت فيه ساعةً لهلكت ما انا بخارج منه حتى استغفر الله تعالى فيه الف مرة. قال فما فرغ حتى ألقي الماء على وجهه مراراً (لعله لانه كان يغشى عليه). ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائما يلح على معاوية بالعمل بسيرة أبي بكر وعمر. وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى بن عساكر عن ابن عجلان قال. لما أتى معاوية موت حبيب بن مسلمة سجد ولما أتاه موت عمرو بن العاص سجد فقال له قائل. يا أمير المؤمنين سجدت لوفدين وهما مختلفان. فقال اما حبيب: فكان يأخذني بسنة ابي بكر وعمر: واما عمرو بن العاص: فيأخذني بالامرة الامرة (٢) فلا ادرى ما أصنع

(وفوده على عمر وولايته)

روى ابن عساكر من طرق ان حبيب بن مسلمة كان يلي الصوائف على عهد عمر ويبلغ عمر عنه ما يحب ولم يثبته (اي بالجيش) حتى قدم عليه في حجة وكان تام القامة فسلم على عمر: فقال له انك لفي قناة رجل قال اني والله

---

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذي جاء قبله انه اسم حمام بحمص او لعله بستان فليحرر

(٢) وفي رواية احدهما كان يقول الامرة الامرة والآخر يقول السنة السنة

وفي سنانها : وفي رواية انه قال له انك لجيد القناة : قال وجيد سنانها : قال عمر افتحوا له الخزائن فليأخذ ماشاء : ففتحوها له فعدا عن الاموال وأخذ السلاح . وفي رواية لابن عساكر ان عمر لما عزل عياض بن غُنم عن الجزيرة ولّى حبيب بن مسلمة وضم اليه ارمينيا وأزربيجان ثم عزله وولى عمير بن سعد الانصاري وسعيد بن عامر بن حذيم . وقد كان كثير الغزو الى الروم والنكاية فيهم فدخل مرة ارض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خرَّ ساجدا لله .

ولأدمان حبيب الحرب اصبح مشهوراً بالشجاعة محبوباً من الناس منوها باسمه على السن الشعراء وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان (رض)

يا أيها الناس أبدُوا ذاتَ أنفسكم لا يستوي الصدقُ عند اللهِ والكَذِبُ
قوموا بحقِّ مليكِ الناس تعترفوا بغارةٍ عُصَبٍ من بعدها عُصَبُ
فيهم حبيبٌ شهابُ الموتِ يَقدُمُهم مستلئماً قد بدا في وجههِ الغضبُ

وفيه يقول شريح بن الحارث من ابيات

ألا كلّ من يُدعى حبيباً وانْ بدت مرُوَّته يفدي حبيبَ بني فهرِ

باب

(وفاته وولده)

في رواية لابن عساكر ان حبيباً دخل الحمام فأطال المكث فيه فمرض مرضه الذي مات فيه وقد اختلف المؤرخون في محل وفاته فقال البلاذري في فتوح البلدان انه لما أمره عثمان بالانصراف الى الشام نزل حمص فنقله معاوية الى دمشق فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن

عبد البر ان معاوية وجهه الى ارمينيا والياً عليها فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وكذلك قال بن سعد وابن عساكر وانه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه الله ورضي عنه

(ولده)

روى ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال . لحبيب ابن مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق ومنزلهم بطرف من اطراف حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير الي في منزلي :

انتهى ما وصل اليه علمنا من سيرة حبيب بن مسلمة الفهري وبه ينتهي الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس في سيرة علي بن أبي طالب أن شاء الله . وانى ابسط في هذا الجزء رجائي للقراء كما بسطته في الاجزاء الماضية في تنبيهي الى مواقع الخطأ منه وقد نبهني بعض الاصدقاء لغلط جاء في بعض الآيات التي وردت في الجزء الاول فلم اصلحه هنا اعتماداً على انى سأعيد طبع الجزء الاول قريباً ان شاء الله لنفاد الطبعة الاولى واصلح ما وقع من الغلط فيه

تنبيه

قد جاء في الجزء الثالث اغلاط غير الاغلاط التي اصلحناها فيه لم نتنبه اليها فأحببنا اصلاحها هنا وهي (اودى) في ص٥١٧ س١٨ وصوابها (ادّى) و (عظم) في ص ٥٤٨ س ١٣ وصوابها (عظيم) وفي ص ٥٨٠ س ١٧ (وعلى) وصوابها (وعلم) وفي ص ٥٨٢ س ١٦ (اجابة) وصوابها (اجابه) وفي ص ٥٩٩ س ١٣ (اللانبستيتوا) وصوابها ان تحذف الالف التي بعد

الواو : وفي ص ٦٠٠ س ١٠ (عد) وصوابها (يد) وفي ص ٦٣٢ س ١٦ (سؤ) وصوابها (سؤ مغبة) وفي ص ٦٣٨ س ١٨ (امرهما وكتب) وصوابها (فدخل بينهما معاوية بن خديج فأصلح أمرهما وكتب) وفي ص ٦٤٦ س ١٧ (عمر) وصوابها (عمرو) وفي ص ٦٤٩ س ١٨ (طبيعية) وصوابها (غير طبيعية) وفي ص ٦٥٩ س ١٦ (وعمرو بن) وصوابها (ومنهم عمرو بن) انتهى



فهرست الجزء الرابع

الخطأ والصواب الواردين في هذا الجزء

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦٧١	١٠	بعدد	بعدُ
٦٨١	٣	زمان	مكان
٦٨٨	٧	الامير	الامر
٦٨٨	٢٠	المقبري	العبقري
٦٩٠	١٨	اوفيّ	اوفى
٦٩٥	١١	روئ	رؤي
٧١٠	١٩	الفاتحين	الفاحين
...	٢٠	« «	« «
٧١١	٧	ويدوروا	ويدور
٧١٢	٣	بغية	بغيته
٧١٣	٢٠	غمالات	عمالات
٧١٤	٢	ويرقه	وبرقه
٧١٩	١٦	صقليا	افريقيا
٧٤٠	١	الفوآء	الفوآد
٧٤٥	٩	انقطع	انقطع اليهم
٧٥٠	١٩	حياءك	حياؤك
٧٥٦	٩	نعمه	نعمة
٧٨٤	١٩	الاّ	ألا
٧٩١	٢١	وقاموا	وقاموا به
٨٠٠	٦	امرق	امزق
٨١٣	٧	حتى	حتى اذا
٨٣٩	٢	مرۀ	مرة
...	١٢	تاريخية	تاريخية
...	٢٢	بأمر	بأمرما
٨٤٠	٥	فيها	فيهما

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٤٠	١٠	مكة	مكة التي
...	٢٢	وناؤا	ونأوا
٨٤١	١	انظر	انظروا الى
...	١٠	ولذاك	ولذلك
...	١٧	بالعرب صيحة	بالعرب كلهم صيحة واحدة
...	٢٣	عما	مما
٨٤٢	٢٥	الصحابة	الصحبة
٨٤٧	٨	لمجارات	لمجاراة
...	..	رغباتهم	رغائبهم
...	١٠	فقاموا	فقاموا
...	١٦	والمصالح	والمسالح
٨٤٩	١٠	ين	بن
...	٢٣	الشرع فكانوا	الشرع وأنفقوه في الطرق التي يأمر بهاالشرع فكانوا
٨٥٣	١٢	بخطائه	بخطأه
...	..	ملاء	ملأ
٨٥٥	١٤	السائرين	الثائرين
٨٥٨	٨	نبض	تنبض
٨٦٦	٢١	الأنها	الأنهار
٨٦٧	٢٠	ثرات	تراث
٨٦٨	٥	فالسنتهم	فالسنتهم
٨٧٤	١٠	ثمال	شمال
...	٢١	الموحود	الموجود



